

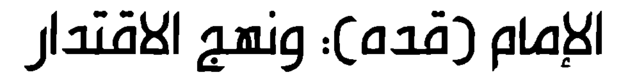


الإمام (قده) ونهج الاقتدار

شفيق جرادي




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


الإمام (قده): ونهج الاقتدار

اسـم الكتــاب: **الإمام (قده): ونهج الاقتدار**

المـــؤلـــف: شفيق جرادي

النـــاشـــر: **معهد المعـارف الحكميـة** (للدراسات الدينية والفلسفية)

إخراج الكتــاب: Idea Creation

عدد الصفحات: 186

القيـــــاس: 21.5x14.5

تـاريخ الطبـع: آب ٢٠٠٧

الإمام (قده): ونهج الاقتدار

شفيـق جـرادي

الطبعة الأولى

[١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م]



معهد المعارف الحكمية
للدراسات الدينية والفلسفية

العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفاكس: ٥٤٤٦٢٢ - ٠١ - Email: almaaref@shurouk.org


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـرس

مقدمـة ١

الفصـل الأول:

تشـكّل نهج الاقتــدار ٩

العلاقة بين المسلمين والغرب ١٢

العالم بين صراع الحضارات وحوارها ٣٤

هوامش الفصـل الأول ٣٨

الفصـل الثـاني:

قاعدة نهج الاقتــدار ومرتـكزاتــه ٤١

ركائز قاعدة نهج الاقتدار ٤٦

الركيزة الأولى: ركيزة التوحيد ٤٦

– العلاقة بين الحرية والهداية والاستخلاف ٤٩

الركيزة الثانية: الإرشاد التربوي ٥٧

– مكونات النهج التربوي ٦١

– مـلامـح النـهـج التـربــوي في إرشــادات الإمــــام الخميـــني (قده) ٦٢

- برامج موارد الاقتدار في ركيزة الإرشاد التربوي ٦٩
الركيزة الثالثة: العرفان العبادي - السياسي ٧٣
- منابع العرفان المقتدر عند الإمام الخميني (قده) ٧٧
أ- القرآن الكريم ٧٧
ب- الاهتداء والتأسي بالحقيقة المحمدية للنبي(ص) والآل (ع) ٧٩
ج - التأدب بلطائف معاني الأدعية والزيارات الواردة عن الأئمة ٨١
هوامش الفصل الثاني ٨٨

الفصل الثالث:
الإمام الخميني بين وعي الأهداف المبدئية ورسم الأهداف العملية ٩٣
الأفق العقيدي لنهضة الإمام ٩٦
سر مقام النبوة ٩٦
الأهداف الحياتية المقدسة عند الأنبياء ١٠٠
الإمام الخميني (قده) وانبعاث نهج الاقتدار وتوليد الأهداف المعاصرة ١١٣

- الأساس الأول: تغيير ما بالأنفس ١١٤
- الأساس الثاني: وهو القيام لله سبحانه ١٣٠
هوامش الفصل الثالث ١٤٠

الفصل الرابع:

الإمام الخميني باعث نهج الاقتدار ١٤٥
موقع الحوزة العلمية في مواجهة المشاريع الظالمة ١٥١
انتفاضة الخامس من حزيران ١٥٣
إشتعال التحدي بين الإمام (قده) والولايات المتحدة الأميركية ١٦١
شهادة السيد مصطفى الخميني ١٦٢
وفاة الإمام الخميني (قده) ومصير نهج الاقتدار ١٧٦
هوامش الفصل الرابع ١٨١
المصادر والمراجع ١٨٣

مقدّمة

من الكتابة ما يمارسه الكاتب كواجب مهني، أو أخلاقي .. ومن الكتابة ما يخوض فيها الكاتب رحلة من البحث عن الحقيقة، أو عن سُبُل الخروج من إشكالية ما ومأزق معيَّن.. فلا تعود؛ مثل هذه الكتابة؛ مصبوغة بصبغة المهنية أو النرجسية الثقافية والفكرية، التي يعيشها المثقفون في إحساسهم الفني تجاه الأفكار والواقع..

والحديث أو الكتابة في مسألة الصحوة والنهضة الإسلامية المعاصرة، بسبب حضورها اليومي في حياة السياسة والأحداث اليومية الحاصلة في عصرنا هذا، والتي أثّرت على وضعية المسلمين في بلدانهم والعالم.. كما أثّرت على فهمهم لأنفسهم وتشخيص هويتهم .. لا تسمح لمن هم في قلب هذه الصحوة والنهضة أن يتحدّثوا عنها، أو يكتبوا فيها كتابة مهنية، وكأنهم يفدون إليها من خارجها..

لذا كانت الكتابة في «سلسلة أدبيات النهوض» كتابة متفاعلة، ناطقة بحركة الصحوة، تعيش نبضها ولا تفارقه.. وتدافع عن قيمها، عاملة على نشر تعاليم وأفكار ومفاهيم هذه الصحوة؛ ولا أبالغ إذا قلت: إنها كتابة تطمح أن تُجسِّد روح النهوض الإسلامي المعاصر بكلمات تهدف أن تنطق بالحق، وترفع راية الحقيقة..

إنها نوعٌ من الكتابة غير المحايدة، فهي ترفض أن تقف في هذا الصراع الحضاري على مسافة واحدة بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل، والظالم والمظلوم.. لأنها بالأصل كتابة تجربةٍ مقاومة تخرج في كل آن، ومع كل فكرة، من

بين الركام الهائل الذي سببّته حضارة الاستحواذ والعنف المدمّر.. تخرج لتشهد أنها لن تنهزم، ولتُشهد العالم أنها لن تتراجع، وستستمر تعبيراً حياً عن قيم العزة والجهاد والشهادة، المُحبَّة والمتطلّعة لحياة ليس فيها قهر ولا ذل أو استعباد..

وقد يفترض البعض أن مثل هذه الكتابة، هي كتابة أيديولوجية بامتياز، ونحن موجودون في عصر لا بُدَّ أن تسوده روح لغة وصياغة معرفية موضوعية تخلع عن نفسها كل تلاوين الأيديولوجيات؛ لأن في الأيديولوجيا تزييف مروِّع للواقع، ومسعى لصياغته على ضوء مسبقات ذهنية افتراضية..

وإني إذ أؤمن بأن تزييف الواقع عملٌ مشين، فلا بدَّ لي هنا من الإفصاح عن قناعة تولّدت لديَّ بفعل ما يقع من الأحكام المتعلّقة بالفكر والثقافة، والسياسة..

قناعة مفادها أن صفة الموضوعية التي يطلقونها اليوم باتت تشكّل سلاحاً يحمل كل مخزون تدير الأفكار والمقولات، بل والأطروحات المنحازة لصالح الضعفاء والقضايا النهضوية المحقة..

فباسم الموضوعية واللغة المعرفية تمّت تصفية الثقة بالأديان والمعتقدات والبرامج التغييرية.. وباسم الموضوعية والمعرفة الحيادية صار المثقف والمفكِّر بحاجة إلى تغيير أفكاره ومفرداته وسياقات تعابيره لينسجم مع ما رسموه من مفردات وتعبيرات وأفكار أطلقوا عليها اسم «المعرفة الموضوعية».. حتى باتت الكتابة الفاقدة للروح والمعنى؛ في بلادنا؛ هي المعرفة الموضوعية.. وصار النقد الذي يطال الدين والتراث والقيم والأخلاق والعادات والتقاليد والأعراف هو لغة الموضوعية، شرط أن لا يوصل النقد إلا إلى النقد، وتبقى الأمور بلا نتائج، تحتفظ بموقعها المقدَّس عندهم، وهو ذاك المعلَّق بين السماء والأرض.. بمعنى أنه منطق ولغة ونقد يغادر الناس بكل واقعهم، ولا يطمح لمثال ولمعنى واقعٍ جديد وممكن..

هكذا أرادونا بلا هوية ولا عنوان.. ومع هكذا معرفة هل نحن فعلاً أمام

المعرفة وأمام الموضوعية؟ أليست المعرفة هي تلك التي تنقل لنا الواقع بأسراره ومضامينه وآفاقه؟ أليست المعرفة هي تلك التي تطمح لإنشاء واقع مبنيٍّ على رؤية تطويرية نهضوية طموحة؟

ثم بناءً عليه أوليست الموضوعية هي الفكرة التي تلامس الواقع بصدق وإخلاص؟

وبناءً عليه، فإلى أيِّ مدىً يصح (موضوعياً) أن نطلق على هذا التزييف والاستتباع الثقافي والفكري؛ اسم المعرفة الموضوعية؟

بل إلى أي مدى يجوز أن نسمّي ما يحصل في بلادنا من حراك فكري تحت اسم «النقدية» و «المعرفة الموضوعية»؛ أنه ثقافة وتفكُّر حرٌّ ومسؤول؟ في الوقت الذي لا يملك لنفسه من خيار سوى الانسياق نحو (موضةٍ فكرية هنا، وموضةٍ فكرية هناك)..

بل صار دليل المعرفة؛ هو حجم وكثرة التبدّل في الطروحات الفكرية، ووضع سقوف زمنية؛ لاستمرارها ما بين السنتين إلى خمس سنوات، لإجراء تغيير في (الموديلات الفكرية).. وهذا في بلاد (المصدر) طبعاً .. أما في بلادنا فمؤشّرات النقدية المعرفية هي : مُتابعة فكر بلاد المصدر؛ بعد انقضاء الاستعمال عندهم؛ ومفارقة احتياجات الواقع الإنساني والشعبي لمجتمعاتنا؛ بحيث إن البعض اعتبر أن الفكر الحر، هو الفكر الذي لا يتأثر بالسائد بين الناس وآمالهم، وآلامهم، ووجدانهم، وطموحاتهم، إذ على المفكّر أن يحافظ على مسافة البعد عن الناس ليبقى قادراً على نقدهم؛ أي بمعنىً آخر؛ تدبير قيمهم وآمالهم وتراثهم، وأن يتبرّأ دوماً من أي انتساب إليهم أو دفاعٍ عن قضاياهم وإلا سقط في مستنقع الأيديولوجيا..

إن معرفةً من هذا النوع هي خلاصة كل تزييف متوقع في الثقافة والفكر والقيم يمكن أن يمارسها إنسان أو أمة، وهي ما لا يمكن أن ترتضيه مهما كان اسمه .. وإذا كان المقصود بالأيديولوجيا متابعة الناس في قضاياهم وطموحاتهم وأحاسيسهم، متابعةً ثقافية وفكرية ترفد نهوضهم بالأفكار،

وتستكشف أمامهم موارد القوة والضعف وتقدّم لهم مشاريع القيام النهضوي المقتدر، وتنحاز إلى الدفاع عن حقوقهم، فأهلاً بكل أيديولوجيا تطرح على نفسها مسؤولية تمثيل شعبها وإرشادهم إلى سبل الخلاص والاستقلال والحرية، وهي ما نطمح إليه مهما مورس عليها من حروب التسميات..

فما يعنينا هو أن تصبح الفكرة توأم الهدف .. واللغة توأم العمل.. والأطروحة توأم النهوض.. ما يعنينا، هو أن نخرج من ظلمات الجهل والفراغ والتكرار والعبثية، نحو نور العلم والمعنى والتجديد والقصدية الحرة المسؤولة..

لقد كان قدرنا أن ننتمي لأمة وتاريخ أسَّسه وبعثه للحياة نبيٌّ مجاهد في الله وفي سبيل الله.. وكان أول إنباء له من ربِّ القدرة سبحانه **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ• خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ• اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ• الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ • كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى • أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى• إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾**[1].

فالقراءة باسم الرب؛ هي قراءة تتصف بهوية واضحة مؤمنة .. تنظر للوجود لتكشف بمخلوقيته سر ارتباطه بالرب الخالق.. وتنظر للإنسان لترى موارد ضعفه واحتياجه إلى الانتماء.. ثم تربط بين أهل الحياة والعلم برباط (القلم).. والقلم أداة تواصل، أقدر الله الناس على استعمالها لتنقل الأفكار والتجارب فيما بينهم سواءً في جيل وعصر واحد، أو بين عصور وأجيال متعاقبة.. كما والقلم أداة اقتدار إنساني يراكم بينهم التجربة والخبرة والمعرفة..

ليأخذوا من واقع التجربة الإنسانية عبرة الخبرة وحصانة المعرفة لكي لا ييأسوا أمام الصعاب والابتلاءات.. وليتقدّموا في مسير الكدح إلى الله ورفع الضيم عن المستضعفين.. برغم أن منهم من يطغى ويشطح مبتعداً عن معرفة الحقيقة بفعل ما يتراءى له من إغراء المال الذي يشتري الضمائر، والسلطان الذي يأسر أصالة الحرية في فطرة علاقتها بربها..

---

(١)- سورة العلق، آيات ١-٨.

لكنّ الثابت في كل ذلك، ورغم كل ذلك أن الذي «علَّم الإنسان ما لم يعلم» سيُلقي في قلوب أهل الجهاد والتقوى والإخلاص سر الاقتدار، ويعلّمهم كيف يتجاوزون كل العقبات لينتصروا على ذواتهم وعلى فراعنة الأرض «وقارون»(١) المال «وبلعم باعور»(٢) غواية المعرفة المزيفة.. يعلّمهم كيف ينتهجون نهج رسول الله محمد (ص)؛ «نهج الاقتدار» ليبعثوا عند كل مرحلة من مراحل عمر الزمن ثقافة النهوض والقيام لله، بإيمان الواثق بربه وقضايا شعبه وحقوق الإنسانية المقهورة والمعذَّبة والمستضعفة .. مشكّلين سيرة أدبيات النهوض لعصرهم الذين يربطونه بقيم البعثة المحمدية، وهي الثقافة التي لم نجد تسمية لها، تعبِّر عن خصائصها ومنطلقاتها وأهدافها؛ أفضل من اسم «نهج الاقتدار»..

وعندما نربط هذه الثقافة اليوم بخط الإمام الخميني (قده) فلإيماننا أن الإمام (قده) كان عن حق هو باعث قيم البعثة المحمّدية في هذا العصر.. وهو الذي شكّل بأفكاره وتجربته أطروحة نهج الاقتدار التي أخذت تشق طريقها لترسم معالم حضارة عالمية جديدة تؤمن بالزهد، وترفض العزلة.. وتؤمن بالقوة وترفض البطش والعنف العبثي.. وتؤمن بالحق دون أن تستأثر بالحقيقة.. لأنها تريد الحقيقة لكل العالم دون تمييز.. وهي أطروحة نظرت للدنيا على أنها ساحة عبادة لله ينبغي أن تُعمَّر بذكر الله، وتأمين كل سبل الحياة العادلة والعيش الرغيد عبر تطوير كل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيها.. ومن خلال هذه النظرة جاهد لبناء دولةٍ مقتدرة عادلة قوية.. بل وجاهد لينشر

---

(١)- من رجال بني إسرائيل، وكان يُضرب به المثل في الغِنى، وهو ابن خالة موسى عليه السّلام، وكان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة، فلمّا جاوز بهم موسى البحرَ وصارت الرئاسة لهارون، وَجَدَ قارون في نفسه شيئاً فبغى عليهم.

(٢)- بلعم بن باعور، من بني اسرائيل. كان يعرف الكثير من آيات الله تعالى وتعاليمه، ولكنه انحرف، ولم ينتفع بما يملك من معرفة، ولم ينفتح بمعرفته على الآفاق المطلقة التي ترفعه إلى الله تعالى. بل هوى إلى الأرض في حالة انحطاط روحي وفكري. أعطي الوسائل والآليات المعرفية التي من خلالها يهتدي إلى الله تعالى، لكنه انغمس في القيم الأرضية المادية، وركن إلى الشهوات والملذات وأطماع الذات وتطلعاتها اللامتناهية نحو تحقيق رغباتها وحاجاتها، حتى ولو على حساب المبادىء والتعاليم الإلهية الكريمة، وابتعد عن آفاق الروح الباحثة عن المطلق .

تعاليم الاقتدار بين الأمة لتستعيد عنفوانها..

وحينما نكتب في مثل هذا النهوض، فهذا لا يعني أننا نريد أن نزيّف حقيقة الواقع، بل غاية ما نريده هو نقل واقع الصراع بعناصر القوة فيه، وعناصر الضعف، وندفع طموح الأمة لبناء الواقع المأمول، وإزالة كل معوّقات التقدّم، والثقة بتباشير النصر الموعود.. ما نريده هو الكتابة خارج إطار السيطرة والنفوذ الاستكباري على منافذ الوعي..

هذه السيطرة التي عملت وما زالت تعمل لجعل الهزيمة في قلب وجداننا، حتى لا نأنس بسواها.. وحتى تكون إرادتنا مهزومة، وعقلنا مهزوماً، ولغتنا مهزومة، ولتؤكّد على وعينا للهزيمة وحدها.. فلا نقدر بعدها على القيام.. إنها كتابة وعي الذات من موقع الاقتدار والارتباط برب القدرة سبحانه.. وهذا لا يعني بُعْدها عن التحليل والمعرفة الموضوعية، بل هي تسعى لتكون من نفس موضوعية الواقع لتطابق بينه وبين المعرفة بتوصيفها أو بمقاصدها..

عليه فإذا كانت موضوعات هذه السلسلة تحمل في لغتها الكثير من المباشرة.. فهذا لا يعني أن هذه الموضوعات غير مؤهلة لتكون موضع تحليل وتنظير فلسفي وفكري معمَّق.. لأن المواضيع التي تلامس الواقع، قوتها في صلاحية طرحها لشرائح متعدّدة، ولسياق وأنساق مختلفة..

من هنا، كان اعتبارنا أن كل موضوع من موضوعات هذه السلسلة، مُرشّح ليكون موضع اهتمام بأبحاث وكتابات متعدّدة الآفاق، والمستويات..

هذا، ويجيء كتاب «الإمام (قده): ونهج الاقتدار» ليسلّط الضوء على تطور فكري وثقافي في قراءة الدين، تولّد نتيجة الاجتهاد الفكري، والجهاد العملي الذي قام به الإمام الخميني (قده).. والذي أثمر فهماً معمّقاً للعلاقة الحيوية بين العلم والجهاد .. والمعرفة والشهادة .. بحيث كشف النقاب عن فعّالية العقيدة والممارسة الدينية - الإسلامية، على إحداث تغييرات جذرية في واقع الحياة، وأن هذه الفعَّالية لا تقتصر على المرحلة النبوية من عمر الرسالة، بل هي صالحة للتأثر عند كل مرة يلتزمها المجاهدون بشروطها ومستلزماتها ..

من هنا فقد التزمنا قراءة هذا النهج بشكل متوازٍ مع طروحات وجهاد

الإمام الخميني..

فتناول الفصل الأول مسار تشكُّل نهج الاقتدار في واقعنا المعاصر، وعبر التجارب الجهادية الحية، التي ما زال العالم يشهد حراكها وتأثيراتها.. فركّزنا في هذا المسار على ما أفضت إليه الثورة الإسلامية في إيران، وانتفاضة فلسطين، والمقاومة الإسلامية في لبنان.. لنثير مؤهّلات هذا التشكُّل على رسم معالم وجه حضاري جديد، يقوم على قيم الاقتدار المحمّدي الأصيل..

أما الفصل الثاني: فلقد سعينا فيه لتبيان أن مرجعية نهج الاقتدار هو الإسلام في أحكامه وتشريعاته.. وأن الاعتماد عليه رهن حسن المعرفة به والالتزام بترشيده للحياة المعنوية والعملية.. من هنا كان البحث في مرتكزات النظرة النهضوية للإسلام والتي قامت، حسب الإمام؛ على ركيزة التوحيد العملي، والتوجه التغييري في النموذج الإرشادي الإسلامي، والعرفان الاجتماعي السياسي.. وبتفاعل بين هذه الركائز الثلاث تكون النظرة للإسلام أكثر اقتداراً على الاستفادة من مضامينه في مجال صنع الحياة والتاريخ بأسس من نهج الاقتدار..

الفصل الثالث: وهو فصل خصصناه للبحث في المقصود من نهج الاقتدار وكيف يمكن أن نستخرج الأهداف النبوية لمؤسّسي نهج الاقتدار في أفقه العقائدي، من الأنبياء أولي العزم (ع)؛ ومن بعثة النبي (ص) وسيرته، وسيرة الأئمة الأطهار (ع) ثم كيف نضع الأهداف الخاصة في حياتنا وعصرنا على أساس من هدي الأنبياء والرسل والأئمة (ع).. وما هي الخصائص التي ينبغي أن تتوفر لأهدافنا الإسلامية، حتى تكون أهدافاً مشروعة؟.. إضافة لتناول هذا الفصل؛ وبشكل مركزي؛ الإجراءات والسياسات الموصلة لتحقيق الأهداف، التي اعتمدها الإمام في تجربته..

الفصل الرابع: وهو ما أوردنا فيه السيرة الجهادية للإمام الخميني (قده) والتي فاضت بالممارسة العملية لنهج الاقتدار، ثم كيف أن هذا النهج صار بيد

من استأمنه الإمام عليه، بحيث تحوَّل إلى نهج أمة مجاهدة يقودها الإمام الخامنئي (حفظه المولى).

شفيق عبد الله جرادي

الفصـــل الأوّل

تشكّل
نهج الاقتدار

حينما يودّ الواحد منا أن يشرع بالكتابة في أسباب، ومظاهر النهوض الإسلامي المعاصر.. فإنه أول ما يتراءى له ضرورة الانطلاق من عهد جمال الدين الأسد - آبادي[1]. لما حمله هذا الإصلاحي من فرادة في الشخصية، وفي الدور الذي لازم بواكير التمدد الاستعماري الحضاري، والثقافي في عالمنا الإسلامي...

إلا أنك تعود فتسأل نفسك عن مدى ضرورة مثل هذه البداية وأنت لست بصدد التأريخ لإشكالية النهضة، وأسئلتها المفاهيمية التي صاغتها وطرحتها.. لأنك تود أن تتفاعل مع واقع هذه الصحوة الإسلامية القائمة في الراهن الذي نعيش..

عندها تقلب الصفحة ليتراءى لك وجه أضاء العالم الإسلامي بدور نهضوي فاعل ومنظّم ومفتوح على هواجس المجتمع.. ألا وهو «الإمام الشهيد حسن البنا»[2].. ولا يخفى ما للإمام الشهيد من دور محرِّك على مستوى إطلاق الحركات الإسلامية، وفكرة التنظيمات والأحزاب الإسلامية في عموم العالم الإسلامي.. لكن هذا الدور بات اليوم في سياق تنامي الصحوة والنهضة الإسلامية، وصار من ضمن مفردات كثيرة تعيش واقعنا الإسلامي الراهن.. لذا لا يمكن قراءة هذا الدور خارج إطار المستجد من واقع التحولات التي يشهدها عالمنا الإسلامي.. والذي بدأ مع الإمام الخميني[3] (قده) مرحلة جديدة وتحولاً عميقاً في حياة ووجدان وقيم التجربة الإسلامية المعاصرة، وهي مرحلة اصطُلح عليها باسم «نهج الإمام الخميني (قده)».. ويطيب لي أن أسميها «نهج الاقتدار»...

العلاقة بين المسلمين والغرب

منذ أن بدأ العالم الغربي يدق أبواب عالمنا الإسلامي، ثم بدأ يدك أسواره يوم اجتاح مقوّماته الحضارية في الأندلس، اشتعلت في النفس، وفي العقل أسئلة مركزية، وساد وجوم الدهشة الحضارية بكل زواياها الدينية والعمرانية..

ما الذي يحصل؟..

وكيف يمكن للكافرين أن يكون لهم على المؤمنين سبيلاً؟..

ليبدأ نقداً للذات وصل إلى حد الشتيمة .. وصارت الذات مجمع كل الأخطاء، والأدران، والآثام الخلقية والدينية والقيمية .. في نظرتنا إلى أنفسنا..

ولأننا اعتدنا أن نجعل من البعض مساوياً للكل.. ولأننا اعتمدنا صيغة الاستغراق والأحكام الشمولية؛ فلقد ضخمنا (فعل) الظالمين منا . وأنواع ظلمهم، ونسبنا كل ذلك إلينا كأمة.. فصار تهتك الحكّام، ووعّاظ السلاطين، وخمول فقهاء السوء، والقداسة المزورة، وتآمر بعض النافذين على الاقتصاد، والعلم، والعقل الاجتهادي، وروح الجهاد المفتوح على سبل الاستقامة وتطوير عمارة الأرض؛ بالعمران المادي والمعنوي؛ صار كل ذلك صفات تطلق علينا كأمة.. بل نطلقها نحن على أنفسنا.

ونسينا أن فينا المظلوم، والمعارض، وعندنا الكثير من تيارات الرفض والتوثب نحو النهوض، بل حتى نسينا قول رسول الله (ص) «الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة»(٤)..

وأطفأنا كل شموع الأمل المضيء .. لنلعن عتمة واقعنا، بل وعتمات افترضناها وأنزلناها منزلة الواقع..

وتحوَّلت إرادة التوكل بما تعنيه من تكامل في مدارج الرقي الإسلامي الذي يرفض الرضوخ للواقع مهما كان صعباً ومراً.. والاستمرار في رسم معالم المستقبل بعقلية: (أدِّ) ما عليك بأحسن ما تستطيع واترك النتائج على رب العباد.. المهم أن لا تنهار أمام الضغوط، وأمام الضوضاء، وأمام تقلبات الزمن

وأحوال الأيام.. تحولنا عن كل ذلك لنحمل ثقافة التواكل.. بكل ما يعنيه من استهلاك ورغبة، في عيش الراهن،.. والالتحاق بركب الآخرين بإرادات مسلوبة ومستتبعة، وأخذت تضمحل فينا معنوية قيم الجد والاجتهاد والعمل متذرعين بالنية الحسنة..

وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى..

وأن نية المرء خيرٌ من عمله..

وبدل أن تكون النية هي تلك الدافع نحو العمل الارتقائي والنهضوي وبرقابة من تقوى الله..

صارت النية استحضاراً لذرائعية تبرِّر فعل الحرام، كما تبرِّر فعل الظلم والكسل..

وأمام كل هذه المسارات المتعرِّجة، والتي تتالت فيها حركات التدحرج نحو هاوية، تكاد أن لا يكون لها من قاع..

ظلّت هناك بعض الثوابت في قيم الحياة والعقيدة عندنا:

أولها: قدسية القرآن الكريم، وأن فيه قوة الهدى وقوة بعث النهوض والانتصار في الأمة..

ثانيها: أن رسول الله (ص) هو المثال الحي لخروج الأمة من ظلمات التقهقر نحو نور العزة والقوة.. وأن التأسّي برسول الله (ص) فيه سّر كل رقي وبناء للأمجاد..

ثالثها: احترام المنجزات الحضارية التي قام بها المسلمون الأوائل رغم وجود سلبيات كثيرة عرضت عليهم وفتن شديدة حلّت بهم..

رابعها: احتفظ المسلمون في عمق وجدانهم الديني بالقناعة أن مستقبل الحياة لهم، وأن عليهم التمسك بالإسلام ليجترحوا حلول تحويل الغايات إلى وقائع حية.. لهذا رأينا عند بعضهم كيف فرَّق في تقديرات الواقع ومشكلاته بين الإسلام، وبين المسلمين، معيداً سبب التخلّف إلى المسلمين وانحرافهم عن جادة الإسلام وصراطه المستقيم..

ثم رأينا كيف أن حركات إسلامية، تمتلك تاريخاً عريقاً، وجماهير عريضة رفعت - وما زالت - شعار حركتها «الإسلام هو الحل»(٥)، ودخلت الحياة السياسية والبرلمانية، وخاضت حروبها الانتخابية تحت هذا الشعار..

هذه الثوابت فتحت منافذ حركة قامت في المطلع الأول للقرن الماضي، والتي أخذت تعمل على استعادة المسلمين لحيويتهم الإسلامية، وأن يأخذوا مكانهم في هذا العالم.. لتبلغ أوجها في نهاية القرن مع قيام الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الراحل السيد روح الله الموسوي الخميني (قده).. والذي أعاد الاعتبار لجملة من الأمور..

أ- إعادة إنتاج قيمة النية كرافعة منتجة، وربطها بقيمة أداء التكليف الشرعي كسبيل ربط بين عالمي الشهادة والغيب،.. وليكون الغيب هذه المرة طاقة دفع لرفعة الحياة الدنيا،.. بعد أن حوّلته الإحباطات إلى أمرٍ مفارق للواقع يلجأ إليه الهاربون من هذا الواقع كلما ازداد الضغط عليهم.

ب- رفع مستوى الثقة بالنفس في مجال القيم وربطها بالدين، وإعطاء زخم جديد لمعاني الحرية والاستقلال؛ سواءً في ذلك الحركات الإسلامية الجديدة التي تولّدت بعد الثورة الإسلامية في إيران أم تلك الحركات السابقة،.. بحيث أصبحت همة وإرادة تلك الحركات والشعوب التي تنتمي إليها أكثر إيماناً من أي وقت مضى بقدرتها على اقتحام مجالات الحياة المعاصرة على تنوعها؛ رغم المصاعب الجمة التي تحف بمثل هذا التوجه..

ج- الفقه باعتباره الإفادة العلمية لعملية التطور المجتمعي على هدى الإسلام.. وعنوان مشروعية القيادة السياسية لحركة نهوض المسلمين..

د- قيام صيغة سياسية جديدة في العالم الإسلامي مبنية على حركة الشعوب ودورها في رسم مسار العلاقة مع العالم.. وهو الأمر الذي عبَّر عنه الإمام الراحل (قده) بالقول: «إن الأمة الإسلامية قد بدأت الزحف، وإذا ما تراجعت فإنها لن تتراجع»..

إن هذه النقاط الأربع التي حرَّكتها ثورة الإمام الخميني (قده)، فتحت

للعالم الإسلامي منافذ القدرة الحضارية المكبوتة ورسمت معالم الوجه الحضاري للمسلمين الذي يتجاوز حدود القوميات والجغرافيا.. بل ويمكن لي القول إنه يتجاوز حدود المذهبيات الضيّقة، ليرسم ثقافة «نهضة الاقتدار»، و«القيام المقتدر».. والشاهد على ذلك تحرّك الجماعات المسلمة العربية وتأثرها البالغ بقيادة الإمام الخميني (قده) بل وتطور حركات المقاومة والانتفاضة بما يتجاوز المذهبية السنية والشيعية بالمعنى الضيّق للكلمة..

وليأتي نموذج المقاومة الإسلامية في لبنان كرمز للتأسّي عند حركات المقاومة في المنطقة.. ولتكون الانتفاضة والمقاومة في فلسطين أقرب إلى مساحة الخيارات الجهادية مع حزب الله وإيران التي اتكأت على الإيمان بالقضية الفلسطينية وتحرير القدس كمشروع نهضوي مركزي للأمة... منها لبعض الحركات التي قد توافقها مذهبياً، إلا أنها تحمل هموماً مختلفة في فتحها لصراعات تشق عصا المسلمين.. وتوقع بنكبات الفتن وأعاصير الاضطرابات الدموية في صفوفهم..

وليتحول المشروع الإسلامي إلى مشروع حضاري يريد إعادة رسم معالم عالمية إسلامية في طرحه . تبدأ من الاعتراف بالخصوصيات الوطنية والقومية، إلا أنها تتجاوزها بغية إيجاد أرضية واحدة لأفق حضاري واحد لدول وشعوب المنطقة يشكل فيما يشكّل العمق الاستراتيجي الحضاري حتى لأولئك المسلمين الذين يقطنون الدول الغربية، والذين ما زالوا إلى الآن يتعاملون وكأنهم مجرّد لاجئين.. فيما أن الأفق الحضاري الإسلامي يقتضي اعتبار أن كل أرض يقطنها المسلم، عليه أن يتعامل معها بإعمار وإحياء وحب انتماء لها كوطن يتفاعل فيه مع كل تجارب حلاوة العيش ومراراتها.. وهذا النحو من الحضور الحضاري الإسلامي في عالم اليوم أخذ يفرض معطيات علاقات جديدة..

فبعد مسار حركة الغرب في المنطقة الإسلامية اعتباراً من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر بغية إقامة حكم مسيحي. في ما أطلقوا عليه

الحروب الصليبية لتحرير وحكم الأراضي المقدّسة، والذي تلاه منذ القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر إمساك العثمانيين[٦] بمنطقة الشرق الأوسط والبلقان وإمساكهم بالقسطنطينية وحصارهم مرتين لفيينا.. ليعاود الغرب مرة ثانية حسب «هانتنغتون»[٧] في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين:«ومع تراجع القوة العثمانية مدت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا سيطرة غربية على معظم أنحاء شمال أفريقيا والشرق الأوسط.

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ الغرب بدوره في التقهقر، واختفت القوى الاستعمارية.. وفي البداية أعلنت القومية العربية عن نفسها ثم تلتها الأصولية الإسلامية، وأصبح الغرب أكثر اعتماداً على دول الخليج في الحصول على احتياجاته من الطاقة وأصبحت الدول الإسلامية الغنية بالنفط دولاً غنية بالأموال.. وعندما رغبت في أن تصبح غنية بالسلاح وقعت عدة حروب بين العرب وإسرائيل - بتدبير من الغرب..

وقام إرهابيون ومسلمون تساندهم ثلاث حكومات شرق أوسطية على الأقل، بتوظيف سلاح الضعف، وفجّروا طائرات ومنشآت غربية واحتجزوا رهائن غربيين. وبلغت حالة الحرب هذه بين العرب والغرب ذروتها عام ١٩٩٠ عندما أرسلت الولايات المتحدة قوات ضخمة من جيشها إلى منطقة الخليج للدفاع عن بعض الدول العربية...

وفي أعقاب هذه الحرب أخذ تخطيط حلف شمال الأطلنطي يتوجه بشكل متزايد نحو تهديدات وعدم استقرار محتملين على طول حده الجنوبي، ومن غير المرجّح أن يتراجع هذا التفاعل العسكري الدائر منذ قرون بين الغرب والإسلام، وقد يصبح أكثر قسوة. فقد تركت حرب الخليج شعوراً بالفخر لدى بعض العرب.. كما خلّفت مشاعر بالخزي والاستياء لدى البعض الآخر تجاه الوجود العسكري للغرب في منطقة الخليج والهيمنة العسكرية الساحقة للغرب وعجزهم الواضح عن تشكيل مصيرهم»[٨].

إذاً، إن نص (هانتنغتون) يذهب لاعتبار أحداث الصراع في منطقة الشرق

الأوسط تعود لأبعاد ترتبط بالدين الإسلامي وتنازع الغرب التاريخي معه في المنطقة.. كما ويذهب لاعتبار أن إسرائيل هي السد الحضاري الغربي المانع لأي نفوذ حضاري إسلامي قوي في المنطقة.. وبأن الصراع اليوم وبعد حرب الخليج قد وصل بين الغرب والإسلام إلى خط اللاعودة..وهذه الأركان قد أشار إليها الإمام الخميني (قده) منذ عام ١٩٧٨م. حينما كان يتحدّث عن مساعي الاستشراق الحثيثة للتعرّف إلى المنطقة وذلك بغية استعمار أهلها، والاستيلاء على خيراتها.. «إنهم قاموا بدراسات نفسية تمكّنهم من تحقيق الاستيلاء على تلك الثروات الموجودة في تلك البلدان دون استشارة الناس .. وأدركوا في النتيجة أن وجود أمرين في البلدان الإسلامية يحول دون تحقيق مقاصدهم، هما: الإسلام كدين.. فلو أن الإسلام طُبِّق على حقيقته، وبالشكل الذي أراده الله تعالى فإن ذلك سيعرِّض المستعمرين إلى هزيمة ساحقة.. والثاني هو علماء الإسلام، فلو تمتّع هؤلاء بقوة، ولو أنهم كانوا مقتدرين في تلك البلاد وبالشكل الذي ينبغي فإن ذلك سيكون مانعاً من تحقيق أهدافهم.. وبالصورة التي يطمحون إليها.. ويرتبط هذان الأمران بالشعب، ولو أن أحدهما حقّق له موقعاً قوياً بين أفراد الشعب فإن الشعب بأسره سيكون قوياً.. لذا فكّروا أن يحطّموا هذين السدّين، وبأيدي الشعب»[٩].

إذاً، فإن شعور الغرب العدائي ضد الإسلام لم يكن وليد حادثة هنا أو هناك.. بل هو نابعٌ من اعتقاد المتربّعين عرش قيادة العالم الغربي أن الإسلام وقادة العلماء المسلمين وشعوب العالم الإسلامي المتحفّزة للإسلام هي تشكّل عائقاً أمام تمدد الحضارة الغربية ونفوذها..

إلا أن هذه المشاعر وهذه المخططات قد تصاعدت وتوالت من احتلال أفغانستان إلى احتلال العراق والتهديد الأمريكي الدائم لدول المنطقة والعالم الإسلامي بمنع أي تصاعد لقيم الممانعة أو المقاومة أو التنمية في فلسطين وسوريا ولبنان وإيران واعتبار كل تطور سياسي أو عسكري هو انعكاس لقيم حضارية تهدد الحضارة الغربية التي تقف الولايات المتحدة على رأس هرم

زعامتها ممدّة إسرائيل بكل صنوف العون..

وهكذا فقد عملت على إثارة جملة مشكلات منها:

أ- السعي لتهشيم صورة الإسلام، عبر إثارة فوضى من الصور النمطية حوله، والتي تتراوح بين تقديمه على أنه دين إرهابيٌّ، أو بأحسن الحالات هو دين يُسوِّغ الفكر والثقافة والممارسة الإرهابية.. وصولاً لتقديمه كدين أنتجته عقلية بشرية لقائد تاريخي من قبيلة عربية هاشمية، هو «محمد بن عبد الله(ص)». وبالتالي فإن الذين جاؤوا بعد هذا القائد من علماء وزعامات إسلامية، قدَّموا معطيات وأصولاً بشرية جديدة لهذا الدين، الأمر الذي يسمح أيضاً لمفكّرين ومستشرقين معاصرين يعيشون في كنف الرعاية الأمريكية والأوروبية، أن يطرحوا نموذجاً جديداً للإسلام يتوافق مع مسار السياسة الأمريكية، والتنوّع والتعدّد الثقافي والفكري في العالم.. وقد عمل هؤلاء على توظيف صورة إرهابية للمسلمين؛ رغم أنهم هم أنفسهم من أمدّها في البداية بكل دعم؛ لتخويف الشعوب الغربية من الإسلام وإبرازه كالتزام (لا إنساني) ضد الإنسان وحقوقه، بل لتخويف دول العالمين العربي والإسلامي من هذا النموذج الإسلامي، لتحشيدهم وضمهم كعناصر أساسية في مشروع الهيمنة الأمريكية. وذلك بتشجيع بعض الدول لاستيعاب هذه الظاهرة ودفعها في حروب مذهبية إسلامية.. أو وضع بعض الدول أمام خيارين: إما تسليم كل أمرهم لأمريكا حتى يحفظوا وجودهم ومصالحهم وحكمهم، أو الوقوع في شر الإرهاب الإسلامي المستطير؛ حسب الدعاية الأمريكية،..

وهذا ما يشكّل اليوم مهمة الدفاع عن الإسلام كمبدأ وعقيدة إلهية إنما جاءت من أجل الإنسان وتحقيق مصالح الاجتماع الإنساني..

ب- إثارة سياسة أطلقت عليها اسم «الفوضى الخلاّقة»[١٠] وذلك لتنمية كل بذور الخلاف بين شعوب المنطقة، وطوائفها، ومذاهبها.. مستفيدة من بعض المواقف السلبية التي تحصل في بعض الدول من مثل العراق.. لتنفخ وتؤجّج التفرقة بين اتجاهات قومية، داعية عبر ذلك لمشاريع تفتيت إثنية

وقومية.. وتفرقة بين السنة والشيعة لفصل القوى المقاومة الإسلامية، عن بعضها البعض، وبعثرة خط الهدف عندهم،.. بحيث يمنعون مرور هذا الخط من الشعوب المقهورة إلى اقتلاع قوى الاحتلال والعدوان.. وذلك برسم خطوط أهداف تسير من نقاط متفرّقة، وتتجه نحو التضارب بين جماعات المقاومة.. ولعل إيران وحزب الله وحماس والجهاد الإسلامي وغيرهم.. يمثّلون في هذا الإطار الشُغل الشاغل للمشروع الأمريكي - الإسرائيلي.

ج - خلق واقع جديد في ساحة المناطق التي انطلقت منها المقاومة في انتصاراتها، لإيجاد وتغذية جماعات وأفكار مناوئة للمقاومة، من أجل إرهاق مجتمع المقاومة وثنيه عن إرادة حفظها.. ومن هذه السياسات المتبعة لتحقيق هذا الواقع:

١- الفصل بين المقاومة والمشروع الوطني لمنع المقاومة أن تتحول في ذاكرة الناس ووجدانهم إلى صانع حقيقي لحرية واستقلال المشاريع الوطنية..

٢- سرقة الإنجازات العظيمة التي صنعتها ثقافة الاقتدار التي انتهجتها خطوط المقاومة في بلدانها وبين شعوبها.. إما عبر تصويرها أنها مغامرة جلبت الحرب، وإما بأن يُنسب الإنجاز إلى غير المقاومة.. وهنا مهمّة المقاومة في حفظ الوقائع والدفاع عنها دفاعها عن المقدّسات.

٣- كسر قدسية العمل المقاوم عبر تصوير الشهداء وكأنهم مجموعة من الذين غُرِّر بهم لصالح مشاريع سياسية.. وتصوير قادة المقاومة وكأنهم رجال تنقصهم الخبرة، بل وينقصهم الانتماء الوطني، .. وتصوير قيم المقاومة وكأنها أقاصيص أسطورية تخالف الواقع، بل هي ضد الواقع وضد الحياة.. وهكذا يجري العمل على ثقافة ترفض القداسة والقيم التي تنتمي إليها المقاومة.. لينسحب الأمر إلى تبرير كل موقف وسلوك سلبي ضدها..

وما هذه الأمور بمجملها إلا لأن الإسلام والذين يعملون ضمن روحيته وأخلاقيته وقيم الاقتدار المخزونة فيه، بات يشكّل العائق المركزي أمام حضارة السطوة والعنف والإرهاب الدولي المتمركز اليوم بالولايات المتحدة الأميركية

عن أن تمتد لإعادة صنع العالم حسب الرؤية الخاصة بها.

دون أن ننسى أننا وعلى الضفة الحضارية الثانية، أمام مشهد تتشكّل فيه حضارة الاقتدار المتمثّلة بالنهضة الإسلامية. والتي عبّرت عن نفسها بجملة حقائق شكّلت منعطفات أساسية منها:

أ- نجاح التجربة الإسلامية في إيران على الاستمرار التصاعدي الذي التزمت فيه نهج الإمام الخميني(قده)، إذ برغم كل الرهانات الدولية على سقوط هذه التجربة بعد وفاة مؤسّسها وقائدها التاريخي.. فإنها استطاعت أن تثبت أن الأصالة هي للنهج الذي يصنع القادة والرجال والأمة، والذي ينطوي على مؤهلات عقائدية ومعنوية وعملية للتكيُّف مع المستجدات، بحيث لا تسقطه الصعاب، بل يتفاعل معها لتطويعها بما يخدم المسار والهدف.. فعندما أطبق العالم على إيران اشتعل الوجدان عند الشعب على الوحدة حول قائده ليعيد تصويته باستفتاءٍ عملاني لخيار نهج الإمام الخميني (قده)..

وعندما تصاعدت طروحات في الداخل الإيراني، فَهِمَ منها البعض أنها انفتاحٌ على الغرب ورفضٌ لقيم الثورة، فانطلق هذا البعض يلمز من قناة «الولي الفقيه».. كانت الحكمة والصبر والثبات القيادي، هي قيم الاقتدار التي يعفو فيها القائد عن كل من أساء، ليعيد المسيء إلى رشده،.. وليبرز الفكر المتنوّر كداعم لخط الولاية بشكلٍ أو بآخر بعد أن راهن الكثيرون عليه.. واليوم تحمل إيران؛ نهج الإمام الخميني (قده)؛ بزعامة خط الاقتدار الذي يمثّله الإمام الخامنئي (حفظه المولى) مسؤولية قيادة شعوب العالم الإسلامي المستضعف وتعمل على فرض واقع الحرية والاستقلال والإبداع في التنمية والازدهار عبر المواجهة المفتوحة التي تخوضها بدعم المستضعفين في العالم وحركات المقاومة في المنطقة من جهة.. وعبر الإصرار على امتلاك القدرات النووية لتكوّن واقعاً حضارياً جديداً مبنياً على حضارة التواصل والاقتدار.. في مواجهة كل المشاريع الاستكبارية العاملة على إعادة الأمة إلى ثقافة الهزيمة وقبول الهيمنة الاستعمارية.

إنها حضارة التواصل القائمة على أساس القناعة أن الله جعل الأمم والشعوب على خط من التنوّع القاضي بالتعارف فيما بينهم ليتكاملوا.. فلا استحواذ في قيم ممارسة حق العدالة والحرية والمساواة، ولا استحواذ للفكر والعلم؛ بل الدعوة لسموٍّ الاعتقاد والدين والأخلاق.. وإنها حقوق أودع الله حقائقها في نفوس الناس وطبيعة السنن الاجتماعية القائمة فيهم، لتكون مسخَّرة لهم،.. وأي تعدٍّ عليها هو تعدٍّ على تلك الحقائق الإلهية ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[11].

من هنا كان نداء الإمام الخميني (قده) الدائم بنهضة المستضعفين والدفاع عنهم.. مهما كانت اعتقاداتهم وانتماءاتهم وتوزّعاتهم الجغرافية والقومية والقبلية..

فالحق هو من الله سبحانه،.. والمقصد فيه هو الإنسان الذي أراد الله تكريمه.. وهذا ما يشكّل في خط التواصل بين الناس مفهوم الأمة التي تتجاوز كل حدود الجغرافيا لتربط الناس برباط الانتماء إلى الله إما بالدين، أو بقيم الحق والعدالة...

وحضارة التواصل بهذا المعنى مؤهلة لتمتد إلى كل شعوب العالم. ومعايشة إنجازاته وقضاياه، دون أن يشكّل الاختلاف القطري أو الوطني عائقاً سلبياً أمام حركة هذا التواصل مع تلك الجماعات والشعوب.

ودون أن يعني ذلك عدم الاعتراف بتلك الحدود القطرية والوطنية والقومية.. فتجربة إيران الإسلام أثبتت أن الحدود الوطنية وقوانينها إن قامت على أساس من قيم العدالة، هي مقدّسة وتفتدى بالروح والأبناء.. لأن الأوطان العادلة حاضنة الاستقرار والرفاه لعباد الله سبحانه..

كما وأنها حضارة الاقتدار.. ونعني بالاقتدار امتلاك القوة المنضبطة بإرادة شرعية، وأخلاقية - إنسانية.. إذ القدرة هي «كون الحي بحيث إن شاء فعل، وإن شاء ترك»[12].

وهنا من المفيد أن نشير إلى ما جاء من تحديد لغوي للقدرة..

إذ منها يمكن أن نقترب من المعنى المقصود بحضارة الاقتدار..

«فالقدرة هي كون القادر عليه قادراً... وكل مستطيع قادر وليس كل قادر بمستطيع، لأن الاستطاعة: اسم لمعانٍ يتمكّن بها الفاعل مما يريده من إحداث الفعل وهي أربعة أشياء: إرادته للفعل، وقدرته على الفعل، بحيث لا يكون له مانع منه، وعلمه بالفعل، وتهيؤ ما يتوقف عليه الفعل.. ألا ترى أنه يقال: فلانٌ قادر على كذا إلا أنه لا يريده أو يمنعه منه مانع، أو لا علم له به أن يعوزه كذا...»(١٣)

وهكذا نفهم أن الاقتدار يحتاج إلى أمور هي:

١- إرادة قوية تتوجه نحو هدف من الأهداف أو فعل من الأفعال، وبدون ذلك لا يمكن أن تتحرك القدرة نحو الهدف أو الغاية أو المقصد...

٢- رفع كل الموانع والمعوّقات النفسية والعملية من أجل إعمال القدرة في السبيل المطلوب، وفي التوجه نحو الهدف المقصود.

٣- تحصيل المعرفة والخبرة بالوسائل والسبل الموصلة لتحقيق المقصد والهدف.. لتتحرك القدرة بالمجال المطلوب فتكون منتجة.. وإلا بدون المعرفة والخبرة والعلم فإن طاقة القدرة ستكون عبثاً وفوضى لا طائل تحتها..

٤- تحضير كل المقدّمات والمستلزمات الضرورية لإنجاح الفعل وإنجاز الهدف..

فبعد معرفة الهدف، وأنه إعلاء كلمة الله سبحانه مثلاً لا بد أن تتحرك الإرادة الصادقة نحو الهمة للقيام بفعل الجهاد، ولا بدَّ من رفع كل العوائق المانعة من رفع كلمة الله عبر مجاهدة ودفع ثم رفع الظلم والفتن بين الناس. وذلك بالإعداد اللازم للأمر ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾(١٤)، وبمعرفة وتخطيط علمي سليم لا يُضيِّع الأهداف.. إن مجموع ذلك والقيام به هو ما نطلق عليه اسم الاقتدار..

وليس الاقتدار بهذا المعنى اندفاعة بلا رحمة،.. بل إنه تحصيل كل قدرات التنفيذ ثم تقدير مصلحة البدء بالتنفيذ أو العفو بالتي أحسن.. وما من عفو

وغفران حسن يثاب عليه المرء إلا إن كان مسبوقاً بالقدرة «العفو عند المقدرة».

والضابط في ذلك هو الشرع والأخلاق الإنسانية المعتمدة في عملية تحقيق الأهداف.. وهذا ما ينافي حضارة السطوة والعنف والاستحواذ وكسر إرادة الشعوب عبر إذلالها ليكون حكم المستبد هو الأوحد في العالم.. وهذا السوء الحضاري لا يمكن أن يعالج إلا بحضارة وثقافة الاقتدار التي رسم معالم انطلاقتها الإمام الخميني (قده) كما سوف يتبيّن معنا...

ب- ولادة المقاومة داخل فلسطين المحتلة من رحم الانتفاضة الفلسطينية.. فإذا كانت بداية هذه المقاومة في الداخل الفلسطيني قد نشأت عبر حركة شعبية عنيدة ومصمِّمة على الاستمرار رغم كل النكبات والمجازر والآلام،... بل وعبر كل الخذلان الذي أصابها من القريب والبعيد.. فإن إيمان هذه الانتفاضة الشعبية ولَّد عندها جملة قناعات، وجملة تحوُّلات في مسير الصراع مع الكيان الإسرائيلي الغاصب نذكر منها:

١- تفاعل أبناء الشعب الفلسطيني مع خيار القتال ضد المحتل بعد أن ثبت لديه فشل سياسة المكر التفاوضي.

٢- مساهمة الشعب في فلسطين في الصحوة الإسلامية التي اجتاحت المنطقة بشكل واسع، وتولّد عنها أسئلة جديدة حول دور الأيديولوجيات، ودور الدين في صنع المستقبل، وفي زرع الأمل بحياة عزيزة..

٣- تقديم نموذج إسلامي ستي يختلف في سياسته عن الإسلاميين المهاجرين.. الذين تركوا الأوطان ليشكِّلوا بؤراً ثورية تقاتل الغرب. باعتبار أن قتال العدو الأبعد أولى من قتال العدو الأقرب.. بل هي مجموعات تحوَّلت بالتدريج إلى تيار شعبي واسع حافظ على استقراره في وطنه، ووفَّق بين أجنحته العسكرية السرية المقاتلة للعدو الإسرائيلي قتالاً عسكرياً استشهادياً.. وبين حركته الشعبية والسياسية التي تطالب بسيادة وطنية على كامل التراب الفلسطيني الوطني؛ ولو بالتدريج،... إذ المرحلي عندها رغم أهميته، لا يلغي النهائي من عودة كامل الأرض والشعب إلى حاضنة الوطن، وفي هذا حرصٌ

على التفاعل مع المشروع الوطني، ولكن بشروط كامل الحرية والمقاومة والاستقلال..

٤- وما يستكمل النقطة السابقة أن هذا الخيار اكتشف أن الظهير الداعم له في مقاومته ليست الدول والحكومات، بل هي الشعوب المقاومة.. وبذلك التحم في مسار هذه الحركة المقاومة في المنطقة؛ والتي تمثّلت أكثر ما تمثّلت بتجربة حزب الله في لبنان.. متجاوزاً أفق المذهبية ليشكِّل من وحدة الهدف والمسار في حركة المقاومة أعظم عامل وحدوي إسلامي.. يقطع الطريق على محاولات الفتنة والتفرقة بين المسلمين.. وهذه الانتفاضة المقاومة تتلاءم في الكثير من سماتها وخصوصياتها مع معالم نهج الإمام الخميني (قده) مما يعني سياقاً نادراً في تشكُّل حضارة الاقتدار الإسلامي المعاصر.. وهو ما يُدخل الرعب في قلب أئمة الظلم لأن هول وطأة المشروع الاستنهاضي عليهم أكبر بكثير من أي حادثة هنا أو هناك يمكن أن تقع أو تحصل.

وهذا الأمر أشار إليه وبوضوح تام الإمام الخامنئي إذ يقول : زإن الجمهورية الإسلامية منبثقة من صميم المعارف الشيعية، ولكن إسلامية النظام تعني الإسلام الذي يتخطى حدود المذاهب، وهويته تتعدى المذاهب.. والنظام الإسلامي لم يحصر هويته في مذهب واحد.. فإننا نرى أن الشباب أنظاره شاخصة نحو الجمهورية الإسلامية ولذلك فإن النظام الإسلامي يفتخر ويعتز بكيان الأمة الإسلامية ككل»[١٥].

ج- تصاعد دور حزب الله، والمقاومة الإسلامية - اللبنانية، إقليمياً، بحيث إن هذه المقاومة انطلقت كتراكم لبناني وعربي عبَّرت عنه حركات إسلامية دينية وشعبية سعت لرفع المظلومية والحرمان الذي كانت تلاقيه بعض المناطق بفعل العدوان الإسرائيلي عليها، وتغافل الدولة اللبنانية عن متابعة شؤونها وقضاياها المتعلقة بأمنها الاجتماعي وحقوقها المدنية من العيش والتعليم والطبابة فضلاً عن دورها السياسي والإداري..

وقد تلازمت هذه الحركة التي قادها رجال دين لبنانيون، مع وجود توجهات

سياسية وثورية يسارية وفلسطينية خاضت تجربتها على الساحة اللبنانية، وقد وجدت الحركة الإسلامية لها بيئة حاضنة في مناطق إسلامية رفضت الدخول في أي خلاف على خلفية المصالح الحزبية، والدخول في أتون حرب أهلية داخلية كادت أن تنسف كل مقوّمات العيش الوطني والأهلي في لبنان الذي أنسى الكثيرين الخطر الخارجي المحدق بهم والذي تمثّل بالأطماع الإسرائيلية في لبنان.. هذه الأطماع التي تفاقمت إلى درجة اغتصاب أراضٍ لبنانية، وموارد المياه فيه، ووصلت إلى اجتياحات توجتها إسرائيل بحربها على لبنان عام ١٩٨٢م.. إذ وصلت إلى العاصمة بيروت وأوقعت المجازر فيه في القرى والمدن اللبنانية، ونصَّبت رئاسة لبنانية متعاطفة مع إسرائيل ساعدتها على إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان.. ووقعت مجزرة صبرا وشاتيلا.. وانتقل الدور الفلسطيني إلى قطبين:

أولها: منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها في تونس التي سارت باتجاه الحل السلمي مع إسرائيل ودخلت في مفاوضات أسفرت عن اتفاقية (أوسلو).. التي تتوجت بعودة المنظمة وأبي عمار إلى قطاع غزة والضفة الغربية.. ثم ما لبث الإسرائيلي أن انقلب عليها، مما أثبت فشل الخيار السياسي والدبلوماسي في مواجهة إسرائيل.

وثانيهما: تصاعد الحركات الإسلامية الفلسطينية داخل فلسطين المحتلة وبروز حركة حماس[١٦]، والجهاد الإسلامي[١٧]، وفصائل أخرى.. اعتمدت نهج المقاومة والانتفاضة الشعبية، وتفاعلت مع امتداد شعبي داخلي- فلسطيني، ومع بروز خيار المقاومة كسبيل لمواجهة إسرائيل في لبنان.. والذي أثبت مع الوقت جدوائيته وفاعليته مما شجع الانتفاضة على سلوك درب المقاومة المسلّحة..

أما في لبنان فلقد برزت المقاومة الإسلامية بعد عام ١٩٨٢م. كقيادة للعمل المسلّح في دفع العدوان الإسرائيلي. بالوقت الذي كان في لبنان من ينادي بإرساء التصالح مع إسرائيل، ولو عبر تأكيد الهدنة وتطبيق القرار الدولي

(٤٢٥) كما أن لبنان شهد فصائل وتيارات رفضت التصالح مع إسرائيل، وتوجهت نحو مد الجسور مع المحيط العربي، وبالتحديد مع سوريا كخيار ثالث في مواجهة المشروع الإسرائيلي..

ولا يخفى أن المقاومة في الوقت الذي رفضت فيه أي تصالح مع إسرائيل،.. إلا أنها تعاونت مع التيارات المنادية بالانسجام مع المحيط العربي - الإسلامي بقيادة إيران وسوريا .. ودون أن تكتفي بهذا التحالف، استمرت بخيارها العسكري والجهادي- الاستشهادي المقاوم .. حتى أخذت تحقق الضربات الناجحة في مواجهة إسرائيل وأفشلت عدوان إسرائيل عام ١٩٩٣ - وعام ١٩٩٦ م.. وأقنعت المجتمع الأهلي والسياسي اللبناني بصدقية خيارها.. دون أن يعني ذلك عدم وجود من لم يؤمن بهذا الخيار .. مستفيدة من قدرة وشجاعة مجاهديها، وإخلاص شعبها، وبعض المناخات الإقليمية المانعة للصلح مع إسرائيل.. إلى أن كان عام ٢٠٠٠م. الذي تَوَّج المقاومة الإسلامية على خط المواجهة مع المشاريع الإمريكية - الإسرائيلية في المنطقة، ودفع الانتفاضة نحو خيار المقاومة، وألهب الشارع العربي والإسلامي بمعاضدة خيار المقاومة في مواجهة قوى التسلط والعدوان.. ولم تكتف المقاومة بهذا الإنجاز، بل أخذت على عاتقها حفظ السيادة الوطنية عبر الدفاع عن كل شبر لبناني يتعرض لأي عدوان جديد.. واسترجاع المياه اللبنانية من إسرائيل (نهر الوزاني).. وعبر استعادة الأسرى من السجون الإسرائيلية وهي حققت جزءاً من هذا الهدف عام٢٠٠٤ وأثبتت قدرتها على فرض خياراتها المبنية على القوة في مواجهة إسرائيل.. ثم كانت عملية الأسر الثانية عام (٢٠٠٦) والتي تبعها انكشاف المخطط الأمريكي- الإسرائيلي بالعدوان على لبنان في تموز ٢٠٠٦م.. لتخرج المقاومة الإسلامية كحركة وجهة عربية تخوض لأول مرة حرباً تنتصر فيها ضد الكيان الغاصب إسرائيل.. بل تجاوز الانتصار حدود إسرائيل ليكشف عن أمرين:

١- إعاقة تقدّم المشروع الأمريكي-الصهيوني لبناء شرق أوسط

جديد[١٨]. مما يعني أن المواجهة أخذت بعداً دولياً..

٢- صوغ صورة من المواجهة السياسية التي تنطوي تحت عنوان استكمال مشروع السيادة الوطنية الذي تقوده المقاومة اليوم، مع كل الأحرار في لبنان والمنطقة.. والذي يرفض أن يُسلِّم الإنجاز الاستشهادي التحرري على طبق من ذل التآمر الدبلوماسي..

وهذا ما فتح أمام المشروع الاستحواذي الأمريكي مخاطر المقاومة وثقافة الاقتدار الباني والحافظ للحرية والاستقلال والإنجازات.. الأمر الذي واجهه البعض بجملة إشكالات بعضها ينطوي على الكثير من الجدية وبعضها يدخل في سياق الإحراجات.. ومن جملة ذلك..

أولاً: أن حزب الله يريد تقويض بنية الدولة اللبنانية وأنه دولة داخل دولة، وأنه وكيل مشاريع إقليمية ومذهبية.. في الوقت الذي كان هذا الحزب، وما زال يعتبر أن عمله وإن خرج من بين ظهراني الشيعة في لبنان إلا أن سلاحه ودوره ووظيفته هي وطنية بامتياز...

ومقتضى الحكم على الأشياء لا يكون إلا بمراعاة الدور والوظيفة.. وأن أي توافق لبلد من البلدان أو شعب من الشعوب.. مع أي دولة أخرى إنما هو ضرورة وطنية حينما يكون لمصلحة الوطن، وهذا ما يراه حزب الله في رفضه الوصاية الأميركية الداعمة بالمطلق لإسرائيل . وانفتاحه على كل علاقة إقليمية أو أوروبية تخدم قضايا التحرر والسيادة الوطنية.. بل إنه يعتبر أن حفظ المقاومة والوطن يكون باتفاق أبنائه على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، وبعدم الانزلاق إلى أي احتراب أهلي أو طائفي أو مذهبي..

ثانياً: إن نية حزب الله الفعلية هي الوصول لإقامة دولة إسلامية في لبنان..

ولعل منشأ هذا الطرح يعود؛ إذا ما استثنينا النوايا السيئة؛ إلى جملة أسباب منها:

أ- إن منطق الأحداث التي حكمت حركة (المقاومات) في بلدان عديدة؛ كان

يؤول إلى تغليب مبادئ المقاومة، وقناعاتها، في مجرى سياسة الحكم الخاص، بهذا البلد أو ذاك.. وهذا استحقاق طبيعي يوليه الوطن وشعبه إلى مقاومته..

ب- إن طبيعة الإسلام كدين، يمتلك رؤية موحَّدة في شؤون الآخرة، وشؤون الدنيا، قد يدفع بجماعة ملتزمة به كحزب الله؛ أن تنخرط وتخوض غمار إقامة حكم على هدي من معتقدها الديني..

ج- شعور البعض من اللبنانيين أن خطورة المحتمل تطغى على الوجدان مع قلة وضعف الاحتمال بإقامة حكم إسلامي، في لبنان؛..

إذ ولو كان من الصحيح القول إن العوامل الداخلية والإقليمية والدولية، بل حتى العوامل التي صيغت عليها أهداف قيام حزب الله؛ لا تسمح بالعمل على إقامة دولة إسلامية، فإن نفس الفكرة - الحكم الإسلامي - (كمحتملٍ) هو يشكِّل منطقة خطرٍ تُعرِّض الكيان المسيحي، بالخصوص؛ إلى أخطار حقيقية في هذا الشرق الذي يقع فيه لبنان كحضن آمن، بل كركيزة استراتيجية حافظة للوجود المسيحي الشرقي..

وعليه فإن مثل هذا النقاش قد يندفع في الفترة القادمة ليشكِّل واحداً من محاور المتلاقين في المنتديات والمؤسسات الحوارية؛.. بل سيشكِّل مادةً خصبة للمنابر الثقافية المختلفة أو المؤتلفة فيما بينها.

وفي ظني أن تقديم إجابات شفافة على مثل هذا النقاش سيحرّر فكرة المقاومة ومشروعها من كثير أوهام أو افتراءات أو تخيلات ألصقت بها..

ولعل ما يسوِّغ مثل هذا النقاش أن الأمين العام لحزب الله.. وهو رجل قد صاغ صورة مصداقيته وصدقه في المخيال الجماعي اللبناني العربي؛.. قد أعلن وأوضح أكثر من مرةٍ أن الحكم الإسلامي، وإن كان مسألة مبدئية.. إلا أنها مبدأ لا يصح إلا بشروط توافقية شعبية جامحة، بحيث يتحول هذا المطلب إلى هدف وشعار لبناني عام، بمقتضاه يمكن نسج أطر مثل هذا الحكم.. من هنا فإن الشغل ليس على نفس الحكم؛.. بل على تقديم نظام القيم الإنساني والخلقي الذي يكتنزه هذا الدين؛.. والذي يتماشى فيه مع مكوِّنات قيمية

إنسانية عامة من مثل العزة والكرامة والحرية ورفض الضيم.. وصولاً لإرساء قواعد من العدالة بها يقوم الدين، ولا عكس.. وهو الأمر الذي جعل حزب الله أمام أربعة مهام استراتيجية:

أولها: الدفاع عن الأرض بوعيٍ لا يؤخذ بالتهويل، وتشكيل مقاومة في وجه إسرائيل بما تمثّل من كيان غاصب، وبما تمثّل من إفرازٍ استراتيجي عميق لسيادة منطق الهيمنة الغربية الأمريكية..

وهذا المشروع الدفاعي هو ما يمكن أن نصطلح عليه اليوم بوجه حضارة الاقتدار الأخلاقي في مجابهة حضارة سطوة القوة المستبدة.

ثانيها: الدخول في نسيج المجتمع المدني، وكسر رهانات الضعف والمهادنات المشبوهة كمكوّن من مكوّنات صياغة السلطة الحاكمة في لبنان.

ثالثها: صياغة منطق حقوقي وفقهي يوائم بين روح الشريعة وخصوصيات المواطنة في مناخاتها وبيئتها التعددية الخاصة، والتي يمكن أن تجعل من لبنان مثالاً عربياً وإسلامياً متميّزاً.. بوجدان شعبه، وحركة تآلفاته ونزاعاته..

رابعها: فتح حوارات متنوعة السجايا والاهتمامات والانشغالات، من سياسية ودفاعية ودينية واجتماعية وغيرها..

وبشفافية تحتفظ بكل ثوابتها، التي منها: إن الوصول للأهداف يقبل السبل المتعددة، شريطة أن لا تضيع الأهداف بمتاهات السبل..

وإن مثل هذا الحوار معنيٌّ بمحاكاة الهواجس المسيحية، تماماً كما هو معنيٌّ بمراعات مخاوف المنزلقات الطائفية الإسلامية.

لكن يبقى أن رصيد الجدّة في مثل هذه المهام.. هو وظيفة كل الأطراف وكل الوطن.. إذ كما أن على حزب الله، أن يعلم بأنه ضعيف لو ربح العالم وخسر شعبه ووطنه.. فإن على الجميع أن يعلم أيضاً بأنه مهزوم، إذا ضيّع الإنجازات التاريخية التي رسمها حزب الله في مساره الجهادي الطويل..

وبالتالي، فإن مخاوف افتراضية من مثل تلك التي أسلفنا، لا ينبغي أن تشكّل عائقاً يحول دون التزام شروط الوفاق الوطني وهذا ما تعمل المقاومة

الإسلامية على صوغه باعتبار أن الإسلام دين الدنيا والآخرة.. إنما يهدف إلى إقامة العدل في المجتمع، ومن سبل ذلك إقامة الدولة الإسلامية حينما تتوفر الشروط الموضوعية والتي عدَّ الإمام الخميني (قده) من أهمها شرط إجماع الإرادة الشعبية عليه.. وإلا فالأصل هو تحرّك الإرادة الشعبية نحو رفض الظلم؛ وهو هنا الاحتلال وامتداداته، وبناء مجتمع الاقتدار العامل على نشر قيم العدل والقوة والاستقلال الوطني..

وهذه المرونة في التعاطي الإسلامي مع المجتمعات هي التي تحمل مكمن الخطر على المشروع الاستحواذي الأميركي لقابليتها الامتداد في كافة أنواع المجتمعات بما فيها المجتمعات التعددية غير المتجانسة على المستوى القومي أو الديني أو المذهبي،.. وهذا يعني بالضرورة أن الفكرة الإسلامية للمقاومة مبنية على أفق إنساني عام، يعبِّر عن نفسه بالتزامات عقائدية دينية تقوم على الإسلام بما هو رسالة مفتوحة على العالم،.. والهدف عنده إنما هو القيم الإنسانية العادلة سواءً أكانت عبر مقصد إقامة الدولة الإسلامية العادلة،.. أم الدولة العادلة التي قد لا تتبنّى الإسلام نظام حكم،.. إنما المهم أن يكون المجتمع والدولة قائمين على قيم الإسلام المفتوحة على تحصيل الحق وإقامة العدل ونشر مبادئ التحرر والاستقلال الوطني.. دون الركون إلى قوى البطش الغاشمة..

ثالثاً: من الإشكالات التي وُضعت في وجه المقاومة الإسلامية أنها حركة تمرّد ضد الواقع، والحياة.. وأنها تروِّج لثقافة الموت، وتعمل على نسف الإعمار والرفاه..

وهنا من الضروري الإشارة أن المقاومة الإسلامية تستند إلى العقيدة الدينية المؤمنة بأن القوة الحقيقية هي بيد الله.. وأن الحياة التي يريدها الله سبحانه للناس لا تقتصر على الحياة الدنيا، بل هي تمتد إلى الحياة الآخرة، بل إن الآخرة هي مستقر الحياة، كما أشارت الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[١٩]. فإن الإنسان لا تقتصر حياته على ما يمضيه في الدنيا..

هذا وإن كانت الدنيا، هي حياة الابتلاء التي يقدّسها الإسلام بمقدار ما يعيش فيها الإنسان قيم العيش بكرامة وعبادة وتراحم مع المجتمعات الإنسانية.. أما الدنيا التي ليس فيها سوى الذل وظلم النفس، وظلم الناس، والجحود بأنعم الله سبحانه، فهي حياةٌ أقرب للموت وللسكون القاتل.. وما الدعوة لإقامة حكم الله في الأرض، ونشر قيم العدالة، وتحقيق أهداف الأنبياء.. إلا دليلا ساطعاً على النظرة الإيجابية للحياة.. لكن يبقى أن العقيدة الإسلامية ترفض أن يتمسك الإنسان بحياته حتى ولو أودت لموت المجتمع وقيم الإنسانية فيه.. لأنها عقيدة تقوم على الإيمان بأن الإنسانية والمجتمع هما مهبط اللطف الإلهي، وهما مستودع أسرار سنن الرحمة والولاية الربانية..

لذا فإن الفرد مهما سمت قدسيته، فإنه يرتقي درجات القرب إلى الله سبحانه وتعالى بمقدار ما يبذل في سبيل المجتمع والإنسانية.. والله يهبه الحياة الخالدة، التي هي الفوز الأبدي، بالشهادة في سبيل الله وتقديم الذات في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر قيم العدالة والعزة، وإصلاح المجتمع صلاحاً يرقى به إلى مصاف المجد والسؤدد..

لذا فالموت يتحول إلى حياة في ثقافة المقاومة.. والحياة تتحول إلى خلود وسلام، وإلى تحرر واستقلال في قيم الاقتدار التي تستند إليها المقاومة.. والاشتباه الكبير الذي طالما وقع فيه الرافضون لقيم المقاومة وثقافتها، هو عدم تفريقهم بين معنى الحياة والشهادة، ومعنى الموت والتبعية.. لذا فمن مفردات صراع حضارة الاقتدار، ضد حضارة السطوة والعنف، هو تنمية روح الثقة بالنفس وبالحياة عند الجماعات المهزومة، التي طالما أفردت فوق الإنسانية أجنحة الموت والثبور والويل والمآسي،.. بنزاعات دموية دخلت فيها من مداخل عُقَد نفسية عاشتها تجاه الحقيقة القاضية بأن القدرة وحدها هي الكفيلة بردع العنف.. وبأن اليقين بالاعتماد على الله وعلى الذات هو الكفيل بكسر التبعية وسلاسل قيد عبوديتها..

من هنا، خاضت المقاومة الإسلامية في لبنان، وما تزال حرب تقديم

النموذج والمثال الثقافي لحضارة وقيم الاقتدار.. وكيف يمكن لمثل هذا النموذج أن يقدِّم نفسه لبيئة ثقافية عاشت كل آفات الهزيمة والاستتباع لفترات متباعدة من الزمن، حتى باتت بيئةً لا ترتضي مشاعر النصر، ومعنويات الاقتدار والاعتماد على الذات في تحقيق الحقوق المشروعة..

هذا وكلما حقّقت هذه المقاومة نجاحاً وإنجازاً جديداً، كلما اعترضتها مواجهات أشمل وأعمق وأخطر من قبل حضارة الاستحواذ، وملحقاتها التابعة لها في البيئة المحيطة... وهنا تتفاقم الأزمة لتضعنا أمام حقيقة قرآنية يرى فيها أهل المقاومة باب الأمل الكبير، إذ يقول سبحانه : ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[٢٠].. إذ الأمل والفرج إنما ينسجمان نوراً وإشراقاً من تراكم الظلمة والمظلمة... ليأتي بعد ابتلاء الصعاب فرج خلافة الله في أرضه..

عليه، فإن الدور المنوط بالمقاومة الإسلامية في لبنان ليس مفصولاً عن تنامي حضارة الاقتدار التي تمثّلها الصحوة الإسلامية المعاصرة، والتي أحياها الإمام الخميني (قده).. بل هو دور مركزي ومفصلي لأنه يشكّل النموذج الحي للإسلام الرسالة، وقابليته على أخذ موقع مركزي في مجتمعات متعددة ومتنوعة، بحيث ينخرط في تلك المجتمعات ويحمل كل مفاصل المشروع الوطني، في الوقت الذي يحافظ فيه على ثوابته العقائدية، ويطلق قيم المعنوية الإسلامية، حتى في مجتمعات غير إسلامية، وهو يسير باستكمال دوره الحسَّاس والفاعل في القضايا التحررية القومية والوطنية والإسلامية، الإنسانية..

هذا وما زال على المقاومة أن توفِّر الإجابة عن جملة أسئلة واقعية تحيط بها، وهي إن توفرت عليها فسوف تقدِّم لتجربة حضارة الاقتدار مديات واسعة من التحرك الإنساني العزيز.. ومن جملة تلك الأسئلة..

١- أن المقاومة عندما ترفع شعار الإسلام، فهي وإن كانت تؤمن به كدين يُفتدى بالروح والأهل والمال.. إلا أنها ومن نفس قيم هذا الدين إنما «تقاتل من أجل المستضعفين، ولترفع الرؤوس المنكسة إلى العلو»[٢١] فكيف يمكن إقناع

غير المسلمين أن فعل المقاومة ينطلق من قيم إسلامية وأغراضٍ وأهدافٍ إنسانية عامة؛ وهذا شأن ديني مقدَّس؟

٢- كيف يمكن في الوقت الذي تلتزم فيه المقاومة الإسلامية الحدود الشرعية، والضوابط الشرعية الدقيقة في التزاماتها الدينية؛ أن تتقدّم من العالم، والشعوب، والمجتمعات التي لا تلتزم شرعة الإسلام، بقضايا وأهداف وشعارات ولغة تواصل رسالي يحمل أفق الإسلام الرسالة المتوجهة إلى كل ضمير إنساني؟

٣- إن الإسلام الذي تلتزمه المقاومة يؤمن بأنه دين عبادة وسياسة، بل السياسة فيه عين العبادة، وهو يؤمن بإقامة دولة إسلامية، فكيف يمكن للمقاومة الإسلامية أن تشرح واقع نظرتها الفكرية والفقهية في صدق عملها داخل مجتمعات قد لا تكون قابلة أصلاً لإقامة حكم إسلامي فيها؟

٤- كيف تتجاوز المقاومة الإسلامية الشيعية في لبنان حدود المذهب للتلاقى مع بقية المذاهب الإسلامية كما بقية الطوائف والأديان غير الإسلامية؟

٥- كيف يمكن أن تقنع المقاومة المجتمع أو المجتمعات والشعوب التي لا تعي ذاتها خارج دائرة الهزيمة، بإمكانية تحقيق الانتصار وبأننا دخلنا عهد الانتصارات، بعد أن خرجنا من عصر الهزائم؟

٦- كيف يمكن للمقاومة أن تنقل قضاياها وقيمها إلى العالم، وهي المطوَّقة بفعل سياسات وإعلام شديد القوة وشديد الانتشار، وشديد الكراهية للمقاومة؟

إنني أعتقد أن جملة هذه الأسئلة ستجد لها الأجوبة العملية بفعل مكابدتها للواقع، وبفعل استرشادها بنهج الإمام الخميني (قده).. لأن هذا النهج، إنما تحوَّل من فكرة إلى نهج الاقتدار بفعل الحكمة الإلهية التي تربى عليها قائده، وبفعل مرارة التجارب التي خاضها الإمام الراحل (قده) وتنوعها، رغم أنها تجارب كانت مفتوحة، وما زالت إلى اليوم، على الصراع مع رأس حضارة السطوة؛ الولايات المتحدة الأمريكية،.. وبما أن هذه الدولة تقف كزعيم أوحد

لجبهة المواجهة مع الإسلام والمسلمين.. فإن تجربة الإمام (قده) ستحتضن الكثير من الغنى..

وهذا ما نرجو أن نوفق لدراسته، وإن بإطار الخطوط العريضة لنهج الاقتدار عند الإمام الخميني (قده).

العالم بين صراع الحضارات وحوارها:

أمام هذا الواقع فإننا نرى كيف أن العالم يتجه نحو الصراع.. والذي تسعى بعض الجهات النافذة في هذا العالم لتصويره على أنه صراع حضاري بين الغرب ككيان أحادي مستقل، والإسلام بما هو كيان حضاري أحادي نقيض.. مبرراً ذلك أن العالم تتنازعه «سبع أو ثماني حضارات كبرى. وتشمل هذه الحضارات الحضارة الغربية والكونفوشية واليابانية والإسلامية والهندوسية والأورثوذوكية السلافية والأمركية اللاتينية ويحتمل أن تنضم إليها الحضارة الأفريقية».

وتتباين هذه الحضارات لأسباب منها:

١- بفعل الاختلافات الأساسية فيما بينها من التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأكثر أهمية الاختلاف الديني..

٢- التواصل بين أطراف العالم زاد نسبة الوعي للاختلافات الحضارية.. في الوقت الذي تزداد فيه حركة التداخل بين أبناء الحضارات.. وصوّر البعض هذا التداخل بين أبناء الحضارات المختلفة، والذي يقع في بلاد الغرب هو الخطر المحدق بالحضارة الغربية، خاصة أن تزايد المسلمين، إذا ما قسناه بطبيعة الإسلام، التي يرى فيها الغربيون إرهاباً.. فإن النتيجة عندهم هي احتدام حرب بين هذه الحضارات.. وهذا ما يبررون به رفضهم لضم تركيا المسلمة مثلاً إلى الاتحاد الأوروبي..

٣- تقديم الدين كعلاج لمشكلة تفريغ الهويات القومية بسبب عمليات التحديث والتغيير الاجتماعي والاقتصادي. وأخذ الشباب الدور الرئيسي في الحركات الدينية الأصولية..

٤- وصول الغرب إلى أوج قوته مما عزَّز الوعي الحضاري ودفع الشعوب الأخرى نحو العودة إلى جذورها الحضارية.. كما ودفع الرغبة لديها بإعادة تشكيل العالم بأساليب غير غربية..

٥- صعوبة المعالجة للاختلافات الحضارية؛ لأن الحضارة تمثّل أصل الذات عند الشعوب.. ذلك «أن الحضارة هي أرفع تجمع ثقافي للبشر، وهي أشمل مستوى للهوية الثقافية لا يفوقه من حيث تحديده للهوية الثقافية إلا الذي يميّز الإنسان عن غيره من الأنواع الأخرى، ويمكن تحديدها أو تعريفها بكل من العناصر الموضوعية مثل : اللغة، والتاريخ، والدين، والعادات، والمؤسسات، وبالتمايز الذاتي للبشر[٢٢].

لذلك تتسم التمايزات بين الحضارات بالحدة..

وهذا التحليل فيه خلط بين واقع الصراع الحاصل بسبب تزايد واتساع دائرة المصالح الأميركية المباشرة .. وبين القراءة لمسار حركة الحضارات وافتراض أن التداخل بين أبناء الحضارات سببٌ من أسباب ازدياد الصراع.. في الوقت الذي يمثّل التداخل بين الجماعات مفتاح معرفة بين الأطراف مما يسمح بإيجاد مناخ من الحوار.. إلا أن مركزية الذات الأمريكية وبناءها على أساس اختزال الحق وصلاحية الحيازة لكل الإمكانيات بالذات الأمريكية وحدها فرض النظر إلى هذه الحضارات بأفق من التباين والتنابذ الذي قسَّم العالم إلى متقدِّم ونامٍ وعالم ثالث..

ليقوم اليوم بفرض تقسيم جديد مبني على عالم الخير وعالم الشر.. مستحضرين بذلك ثنائية القيم التي تمثّل في كل ذاكرة تاريخية وبناء حضاري، الصراع السرمدي بين الموجودات والحقائق والكائنات..

وهذا ما سمح للمنادين بحوار الحضارات أن يوجهوا انتقاداتهم إلى منطق صراع الحضارات واعتبار أن معوّق الحوار إنما يقع في أمرين:

الأمر الأول: الفهم السلبي - التاريخي للأديان تجاه بعضها البعض..

الأمر الثاني: القوى الاستعمارية «إذ إن أصحاب المصالح الاقتصادية

والسياسية وحتى العسكرية تجاوزوا حدودهم الوطنية بقصد السيطرة على العالم ولتحقيق هذا الهدف أباحوا لأنفسهم استخدام كل الوسائل والأدوات، ومنها إثارة مساوئ التاريخ في الأذهان، ليس فقط للإبقاء على الخلافات بين المسيحيين والمسلمين، وكذلك بين المذاهب الإسلامية نفسها، بل أيضاً لإثارة هذه الخلافات من زوايا عديدة وعلى نطاق واسع، ليتمكن المستعمرون في ظل هذه الخلافات والنزاعات، من الوصول إلى مصالحهم غير المشروعة»[٢٣].

إلا أن هؤلاء الداعين لحوار الحضارات إنما نظروا للتداخل التأسيسي للحضارات المختلفة واعتبروا أن إقامة حوار بين النخب والمفكّرين والعلماء من مسيحيين ومسلمين بغرض التعارف والمعرفة المتبادلة في مختلف المجالات وصولاً للاحتياجات التي يتوخاها العالم المعاصر كفيلة بإنجاز مثل هذه الحوارية الحضارية.. وهذا الكلام وإن كان فيه بعض الصحة، إلا أنه يصح كسبيل من سبل المعالجة للعلاقة بين بعض أصحاب الديانات والنخب المفكّرة والغرب كما العالم الإسلامي لا يمكن حصره بهذا النموذج القابل للحوار..

وبالتالي فلا يمكن لنا غض النظر عن واقع الاحتراب الصراعي القائم بين أهل الحضارات..

فالحوار كما الصراع أمور ممكنة في العلاقة بين الحضارات وأصحاب الحضارات..

وفي ظني أننا اليوم معنيون بتقديم النموذج الحضاري الخاص وبشكل يمثّل كياناً قابلاً للتحاور ومن موقع الاقتدار..

لذا، فإن المسلمين مدعوون لجملة أمور منها:

أ- الاستمرار في تصعيد قوة حضارة الإسلام المقتدر في قيم بناءاته التحررية والتنموية، لكسر السيطرة المركزية الغربية من جهة، ولوضع حد لذهنية الاستبداد الذي تمارسه حكومات عالمنا العربي والإسلامي على شعوبها من جهة ثانية، ولتوفير أرضية البناء العمراني المعنوي منه والاجتماعي من جهة ثالثة.

ب- الاستمرار في فتح منافذ الحوار والتلاقي مع قوى الضمير الحر في هذا

العالم، بما فيه شعوب العالم الغربي.

ج- الدخول في حوار حضاري كوني من موقع الفاعل المقتدر، إذ بذلك وحده يمكن أن نفرض على عالم السطوة قابلية الإصغار والتفاوض الجدي، لأن هذا العالم في أغلبه يقوم على منطق الاصطراع الحضاري.

د- العودة إلى دراسة الذات ووعيها بشكل يختلف عن كل القراءات السابقة، والتي تولّدت وتفاعلت مع الهزيمة التي أصابت العالم الإسلامي، بحيث استطاع الغرب المنتصر أن يرسم في العقل العربي والإسلامي وعياً حساساً بالهزيمة، يقبل كل تلاوين الاستتباع، ولا يستطيع الخروج في دائرة النظر عن مركزية الغرب الأحادية.. حتى بات هذا العقل يعي تراثه ودينه وقيمه وإنسانه بضوء من انحداره المهزوم.

واليوم طالما أننا نعايش واقع نهج الاقتدار في حياتنا اليومية، وفي عودة اشتعال قضايانا على مستوى العالم... فإننا مدعوون وبإلحاح إلى قراءة مؤمنة بمعالم نهج الاقتدار الذي أطلقه الإمام الخميني (قده) لنقرأ ونرى ونعي ذاتنا على ضوء معالم وأصول هذا النهج المقتدر..

الهوامش:

(١) جمال الدين الحسيني الأفغاني(١٨٣٨-١٨٩٧) أحد الأعلام البارزين في النهضة الإسلامية الحديثة، وأحد دعاة التجديد الإسلامي.

(٢) حسن عبد الرحمن أحمد البنا من مواليد ١٤ تشرين الأول(اكتوبر) ١٩٦٠مؤسس حركة الأخوان المسلمين ١٩٢٨، اغتيل في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٧.

(٣) آية الله العظمى السيد روح الله الموسوي الخميني، عرف بالإمام الخميني (٢٢ سبتمبر ١٩٠٢- ٣ يونيو ١٩٨٩) مرجع ديني إسلامي، مصلح ومجدد ومطلق ومرشد وقائد سياسي وروحي للثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩ التي أطاحت بمحمد رضا بهلوي الذي كان شاه إيران في ذلك الحين. يعتبر من أكثر الرجال تأثيرا في القرن العشرين، ووسمته مجلة التايم برجل العام للعام ١٩٧٩.

(٤) المناوي، محمد عبد الرؤوف: «**فيض القدير شرح الجامع الصغير**» تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج٦ص٥١٤.

(٥) «**الإسلام هو الحل**» كان هذا هو الشعار الذي تلقيناه من التجربة الحركية الإخوانية.

(٦) سيطر العثمانيون على الحكم في الدول الإسلامية في عام ١٢٨٠م واستمروا حتى العام ١٩٢٢م، عندما أعلن مصطفى كمال أتاتورك نهاية الخلافة الإسلامية.

(٧) هانتغتون مفكر امريكي؛ صاحب نظرية «صراع الحضارات» التي صدرت في مقالة نشرتها مجلة «الشؤون الخارجية الأمريكية» ومن ثم طبعت في كتاب حمل الاسم نفسه، نظّر من خلاله للعداء للإسلام والكونفوتشوسية .

(٨) هانتغتون، صاموئيل: «**الإسلام والغرب، آفاق الصدام**» ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ٢٣ ٢٤.

(٩) الإمام الخميني «الكوثر» مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، إيران - طهران، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.ج٢، ص ٦١.

(١٠) يمثل مصطلح الفوضى الخلاقة أحد أهم المفاتيح التي أنتجها العقل الاستراتيجي الأميركي في التعامل مع قضايا العالم العربي حيث تمت صياغة هذا المصطلح بعناية فائقة من قبل النخب الأكاديمية وصناع السياسة في الولايات المتحدة، وتمثل كتابات اليوت كوهين أحد المصادر المهمة لنظرية الفوضى الخلاقة وخصوصا كتابه «القيادة العليا، الجيش ورجال الدولة والزعامة في زمن الحرب» ويرى كوهين أن الحملة على الإرهاب هي الحرب العالمية الرابعة باعتبار أن الحرب الباردة هي الثالثة، ويؤكد بأن على الولايات المتحدة أن تنتصر في الحرب على الإسلام الأصولي.

ومن المساهمات الرئيسية في صياغة نظرية الفوضى الخلاقة ما قدمته المراكز البحثية الكبرى في الولايات المتحدة وعلى رأسها مؤسسة «أميركان انتربرايز» للدراسات وتعتبر كتابات راوول

مارك غيريشت وهو منظّر المحافظين الجدد، والمختص في الشأن العراقي والشيعة، أبرز من يمثل هذا المركز، ويؤكد غيريشت أن إدارة الرئيس بوش بلورت مشروع «الشرق الأوسط الكبير» بالاعتماد جزئيا على أبحاث مؤرخين نافذين أمثال برنارد لويس من جامعة برنستون وفؤاد عجمي من جامعة جونز هوبكنز، ومن المعروف أن لويس أحد المناصرين لإسرائيل، وكان قد أعلن عقب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ عن موت العالم العربي ككيان سياسي، واقترح استخدام مصطلح «الشرق الأوسط» بدلا من «العالم العربي». وتقوم مؤسسة «واشنطن لسياسات الشرق الأدنى» بدور لا يقل أهمية عن المؤسسة السابقة في صياغة نظرية الفوضى الخلاقة، ويمثل روبرت ساتلوف المدير التنفيذي المعروف في المؤسسة أحد أقطاب هذه النظرية، وهو من أشد المعجبين بأفكار برنارد لويس ولا يفتأ يردد آراءه المتعلقة بالعالم العربي. وكان قد اقترح إقصاء مصطلحي العالم العربي والإسلامي من القاموس الدبلوماسي الأميركي، وطالب بالتعامل مع العالم العربي من خلال مقاربة خاصة بكل بلد على حدة ومحاربة الأصولية الإسلامية بلا هوادة والتي تسعى برأيه إلى إلغاء الحدود الجغرافية والطبقية. وتمثل الأطروحة الرئيسية لنظرية الفوضى الخلاقة على اعتبار الاستقرار في العالم العربي عائقا أساسيا أمام تقدم مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، ولذلك لا بد من اعتماد سلسلة من التدابير والإجراءات تضمن تحقيق رؤيتها التي تطمح إلى السيطرة والهيمنة على العالم العربي، الذي يمتاز بحسب النظرية بأنه عالم عقائدي وغني بالنفط الأمر الذي يشكل تهديدا مباشرا لمصالح الولايات المتحدة. وينادي أقطاب نظرية الفوضى الخلاقة باستخدام القوة العسكرية لتغيير الأنظمة كما حدث في أفغانستان والعراق، وتبني سياسة التهديد بالقوة التي تساهم في تفجير الأمن الداخلي للعالم العربي وتشجيع وتأجيج المشاعر الطائفية وتوظيفها في خلق الفوضى كما هو الحال في التعامل مع الوضع اللبناني والسوري والعراقي.

(١١) الحجرات، ١٢.

(١٢) ابن منظور: «لسان العرب»، تحقيق علي شيري، مركز إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ج٥، ص ٧٤.

(١٣) أبو هلال العسكري: «الفروق اللغوية»، مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة المدرسين، قم، ١٤١٢، ص٤٧.

(١٤) سورة الأنفال، ٦٠.

(١٥) الإمام الخامنئي من كلمة له في ذكرى رحيل الإمام (قده)، ٤-٧-٢٠٠٧.

(١٦) «حماس» هو الاسم المختصر لـ «حركة المقاومة الإسلامية»، وهي حركة مقاومة جهادية شعبية وطنية تعمل على توفير الظروف الملائمة لتحقيق تحرر الشعب الفلسطيني وخلاصه من الظلم وتحرير أرضه من الاحتلال الغاصب، والتصدي للمشروع الصهيوني المدعوم من قبل قوى الاستعمار الحديث. وزعت حركة المقاومة الإسلامية «حماس» بيانها التأسيسي في ١٥ كانون الأول

/ديسمبر ١٩٨٧، إلا أن نشأة الحركة تعود في جذورها إلى الأربعينات من هذا القرن، فهي امتداد لحركة الاخوان المسلمين، وقبل الإعلان عن الحركة استخدم الإخوان المسلمون أسماءً أخرى للتعبير عن مواقفهم السياسية تجاه القضية الفلسطينية منها «المرابطون على أرض الإسراء» و«حركة الكفاح الإسلامي».

(١٧) حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، تنظيم فلسطيني مناهض لاتفاقية أوسلو. أسس في السبعينيات على يدي الدكتور فتحي الشقاقي.

(١٨) فكرة تداولتها وزيرة الخارجية الأميركية أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان، وهي تعود في جذورها لشيمعون بيريز في كتاب صدر له عام ١٩٩٣ تحت عنوان الشرق الأوسط الجديد.

(١٩) العنكبوت: ٦٤.

(٢٠) الشرح: ٦.

(٢١) السيد حسن نصر الله، «الإفطار السنوي لمؤسسة الشهيد في قاعة شاهد»، ٢٠٠١/١٢/١ .

(٢٢) هانتغتون، صاموئيل: «صراع الحضارات»، ترجمة طلعت الشايب، مراجعة صلاح قانصوة، كتاب مجلة سطور٢، القاهرة، ص ١٠٦- ١٠٨. .

(٢٣) خاتمي، محمد: «بيم موج - المشهد الثقافي في إيران: مخاوف وآمال» دار الجديد، ط١، ٢٠٠٣، ص٦٥.

الفصـــل الثـــاني

قاعدة نهج الاقتدار ومرتكزاته

انطلق الإمام الراحل -قده- في مشروعه الحضاري من قاعدة إيمانه بالإسلام.. والإسلام عند الإمام الخميني -قده- هو رسالة التوحيد التي حملها كل نبي ورسول ووصي وصدّيق.. منذ فجر الحياة والتاريخ الأول.. لأن قيم هذه الرسالة مفطورة في أصل تكوُّن الإنسان، وأصل خلقته.. والهدف المركزي لهذه الرسالة تربية الكمالات الفردية والاجتماعية عند الإنسان .. « أن جميع الأنبياء (ع) أرسلوا من أجل تربية جميع الأبعاد الإنسانية فهم الوحيدون القادرون على إنجاز هذه المهمة»[١].

هذا ويعتبر الإمام -قده- أن كل ابتعاد عن تربية جميع الأبعاد الإنسانية بما فيها تلك الأبعاد الجهادية والسياسية هو تحريفٌ للدين.. «فالإسلام يخالف المسيحية إذ أكدت على العزلة والزهد السلبي تجاه الدنيا. بل إن الكثير من المقولات في المسيحية لا تمت للسيد المسيح بصلة»[٢]، لذا فإنه يرى أن «للإسلام قانوناً متكاملاً علينا أن نطبقه خطوة فخطوة، وأن قانونه في درجة الكمال بحيث يأخذ بعين الاعتبار الحياة الدنيا وحياة ما بعد الموت، كما تطرق للبعد المعنوي للإنسان..»[٣].

ويذهب الإمام -قده- إلى اعتبار، أن اكتمالات رسالة الإسلام في تحقيق الغايات الإلهية، إنما كانت بما صَدَع به رسول الله محمد (ص) وبما حمله القرآن الكريم من كافة الأبعاد الإسلامية الإلهية «فالإسلام محفوظ بوثيقة القرآن لم تتغير منه كلمة واحدة.. وفيه تبيان لكل شيء، فهو كتاب تربية الإنسان، وصنع الشخصية الإنسانية بكل أبعادها، إذ أن للإنسان بعداً معنوياً

وآخر مادياً، وظاهراً وباطناً، وقد نزل القرآن لتربية جميع أبعاده، وهو يشتمل على جميع ما يلبي احتياجاته سواء المرتبطة به كفرد، كالعلائق بينه وبين الخالق تبارك وتعالى.. وقضايا توحيد الحق تعالى وصفاته والقيامة وأمثالها، أو القضايا السياسية والاجتماعية ومجاهدة الكفار وأمثالها، حيث القرآن مليء بالآيات التي تحرض الناس على هذا الجهاد، وتأمر النبي بمجاهدة المعتدين والظالمين. فهو كتاب يبعث الحركة.. إذ وحَّد الجموع المتناحرة على الدوام وبعثها نحو تلك الحالة السامية من العدالة والتحضُّر.. والإسلام يهتم بالقضايا الاجتماعية التي ترتبط بكافة أفراد بني الإنسان بلا اختلاف بين بلد وآخر.. إذ لا ينحصر ببلد معين، بل يهتم بكافة العالم.. إنه دين إلهي.. والله تبارك وتعالى إله الجميع، وليس إله الشرقيين وحدهم أو المسلمين أو الغربيين أو المسيحيين أو اليهود وحدهم بل هو إله الجميع، ورازق الجميع، وخالق الجميع، وكذلك حال الإسلام فهو دين الجميع بمعنى أنه جاء لتربية كل البشر على وفق الصورة التي يريد من العدالة.. وهذا الدين اجتماعاته سياسية في نفس حال كونها عبادية»[٤]؛ هذا النص يعلن فيه الإمام -قده- نظرته الإجمالية إلى الإسلام كقاعدة رؤية والتزام وسلوك معنوي وعملي...

إذ إنَّه عدَّ الإسلام؛ الحقيقة التي عمل الأنبياء والرسل على تحقيقها في الحياة، وهي قد تبلورت ضمن وثيقة إلهية محفوظة من الله سبحانه﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٥]، وهذه الوثيقة القرآنية هي وثيقة تربوية، وباعثة للحياة نحو العدالة والتسامي..

وفيها مكمن كل النشاط الجهادي للأنفس، والمجتمعات، كما أن فيها كل معالم رسم التكامل الإنساني، وتحقيق الصلاح في الأمم والشعوب؛ مما يعني أنها هي الموجِّه لحضارة الاقتدار وقيم نهج الاقتدار الذي يريده الله سبحانه للناس هدىً ونوراً يقوده نبي الدين أو إمامه ليخرج الناس من الظلمات إلى أنوار الحرية.. وهذا ما التفت إليه أخصام المجتمعات الإسلامية فعملوا على تجهيل الناس بالإسلام... «ومع الأسف، فإن مزايا الإسلام خافية على الناس،

حتى على المسلمين أنفسهم لأن أيدي الظلمة، وسراق النفط قد منعت من اتضاح حقيقة الإسلام أمام الناس، ولو تمَّ تطبيق الإسلام بصورته الحقيقية، فإننا نأمل أن ينتفض جميع بني الإنسان للنهضة تحت لوائه وتنهزم كافة التيارات الأخرى، ولكنهم لم يسمحوا للناس بالتعرف عليه؛ فقد وصفوه تارة بالرجعية، وأخرى بالعنف، وثالثة بأنه يرتبط بما قبل ألف وبضعة قرون، فلا يستطيع تنظيم الحياة المعاصرة؛ وكل هذه دعايات أطلقها الأجانب؛ وتدحضها حقائق الإسلام الحية»[٦].

من هنا اعتبر الإمام - قده- أن من أولى الواجبات النهضوية نفي التّهم والاشتباهات التي علقت في ذهن الناس ووجدانهم، تجاه الإسلام زوراً وبهتاناً.. ومن هنا كان يعتبر أن الإسلام كقاعدة لنهج الاقتدار يحتاج إلى تمكين علماء مخلصين من قيادة مسيرته، وإلى شعب واع، وإلى تغيير جذري بالثقافة التي اعتمد أخصام الإسلام بثّها وتعميمها بين الناس.

والملفت في مجمل رؤية الإمام - قده- للإسلام أنه يرى فيه رسالة تتجاوز كل الأقطار والأديان والمذاهب والأيديولوجيات .. رسالة تريد التواصل مع الإنسان في إنسانيته فتنصر المستضعف أياً كان؛ وتغيث الملهوف لا لشيء إلا لأنه نسمة من نسائم لطف خلق الله، وتعتبر أن الظلم والكفر والفت نقيم باطلة لا دين لها ولا حرمة، ومهما كان مصدرها يجب إعلان الحرب والمقاومة عليها...

ركائز قاعدة نهج الاقتدار:

إذا كان الإمام قد فهم الإسلام باعتباره قاعدة نهج الاقتدار، فإن الإمام -قده- حدد جملة ركائز لهذه القاعدة، تمثل الأصول المعتمدة لنهج الاقتدار عند الإمام الخميني -قده- بل يمكن القول أننا بدونها لا نستطيع فهم مسار وأهداف حركة الاقتدار في نهجه -قده-.

ومن هذه الأصول والركائز نذكر:

الركيـزة الأولى: ركيزة التوحيد

تُعد ركيزة التوحيد كأصل يبني الإمام بموجبه كافة رؤيته لمعالم قاعدة نهج الاقتدار، سواءً على المستوى الاعتقادي والإيماني، أم على مستوى الالتزام بالتشريع الإسلامي، أم على مستوى فهم سنن الكون والحياة وعلاقات الأمم في تعارفها وصراعها... إذ التوحيد هو الخاصية التي تتآلف فيها وتتوحد الأفكار والسلوكيات، والأهداف والإجراءات العملية، كما تتوحد فيها صورة الدور المنوط بأمة التوحيد ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[7].. ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[8].. لذا فان الإمام لطالما كان يعبّر عن هذا الأصل الذي تقوم عليه كل أصول الإسلام وفروعه، أنه هو المحور والركيزة الأولى لنهج الاقتدار الإسلامي ومن ذلك قوله -قده-: «إن اعتقادي، أنا وجميع المسلمين، إنما يدور حول نفس تلك المسائل التي أوردها القرآن الكريم. أو التي أوضحها نبي الإسلام (ص) وأئمة الحق من بعده، وإن أساس وأصل جميع تلك العقائد -والذي يعتبر أهم وأسمى اعتقاداتنا- هو أصل التوحيد واستناداً لهذا الأصل فإننا نعتقد بأن خالق العالم وجميع عوالم الوجود والإنسان هو الله تبارك وتعالى المطلع على جميع الحقائق والقادر على كل شيء ومالك كل شيء. وهذا الأصل يعلمنا بأن على الإنسان أن يُسلّم فقط أمام ذات الله المقدسة، وأن لا يبدي الطاعة لأي إنسان آخر الا إذا كانت طاعته استمراراً لطاعة الله. على

هذا الأساس، فلا يحق لأي إنسان أن يفرض على الآخرين التسليم له، ومن هذا الأصل الاعتقادي نتعلم أصل حرية البشر وأن لا حقّ إنسان أن يسلب إنساناً آخر او مجتمعاً او شعباً حقهم بالحرية.

أو أن يضع لهم قانوناً يقوم بتنظيم سلوكهم وعلاقاتهم استناداً إلى رغباته وميوله، استناداً لهذه الأصل فإننا نعتقد أيضاً بأن وضع القوانين لتطوير الحياة هو من اختصاص الباري جلَّ وعلا . كما أن قوانين الوجود والخلق من اختصاصه هو تعالى وأن سعادة الإنسان والمجتمعات وكمالها يمكن فقط في طاعة القوانين الإلهية التي تم إيصالها إلى البشر عن طريق الأنبياء وأن الانحطاط والسقوط اللذين يعاني منهما البشر إنما هما بسبب مصادرة الحريات والاستسلام أمام بعض الأفراد. عليه فإن على الإنسان أن يثور على هذه القيود والسلاسل المقيِّدة. وأن يثور على الذين يدعونه للاستسلام. وأن يسعى لتحرير نفسه ومجتمعه ليكون الجميع عبيداً لله. ومن هذا المبدأ تنشأ مقرراتنا الاجتماعية ضد القوى المستبدة والاستعمارية . ومن هذا الأصل الاعتقادي التوحيدي، فإننا نستلهم المساواة بين جميع بني البشر أمام الله، فهو خالق الجميع والجميع مخلوقون له وعبيده. الأصل تساوي البشر وما يُميِّز فرداً عن فرد كقاعدة ومعيار إنما هو التقوى والابتعاد عن الانحراف والخطأ، عليه ينبغي الوقوف بوجه كل ما يراد به تخريب المساواة الاجتماعية وتحكيم الامتيازات المزيفة والفارغة على المجتمع»[٩].

فبموجب هذا الأصل تنشأ في رؤية الإنسان وفي اعتقاده الحياتي جملة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن العالم صدر وانوجد عن خالقٍ محيط به، عليم بمكنوناته ما ظهر منها وما بطن، وأنه سبحانه هو القادر الذي بيده مقاليد القدرة وعنه تصدر سبل وقيم الاقتدار..

الحقيقة الثانية: بناءً عليه فإن الانقياد والطاعة والتسليم، لا تكون الا لله سبحانه،.. وكما لا ينبغي للإنسان أن يكون تابعاً لغير الله، فكذلك لا ينبغي له

أن يتحكم بأحد من عباد الله،.. فالله وحده هو المالك السيد والولي.. وكل ولاية في الحياة لا تصح إلا إذا انبثقت من ولاية الله سبحانه.. وإلا فإن نظر الإمام -قده- بموجب مستلزمات أصل التوحيد تفضي إلى العلم ذاته ليس لأي موجود من الموجودات بدءً من غيب عوالم الجبروت وإلى ما فوقها وما تحتها، شيء من القدرة أو العلم أو الفضيلة.. وكل ما فيها من ذلك إنما هو منه جلَّ وعلا، فهو الممسك بزمام الأمور من الأزل إلى الأبد، وهو الأحد الصمد، فلا تخشى من هذه المخلوقات الجوفاء الخاوية الخالية، ولا تلقِ آمالك عليها أبداً. لأن التعويل على غيره تعالى شرك، والخوف من غيره جلت عظمته كفر»[10].

وبهذا المعنى فإن الولاء السياسي هو ولاء فقهي يرتكز على أصل عقائدي.. يرى أن الإذن الإلهي وحده هو المخوَّل بتسيير دفة قيادة الحكم السياسي في الحياة.. وبدون هذا، فلا شرعية لأي حكم أو ولاء؛ لأنه سيقوم عندها على رفض قيم التوحيد، ومن قيم التوحيد العدل وما يقابله ويناقضه هو الظلم والعدوان.. ولا شرعية للظلم مهما علا شأنه.

الحقيقة الثالثة: ثم إن من مستلزمات هذا المبدأ أن الأصل في حياة الإنسان هي الحرية.. فالحرية حق لأفراد الناس ومجتمعاتهم وشعوبهم.. وهي من الأمور المرتبطة بمعايشة معنى التوحيد في الإسلام،.. إذ إن أي خلل في عملية العلاقة مع الله سواءً في العبادة أم السياسة أم وضع القوانين والتشريعات، و بما لا ينسجم مع حق الحرية، هو هتك لحرمة الأصل المركزي الإسلامي، أي التوحيد؛ من هنا فعندما يجاهد المرء ويرفض ويقاوم هذه المظاهر المخلة بالعدل والحرية،. فإنه يؤدي تأكيد الولاء في عهد ارتباطه بالحق سبحانه وتعالى.. ذلك أن الحرية هي نقطة الارتكاز التي وبحسب ما فُطر عليها الناس تؤهلهم لخيار حمل أمانة استخلاف الله في أرضه، وإقامة الحق والعدل في هذه الأرض..﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[11].

وتأدية الأمانة هنا هي في الإخلاص لله بخلافة الأرض وإعمارها..

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾(١٢)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾.(١٣)

ومقتضى الإخلاص لله بهذه الخلافة محاربة الظلم والفساد والجهل، ونشر العدل والصلاح والعلم والإنسان مهيءٌ لمثل هذا الدور **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾**.(١٤)

إلا أن المطلوب منه ليقوم بمثل هذا الدور أن يُعمِّم ثقافة العدل والصلاح والعلم، وأن يثبت أركانها.. وذلك إنما يتم بإقامة الحكم بين الناس على أساس الحق..

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾.(١٥)

العلاقة بين الحرية والهداية والاستخلاف

ويمثل هذه الوظيفة الرسولية المنطلقة من نور الحرية والإرادة التي جعلها الله للناس، ينتشر لواء الهداية الربانية لينير الأنفس بنور الإيمان، ولينير المجتمع بنور الصلاح والعدل، الذي تتبناه أمة الشهادة «الأمة الوسط» والتي قال فيها القرآن **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**(١٦).

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾(١٧).

فكانت شهادة الرسول على المسلمين، إذ جعل منهم أمة حرَّة مقتدرة بعقيدتها وقيمها ودينها، تخوض كل تجارب مواجهة الصعاب والمخاطر لتصنع استقلالها.. وهو الذي أقام فيهم حكم الحق والعدل، وعلمهم كيف يحكمون به **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**(١٨).

ثم دفع بهم لينشروا هذه الرسالة بين الأمم وكان هو الشاهد عليهم فيما يقومون به.. لينطلقوا بعد ذلك حاملين هذه الرسالة مقارعين الظلم أينما

وجد، ساعين لبسط الحق والعدل في كل مكان يتحملون كل أذىً في سبيل الله، وإعلاء كلمته.

وما نصرة المظلومين، إلا سبيل الله سبحانه **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾**(١٩).

وعليه، فإن دور الأمة المسلمة لا يقتصر على المسلمين وحدهم، بل هو يشمل نصرة المستضعفين في العالم.. ومن هنا نفهم كيف رسم الإمام الخميني لنهج الاقتدار هدفاً عالمياً هو الدفاع عن كل المستضعفين... وكيف دعا لتشكيل جبهة المستضعفين في العالم... معتبراً أن منطق التوحيد يفضي إلى مثل هذا الدور وهذه الوظيفة ومن ركيزة أصل التوحيد وما يلزم عنه من مقصد الحرية المقدسة « على الإنسان أن يثور على هذه القيود والسلاسل المقيِّدة، وأن يثور أيضاً على الذين يدعونه للاستسلام للأسر..

وأن يسعى لتحرير نفسه ومجتمعه ليكون الجميع عباداً لله وحده. ومن هذا المبدأ تنشأ مقرراتنا الاجتماعية ضد القوى المستبدة والاستعمارية.. ومن هذا المبدأ نستلهم المساواة بين جميع بني البشر أمام الله».

وليصح هذا المبدأ في حياة الإنسان فلا بد له أن يكون حراً، ليكون متحرراً من كل ما سوى الله.. بل إننا لو راجعنا ما قاله المحللون اللغويون لمعنى الحرية لألفناهم يذهبون للقول إنها تعني الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللؤم..

والخلوص هو حالة من التطهر والتصفية الفكرية والنفسية يخلص بها المرء من أي قيد ورباط إكراهي يُسقط هويته الإنسانية ومعناها.. وما الرق إلا الصورة الحسية التي تظهر واقع طرف مُسْتَعبدٍ يتسلط على طرفٍ آخر هو المُسْتَعبَدِ بمنطق ومسلك ربوبي فوقي، ليفعل فيه ما يشاء ويعبث به هتكاً لحرماته وإفساداً لكيانه..

أما الصورة من طرف ثانٍ فهي تُظهر وجه الإنسان الذي حُرِم إرادة وجوده العزيز وعيشه الكريم وحقه ببناء مستقبلٍ طموحٍ. وذلك إما بفعل المولد وما يحفّه من واقع معيشي مقهور بالفقر، والموقع الاجتماعي والطبقي، أو بفعل ما

تستلزمه الأحداث من مجريات الحروب والعلاقة العنفية بين الأمم والجماعات...

وتحتضن الصورة الحسية بعداً معنوياً يشكل طبيعة العلاقة بين القاهر والمقهور والتي عنوانها «الرق» وهي في مآلاتها تساوي بين الاثنين بعبودية تتمظهر عند الطرف القاهر بانحراف نفسي ضاغط، يُنَمِّط قراراته ورؤيته بحيث يُفقده كل منابت الوعي الإنساني، ليصبح عبداً لجهله وهواه ورغباته الجامحة..

كما أنها تظهر عند المقهور بسلبه إرادة التحدي وحب الحياة. هذا ومن الممكن لنا مقايسة أو مماثلة الحال في الصورة الحسية. على الحالات ا لمعنوية سواءً منها الفكرية أم النفسية...

فإن القيود هنا تتحول إلى عمىً في الانقياد لما عليه السالف من الآباء، والتراث، والتقاليد والأعراف الناظمة...

بحيث يصبح الانتماء بديلاً عن القرار والرؤية،.. والتقليد مجرد متابعة عمياء تفتقد كل موازين القراءة والتقييم النقدي وهو الأمر الذي يؤسس بالمقابل لفورات غاضبة تتساق نحو الرفض لمجرد الرفض، فتلعن ما سبق لأنه ماضٍ، وتعبث بالضمير والحاضر والمستقبل بغضبة لا تبقي ولا تذر...

ولعلَّ ما عليه الاتجاهات المتنازعة اليوم في إطار الموقف من الدين والقراءات الدينية، بل والسلوك الديني في نظرته للحياة والنظم السياسية والاجتماعية، يقع تحت تأثير هذه الأحوال.. فمن التقليدية الدينية التي وصلت حد التسلف تحت عناوين السلفية والإحياء المحافظ على قداسة الحرف والمعنى الحرفي الذي جرَّ إلى اختزال الحقيقة، وحصر الخلاص في الذات بما هي مجرد ماضٍ.. كما جرَّ إلى اختزال حق الحياة فيه وحده ليمنعها عن كل من سواه فيبيح المال والدم والعرض..

إلى أصحاب النزوع الرافض للدين تحت عناوين الحداثة وما بعدها والعصرنة والتجديد الخالي من أي تقعيد أو ثابت يركن إليه كمنطلق

للمستقبل. مما أسَّس لفوضوية وفلسفات عبثية وعدمية...

وفي ظني أن ذلك كله ناجم عن فقدان معنى الحرية بما هي إرادة نقد ومسؤولية إعمار للإنسان والكون عبر اكتشاف ما فيهما من ذخائر وأسرار تابعة لمركزية أصل التوحيد، على الطريقة التي قدمها الإمام الخميني-قده-...

وقد سعت القراءة الإسلامية لتركيز معنى الخلوص كنافذة خلاص للحرية التي فطر الله الخلائق عليها، مسنداً إياها إلى قاعدة الاستخلاف.. ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٢٠].. وقاعدة الاستخلاف وإن شابهها البعض بقاعدة «الإنسان على صورة الله» عند المسيحية إلا أن القراءة الإسلامية تمايز بين القاعدتين على أساسٍ جوهري إذ تعتبر أن «صورة الله» تؤول عند أصحابها لأن يأخذ الإنسان موقع الشريك لله في رسم النظم الحياتية والاجتماعية والسياسية، بل والدينية الشعائرية التي تفضي لوضع معتقدات نابعة من دخالةٍ بشرية، احتاجت معها المؤسسة اللاهوتية لحصرها بتأويل لاهوتي أسمته بتجسدات الروح القدس، وحصرية تفسيرية لا تسمح لغير المؤسسة الكنسية الرسمية بإقرارها...

بينما الاستخلاف يوازن بين أمرين:

الأول: اعتماد الأصول الناظمة للعبادة الطقوسية والحياتية من مصدرها الإلهي الذي يمثل النموذج الإرشادي للاجتهاد الإسلامي بمعناه الواسع، مع كل ما يقتضيه ذلك من إبداع مسؤول وحرية متوازنة في النقد والتقييم والاستكمال..

الثاني: فتح منافذ العقل والروح على المعنى المفتوح لأسرار الوجود والحياة والسنن الكامنة والمتولدة من العلاقة بين عناصر الطبيعة بعضها ببعض، والجماعات الإنسانية المتآلفة والمتخالفة، وبين الإنسان والطبيعة، وأولاً وأخيراً الذي هو مع مصدر الوجود والحياة والمخلوقات بكل عناوينها ومستلزماتها العلمية والفكرية والإنسانية.

وتشترط قاعدة الاستخلاف، مبدأ التوازن والاعتدال في حركة الحرية

كسبيل لحل عقد الرق المادي والعبودية المعنوية. وإذا كان من الصحيح أن هذا التوازن لا يتم إلا بوصول الإنسان إلى درجة الخلوص لله سبحانه، متخلصاً من كل ما سواه ليتخذ قراراته بإرادة حرة فيما يعي وما يسلك...

فإن من الصحيح أيضاً أن هذا الاستخلاف لا يتم إلا بالانخراط التام في كل مقتضيات الحياة ومساراتها ليتكيّف مع الضرورات حينما يقتضي الأمر التكيّف، وليُغيِّر المسارات حينما يكون المطلوب رسم وجوه مسارات جديدة وفاعلة لهيئة وجوه العلاقة الحياتية، دون أن يعني هذا التغيير فتح القدرة على إرادة السطوة، اذ كل مآل الأمر لله ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ (٢١)... فالتسخير هو الإذن الإلهي بتصرف الإنسان ليتحرك بحريته في الارتقاء بالوجود... وأيُّ عبث بهذه الغاية هو عبث بأصل المبدأ وبأصل الحق إذ جميع ما في السماوات والأرض منه وإليه سبحانه..

حتى ذات الإنسان لا يؤذن للإنسان أن يلقي بها في عهدة أيٍّ كان لأنها ضمن موارد ما هو مستخلفٌ عليه. فعليه أن يحررها من كل ما يضيرها وما ينحرف بها لتكون ذاتاً عزيزة، وهنا الجهاد الأكبر. أو بمعنى آخر التحرير الأكبر لنيل الحرية الأسمى...

والعلاقة مع الناس ينبغي أن تحرر من ضير خناق المنطق الطوائفي والعشائري والمذهبي، فلا نرى الناس إلا على مسافة واحدة من حقهم في العيش والاعتقاد والتظلل بفيء الحق والحرية ﴿**تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**﴾.(٢٢)

فلا يصح أن نقع فريسة عبودية الرغبة باستعباد الآخر كما لا يصح أن نوقع ذاتنا الجمعية فريسة العبودية له.. وهنا يكمن منطق المقاومة الحرة ونهج الاقتدار التي هي عين الجهاد من أجل خلاص الحياة من كل تبعية للغابر من القناعات إن كانت ظلامية، وللعاتي من أهل الغزو والوصاية القاهرة لمملكة الحرية وإنسانها المسؤول..

بهذا النحو من العيش الحر، يمكن أن نفكر في جسر العلاقة بين الذات والدين والمذهب لنخرج، المذهب من المذهب فيكون مذهب الدين الذي يلتزم كل خصوصية، شرط استكمالها بأفق الدين المفتوح على الذي لا تحده الحدود ...

والعلاقة بين الأديان لنخرج الأديان نحو الدين الحق.. والعلاقة مع الأمم بحسب إرادة التغيير الحرة التي جعلها الله فينا، لا بحسب مخاوف المهزوم وهواجس المأزوم والدين، كما الوطن، كما الإنسان يستحق نعمة الحرية الممنوحة من الله، وشكر النعمة الإلهية لا يكون باللسان وحده، بل بأن يكون الحال والواقع حراً ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢٢]...

وذلك عبر التزام أفق التوحيد المفتوح على الحياة، لتكون كل الحياة بتفاصيلها مبنية على قيم التوحيد، وقواعد ولاءاته لله ورسوله والذين آمنوا.. كما أسس التشريع والقوانين والنظم والمقاصد والأهداف التي تريد أن تجعل من الإنسان الفرد، والمجتمع العام على صورة الإنسان الذي أراده الله حقاً حاملاً لأمانة الحرية، والاستخلاف، واعتمار الأرض...

وهذا يعد أهم ركيزة مبدئية لنهج الاقتدار الذي سعى لرسمه الإمام الخميني (قده) ولتحكيمه في مسار الحياة..

والذي قطع به الإمام الخميني (قده) دابر الفتنة التي كانت تقول بفصل الدين عن السياسة، ثم بفصل الدين عن الحياة الدنيا.. فالإمام (قده) لم يكتفِ بإعادة السياسة والحياة إلى الدين فقط، .. بل إنه جعل العقائد الإسلامية بأهم ركن فيها وهو التوحيد سبباً لفهم الحياة وللعيش الكريم الذي يؤمّن ويوفرّ إقامة العدل والاستقرار النفسي والقانوني والاقتصادي والسياسي.. وهذه الخطوة لم تؤثر فقط في الاتجاه العلماني، بل إنها أثرت حتى في الكثير من الاتجاهات الإسلامية الملتزمة التي كانت تفصل عن غير قصد بين ما هو عقائدي وأخلاقي، وبين ما هو اجتماعي وسياسي، بحيث تعاملت مع المعطيات الخارجية لحركة الأحداث ضمن حساب الربح والخسارة المباشرة، ولم تضع للطف التدخل الإلهي في حياة الإنسان حساباته التي تؤثر في مفاصل

الأحداث، بل وفي تفاصيلها أيضاً..

لذا، فإن هذه الحركات كانت تعيش تحت وطأة ضغط الواقع عليها؛ وكانت تتأثر بإحباطات الهزيمة، مما جعل الكثير من ثقافتها وتقديراتها واقعة أيضاً تحت سطوة هذا الواقع...

أما بحسب مبدأ التوحيد كركيزة محورية لقاعدة نهج الاقتدار، فإن الإمام الخميني (قده)-، كان يقرأ الواقع بتفاصيله ويعتبره أنه من باب التداول بين الناس في حركة الزمن والأحداث، إذ يوم لك ويوم عليك لكنه لما كان الزمن كله لله وبيده سبحانه.. ولما كان الله سبحانه قد وضع السنن الحاكمة بمجرى حياة الناس بحيث ان من توفرَّ على شروط الارتباط بالله عن صدق وإخلاص وتسليم توحيدي، كان موضع عناية الله ورعايته وكان الله ناصره سواءً عبر الثبات في مواجهة الابتلاءات والخروج من هذه الدنيا إلى دار النعيم، أم بالشهادة وهي فوزٌ عظيم للأفراد الصلحاء من الناس، أم بالنصر وهو الوعد الإلهي الصادق لكل جماعة التزمت بشروط تحقيق الانتصار الإلهي المعنوية والمادية..

الحقيقة الرابعة: هذا ومن ضمن ما يلزم عن التوحيد كركيزة محورية لقاعدة نهج الاقتدار انبثاق القوانين الرابطة والمنظمة لحياة الأسرة والمجتمع والسياسة من أصل التوحيد وهذا ما قاله الإمام (قده) «إننا نعتقد أيضاً أن وضع القوانين لتطوير الحياة هو من اختصاص الباري جل وعلا»[٢٤].

وهي إلفاتةٌ تنبع من أن التعاطي مع التوحيد، إنما يكون على أساس معرفة حق الله على الإنسان وهو أمرٌ تحدث به الإمام زين العابدين (ع) في «رسالة الحقوق» إذ يقول: «فأما حق الله الأكبر فإنك تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص، جعل كل على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا، والآخرة، ويحفظ لك ما تحب»؛[٢٥] فالإخلاص في مراعاة حق الله سبحانه هو الكافي للإنسان في الدنيا والآخرة.. ومن هذا الحق الإلهي تنبع كافة الحقوق التي أوردها الإمام زين العابدين (ع) ابتداءً من حق نفس الإنسان عليه، إلى حقوق

الجوارح من اللسان، والسمع، والبصر، والرجلين، واليد، والبطن، والفرج، والإمام(ع) عند ذكره لكل من حقوق هذه الجوارح يختتم الباب بالقول: «ونستعين بالله على ذلك» أو « ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وإلى ما يماثلها من تعابير تربط حق كل جارحة بالله سبحانه وحقه على الناس.

إلى أن يأخذ بربط الأمور العبادية كالصلاة والصوم وغيرهما وحقوق المعلم والسلطان والمتعلم والرعية والأسرة بأفرادها.. والبيئة الاجتماعية من الأخوة في الدين والعبادة إلى الجيران إلى من نوالي ومن نعادي وإلى أهل الملل والأديان.. إلى ما هنالك، رابطاً كل ذلك بحق الله سبحانه المبني على أصل التوحيد والذي به تتوحد كل قوانين العلاقات والنظم والقوانين.

وبهذا المعنى فلا يعود التوحيد مجرد فكرة أو نزعة إيمانية عند الإنسان، بل هو منطلق لرسم الحياة المعنوية والاجتماعية للإنسان وهو سر نهوض المجتمع، والفاعل المؤثر في عمارة المجتمع وصلاح أمره...

الركيـزة الثـانيـة : الإرشـاد التربـوي:

إن الركيزة الثانية التي اعتمدها الإمام الخميني (قده)؛ كأساس نهضوي لقاعدة نهج الاقتدار .. والتي هي بالأساس تُسقى، وتتكامل، وتتفاعل مع الركيزة الأولى التي هي «التوحيد».

هذه الركيزة الثانية؛ هي الإرشاد التربوي؛ والذي نقصد به جماع المعتقدات والقيم المتعارف عليها، والتقنيات المشتركة بين أعضاء مجتمع بذاته... المعنية برسم الحلول الواقعية.. والتي هي مصدر مناهج بحثه(٢٦). وتأخذ أهميتها من كونها تمثل وجهة جديدة في النظر لموضوع من الموضوعات بطريقة تختلف عن السائد من الأحكام لأنها في واقع الأمر تطرح خياراً في النظرة إلى الأمور تحمل الجديَّة والجديد، الذي يبث الروح في الموضوع موضع العناية...

وبما أن الموضوع هنا - عند الإمام- (قده) هو الأمة الإسلامية وتعاملها مع دينها.. فإن التوجيه الإرشادي الجديد الذي طرحه الإمام (قده) كان في طبيعة تفاعل الأمة مع قاعدة نهج الاقتدار؛ الذي هو الإسلام؛..

وجماع أمر الإسلام في علاقته مع الأمة، إنما يُلخَّص بقول رسول الله محمد (ص) «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»(٢٧).

وهنا يُعلِّق الإمام الخميني (قده) بالقول في وصيته الخالدة «لعل جملة لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض إشارة إلى أن كل ما جرى على هذين الاثنين، بعد الوجود المقدس لرسول الله (ص) فقد جرى على الآخر.... وهجران كل منهما هجران للآخر، إلى أن يردا حتى رسول الله الحوض»(٢٨).

ثم يربط الإمام (قده) بين ما يجري من هجران لوديعتي رسول الله (ص) وما تقع فيه الأمة من مظلومية بسبب هذا الهجر «ويجب القول إن ظلم الطواغيت الذي جرى على وديعتي الرسول الأكرم (ص) قد جرى على الأمة

الإسلامية.. بل على البشرية.. والتي بدأت بعد شهادة الإمام علي (ع).. فالأنانيون والطواغيت اتخذوا القرآن وسيلة لإقامة الحكومات المضادة للقرآن.. فقد أبعدوا المفسرين الحقيقيين للقرآن والعارفين بالحقائق الذين تلقوا كل القرآن عن رسول الله (ص)، وفي الحقيقة فإنهم عملوا على تحييد القرآن بالقرآن الذي هو أكبر دستور للحياة المعنوية والمادية حتى ورود الحوض، وأبطلوا حكومة العدل الإلهي التي هي إحدى أهداف هذا الكتاب المقدس، وأسسوا الانحراف عن دين الله والكتاب، والسنة الإلهية.. ومع الأسف فإنه بواسطة الأعداء والمتآمرين والأصدقاء الجهلة، تعاملوا وكأن ليس للقرآن الكريم هذا الكتاب الذي يُبِّين المصير، أي دور إلا في المقابر، ومجالس الموتى.. وعملوا على أن يكون وسيلة تفرقة واختلاف.. وقد رأينا كيف أنه إذا تلفظ أحدٌ بشيء عن الحكومة الإسلامية وتحدث عن السياسة التي هي المهمة الكبرى للإسلام والرسول الأعظم (ص) والقرآن والسنة مشحونان بها فكأنه ارتكب أكبر المعاصي... وكيف أصبحت كلمة شيخ سياسي مرادفة لكلمة شيخ بلا دين»[٢٩].

فالمشكلة حسب الإمام (قده) أن الطواغيت تصرفوا بمخزون الاقتدار الكامل للأمة؛ والذي يتمثل بالقرآن الكريم، وعلماء القرآن من الأئمة الذين تلقوا معارفهم عن النبي (ص).. فسعوا لتوجيه علاقة الأمة مع القرآن بطريقة تبعدهم عن أهدافه ومقاصده، إذ جعلوا منه مسوِّغاً لحكمهم الظالم؛ وقصروا دوره على المناسبات الشكلية؛ بل اتخذوه مبرراً لتفسيرات فرَّقت بين أبناء الأمة؛ ثم إنهم أبعدوا العارفين بحقائق القرآن عن موقع التأثير بشؤون الحياة والسياسة والمجتمع، ليضمنوا بذلك إخراج غايات ومقاصد وتوجيهات القرآن على أن تكون هي الحاكمة .. حتى بات الذي يريد أن يعمل بسنة القرآن والنبي(ص) والأئمة؛ . فيتصدى للواقع، ولمشكلات الحياة وكأنه خصمٌ للقرآن،.. وهكذا فقد صوروا المعروف منكراً، والمنكر معروفاً..

وعليه، فإن نقد الإمام لهذا النموذج السلبي للتعامل مع القرآن؛. دفعه للبحث عن نموذج تربوي إرشادي يتوافق ونهج الاقتدار الإسلامي.. إذ رأى في القرآن الكريم أنه «الكتاب الذي تنزل من مقام الاحدية الشامخ، إلى الكشف التام المحمدي (ص).. لترشيد العالمين، ونقطة جمع كل المسلمين، بل العائلة البشرية. ليوصلها إلى حيث يجب أن تصل، ويحرر الإنسان من شر الشياطين والطواغيت، ويحقق العدل والقسط في العالم، ويودع الحكومة بأيدي الأولياء المعصومين(ع) الأولين والآخرين ليأمروهم بكل ما فيه صلاح البشرية»[٣٠].

فدور القرآن ورسالته ترشيد العالمين، وجمع الأمة من المسلمين، بل أمة الناس من أهل الصلاح في كل العائلة البشرية..

وهذه نظرة إرشادية توسع أفق نظرة المسلم لتصل إلى أوسع مدىً إنساني في مواجهته للحياة البشرية..

وهذه المهمة إنما تريد التحرير.. وإحقاق القسط والعدل.. وإيصال قيادة حكم العالم لقائد عالمي هو المعصوم والذي يتمثل في نهج الاقتدار الذي آمن به الإمام (قده) بالحجة الموعود المنتظر (عج).

وهذا يعني أن التوجيه في الإرشاد يتجاوز الماضي والحاضر، وإن كان يحافظ عليهما، ليطل على المستقبل فتكون مهمة النهوض والتحرر مبنية على نظرة لأفق مستقبلي كوني يوحِّد القيم والحقوق والناظم الجامع للإنسان..

ومن خصائص تعاليم ومواصفات القرآن كمصدر لركيزة الإرشاد التربوي أنه، وبحسب الإمام الخميني (قده):

١. كتاب هداية، وهادٍ سلوك الإنسانية، ومربٍّ للنفوس وشافٍ الأمراض القلبية، ومنير طريق السير إلى الله[٣١].

٢. أنه كتاب الدعوة إلى الحق والسعادة[٣٢].

٣. وأنه يرشد إلى كيفية السير والسلوك إلى الله. وهذا المطلب منقسم إلى شعبتين مهمتين: إحداهما: التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيها التقوى عن غير الحق، والإعراض المطلق عمَّا سوى الله.. وثانيهما: الإيمان بتمام المراتب

والشؤون المندرج فيه الإقبال إلى الحق، والرجوع والإنابة إلى ذاته المقدسة[٣٣].

٤. وفيه قصص الأنبياء والأولياء والحكماء وكيفية تربية الحق إياهم، وتربيتهم الخلق[٣٤].

٥. كما فيه بيان أحوال الكفار والجاحدين والمخالفين للحق والحقيقة والمعاندين للأنبياء والأولياء (ع).. وبيان كيفية عاقبة أمورهم وكيفية بوارهم، وهلاكهم كقضايا فرعون وقارون ونمرود وشدَّاد وأصحاب الفيل وغيرهم... وداخل في هذه القسمة أو أنها قسمة مستقلة قضايا غزوات رسول الله(ص)، فإن فيها مطالب شريفة، منها كيفية مجاهدات أصحاب رسول الله(ص) لإيقاظ المسلمين من نوم الغفلة وبعثهم للمجاهدة في سبيل الله وتنفيذ كلمة الحق وإماتة الباطل[٣٥].

وهناك جملة من المقاصد التي يسترشد بها الإمام (قده) من القرآن الكريم ومن سيرة النبي(ص) والأئمة الأطهار(ع) مما لا يتسع هذا المقام لذكره بالتفصيل.. إلا أنه يستحق العمل لإبرازه من تضاعيف كلمات وأبحاث الإمام (قده) وتقديمه ضمن مباحث ركيزة الإرشاد التربوي لقاعدة نهج الاقتدار...

إلا أني هنا أرى من اللازم أن أشير أن البحث في هذا الارتكاز الإرشادي التربوي يقتضي منا العلمية والجرأة في البحث، لا أن نتحول إلى مجرد مداحين، أو ناقدين سلبيين. إن الاستفادة من مباحث وتجربة الإمام (قده) تقتضي الموضوعية والجدية في بحث نهجه وأفكاره (قده) وما هذه الإشارة إلا لأننا اعتدنا البحث في فكر الإمام - قده- عبر مراجعة نصوصه أو تجربته بطريقة تتناول الموضوع، وكأن البحث يتعلق بعالم من المثاليات التي نرغبها وتستهوينا فتنزع إليها بشعور من الرضا عن ذاك النزوع، وبذرائعية نلجأ إليها لنبرر انكفاءنا عن السير على الخطى التفصيلية لأفكار وإرشادات الإمام الخميني (قده) ..

وهي ذرائعية تقول أن سمو مثاليات الإمام (قده) أكبر وأطهر من أن نقدر عليها.. علماً أن مفاد هذه النظرة، الحكم على تلك الرؤية بالسلبية والفراغ.. لأن نظام القيم السامي ما لم يتموضع في نظام قيمي تداولي يخضع للمعايشة والتجربة فلن يكون إلا نظاماً فاقداً للمعنى والحيوية..

وبالتالي، فعدم مقاربة المنهج التربوي الإرشادي عند الإمام الخميني(قده) من خلال كونه أطروحة تنفذ إلى تفصيل الواقع بكل مجرياته المحاطة بظروف الزمان والمكان والعيّنة والضرورات، وإلى ما هنالك.. هو بواقع الأمر إقصاء لذاك المنهج، أو إن شئت فقل النهج.. وكلما تباعد الزمن بيننا وبين الفترة الزمنية لقيادة الإمام الخميني (قده) المباشرة، فإن خشيتنا ستزداد من أن ندفن الإمام الراحل كمثال تتفتق عنده الأريحيات السائحة في عوالم تبتعد عن الواقع..

مكوّنات النهج التربوي: أقول هذا، وكلي يقين أن الحائل عن الوقوع بمثل هذه المباعدة عن التأسي بنهج الإمام كان ولا يزال ثلة صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. وعلى رأسهم قائد الأمة وإمامها الخامنئي (حفظه المولى) ..

هذا ومن قلب هذا الافتراض.. أود الإشارة إلى أن أي منهج تربوي، إنما يُبنى على جملة من القيم التي تنقسم إلى مكونات النمو والتطور في الشخصية، وهذه المجالات هي:

المكوّن المعرفي: الذي يمثل حركة العقل فيما يختار من أفكار وقناعات وتصورات ومفاهيم ورؤى.

المكوّن السلوكي: ويتعلق بتطوير الخبرات والأداء والالتزامات العملية لحركته وتواصله مع الحياة وأبناء الحياة.

المكوّن المعنوي: وهو ما يرتبط بالمثل الأعلى الذي يختاره الإنسان، وهذا المثال إن كان سامياً، فإنه يعطي المكوّن المعرفي قيماً سامية، وإن كان متدنياً، فإنه بلا شك سينحط في قيمة معارفنا.. بل إنه وبحسب هذا المثال المحدد من المكوّن المعنوي، ستختلف صيغ ومضامين برامجنا وحركتنا السلوكية إن لجهة

تشخيص المشكلات، أو لجهة كيفية المعالجة التي نلتزمها في حلولنا ومقترحاتنا..

ثم، وبتأثير من هذه المكوّنات القيمية الثلاث، سواءً أكانت متحققة بأبعادها الثلاث، أم ببعدين منها.. فإن الاتجاه الذي تتشكل الشخصية وفقه، ستتكون أنماط فعل أو فاعلية العملية التربوية بين التوازن أو اللاتوازن، وبين الاستقامة أو اللااستقامة.. وبين الاستقرار أو القلق..

لأن الاتجاه إنما يشير إلى الطريقة التي نعبِّر فيها عن مشاعرنا تجاه ما يحيط بنا من أفكار وأشخاص وأشياء وقيم.. ويؤثِّر في طبيعة ردات فعلنا تجاه الأحداث والقضايا.

ثم من المفيد الإشارة إلى أن القيم تمثِّل في العملية التربوية غايات نقصدها، بينما تمثِّل الاتجاهات الطرق والوسائل التي نعتمدها للوصول إلى تحقيق تلك الغايات.

وعلى ضوء ذلك، فإن الخطوات المنهجية لحركة الاتجاه، تبدأ من الاختيار، ثم التفضيل، فالمشاركة، فالدعوة العملية والتضحية في سبيل ما اخترناه..

ومضمون كل واحد من هذه الخطوات قابلٌ للمراقبة والتطوير والتعديل، مع مراعاة أن المؤثِّرات في تلك المضامين تأتينا من الأسرة، والمدرسة، والأقران، والمؤسسات، والوسائل الإعلامية، والانطباعات التي يمليها علينا المحيط أو الدولة، أو القيادة، أو غير ذلك..

- ملامح النهج التربوي في إرشادات الإمام الخميني (قده) :

لدراسة ملامح النهج التربوي عند الإمام (قده) لا بدّ من الانطلاق من جملة أمور:

أولاً: لقد مارس الإمام الخميني (قده) دوره كمرشد ديني في توجيهاته التربوية.. وحينما نقول «الديني» هنا؛ فإنما نقصد الإسلام كهادٍ للحياة الدنيا بأفقها المفتوح على الآخرة.. وكموجّه للجماعة كخط موصول بالأمة..

ثانياً: التفريق بين التوجيهات التي تحمل طابع رسم وتأكيد القيم العليا،

والاتجاهات المطلوبة، وبين الخطوات التفصيلية لتحقيق تلك القيم والاتجاهات . ذلك أن تلك الأخيرة تقع على عاتق المعنيين المباشرين والمتخصصين العلميين، وليست وظيفة المرشد والموجه.. مع التأكيد على أن التفاصيل هي عبارة عن أمور يجري تحديدها وفاقاً للقيم العليا وهي هنا تلك التي أوضحها الإمام (قده) باعتبارها مقاصد القرآن والرسول(ص) والأئمة(ع).. وهي تخضع للمراقبة والنقد على ضوء معايير تلك القيم.. وأي تحييد لمعيارية القيم إنما يعدّ خروجاً عن نهج القيم..

ثالثاً: لقد حملت توجيهات الإمام (قده) أبعاداً ناظرةً للواقع من أفق المعنويات القرآنية والعرفانية ، وتجربة التأسي بآل العصمة ، والغائيات المستخرجة من روح الشريعة.

وبالتالي، فالحكم على صوابية الخطوات التفصيلية لا يعود إلى مرجعيات غير إسلامية.. بل هو عائد لمستوى توافقها مع تلك الآفاق . فبغير النظر إلى المعنويات كأصل حاضر في الموضوعات التفصيلية، فإننا سنكون أمام إقصاء ؟ ولو غير متعمَّد- لتلك التوجيهات والقيم.

وهذا يعني أن علينا الشروع بتحديد معايير الحكم على برامجنا، وإجراء مراجعات نقدية لها من نفس النهج الإرشادي الذي رسمته الغايات الدينية..

وهنا نفترض أن هذه المراجعة، قد تفضي أحياناً إلى مراجعة لنفس تطور تلك القيم والمعايير، أو تأويلها بما يوجد نحواً من الانسجام بين مثالياتها وراهنية الواقع. إذ قد يصح السؤال عن مدى خصوصية تلك القيم لإيجاد برامج في ظل قيام مجتمع ناشيء على قاعدة الثورة ومواجهة الحرب.. وهي هي باقية حتى في ظل ظروف الاستقرار الأمني والمجتمعي ، وفي ظروف ومقتضيات عمليات التنمية..

بل قد يصح القول والاستفسار عن مدى علاقة القيم والبرامج التربوية بخصوصيات مجتمعية لناظم سياسي كذاك الناظم الموجود في إيران، وبين ناظم سياسي قائم على حكم غير إسلامي لمجتمع متعدد المذاهب والطوائف والأيديولوجيات والمشارب، كالمجتمع اللبناني؟ وذلك كله يعني أن النهج

الإرشادي وظيفته رسم اتجاه تربوي.. تبنى على أساسه البرامج والاحتياجات التفصيلية.

وهنا أسمح لنفسي الخروج من دائرة الافتراضات والأسئلة.. للقول: إن المنتج للغايات والقيم العليا ينقسم إلى قسمين:

أولهما: ينبع من النص أو التجربة المقدَّسة والمعصومة.

ثانيهما: مستخرج من الاجتهاد في النص والتجربة المعصومة وحركية ضرورات الواقع..

والأول منهما، هو الأصل الثابت. أما الثاني فهو المنبع للتداولية المنهجية القابلة للتبدل كفرع متصل وموصول مع الأصل.. وبالتالي، فعلى كل معنيٍّ بالهم الإسلامي، أن يعمل على اجتهادات تكشف عن اجتهاد في الخصوصية، مع التركيز على ثوابت النهج الذي قدَّمه الإمام الراحل (قده).

بعد هذا، فلننتقل إلى كلام الإمام الخميني- قده ؟ في أبعاد القيم ومجالات الاتجاهات التربوية.

ويبرز أمامنا في الموقف الأولي للإمام (قده) من النتاج الدولي المعاصر.. إذ يقول: «إن مظاهر التمدن في المناطق الأخرى والدول المتقدمة، والتي تتم الاستفادة منها بشكل صحيح، عندما جاءت إلى بلادنا أو البلدان المشابهة لبلادنا، فإنه لم يتم الاستفادة منها بشكل صحيح، بل استفادة فاسدة»[٣٦].

فهنا حكم على نموذج محدد من التجارب بالصحة والفساد، فما هو مرجع هذا الحكم بالصحة تارة والفساد أخرى..؟

يقول الإمام (قده) في تشخيص الأمر في البلاد الإسلامية: «جميع البرامج التي وضعوها سواء الثقافية أو الفنية وغير ذلك كانت استعمارية، وأرادوا جعل شبابنا كوسائل بأيديهم لتحقيق منافعهم الخاصة، وليس من أجل منفعة البلاد»[٣٧].

فالمشكلة ليست في أصل الثقافة والفن، بل في مضامين البرامج والتوظيفات الموضوعة لهما.. والتي شكلت اتجاهاً في بناء الشخصيات، يقوم على أساس التبعية والالتحاق بالأجنبي والعمل على غير منفعة المجتمع والبلاد الإسلامية..

وذلك كان حسب الإمام «بتدمير جميع القوى التي من المحتمل أن تقف بوجه الأجانب والأسياد والأفكار التي من المحتمل أن تقف بوجه أفكارهم.. إن أكبر ضربة أصابت بلادنا هي تدمير القوة الإنسانية، فمنعوها من النمو والتكامل»(٣٨).

لقد تم حقن الواقع ببرامج وقيم تدميرية للقوى الإنسانية والفكرية، ولإرادات النمو والتكامل، وذلك عبر الخوف وعدم الثقة بالذات، عبر قيم ثقافية استعمارية إذ «الثقافة هي أساس الشعب، وأساس قومية الشعب، وأساس استقلال الشعب. لهذا حاولوا أن يجعلوا من ثقافتنا استعمارية، حاولوا أن لا يوجد الإنسان.. وخططوا للتعليم بشكل لا يحدث أي نمو علمي وإنساني. لقد خوّفونا من خلال دعاياتهم، فأصبحنا نخاف من أنفسنا، ولا نعتمد على أنفسنا» (٣٩).

فالمشكلة تتمحور حسب الإمام بأصلين:

القيم الإنسانية، والبرامج التعليمية.

أما بخصوص القيم الإنسانية، فإنها هدف النهج والشرعة الدينية «إن ما نادى به الأنبياء هو الإنسان ولا شيء غيره. يجب أن يكون كل شيء على شكل إنسان. إنهم يريدون بناء الإنسان وسوف يصلح كل شيء حينما يتم إصلاح الإنسان»(٤٠).

لكن عن أي إنسان يتحدث الإمام (قده)؟

إن محور الحركة الغربية تقوم على مركزية الإنسان. وهو عندهم البديل عن الله بعد أن أعلنوا موت الإله.. وأقاموا سيادة النزعة الإنسانية للسيطرة على كل القيم.. مع ملاحظة انقطاعه عن كل سلطة فوقه.. إلا أنه والحق يقال أن هذه النزعة أودت لصنع الإنسان القادر والفارض للسطوة والجبروت، والذي عمل على السيطرة على الطبيعة..

فما كان منه إلا أن صار قدراً يسير بجبرية قضاء عالم الأشياء، حتى باتت معاييره القيمية تستمد قوتها من الأشياء عينها في المهارات التعليمية والسياسية والنفسية وغيرها..

فأي إنسان هو هذا الذي ينادي به الأنبياء حسب الإمام (قده)! هنا يضع الإمام الغايات والمثل الأعلى لتوضيح الفارق بين إنسان الدين والأنبياء وإنسان المادة والدنيا..

فغاية الأنموذج النبوي «يعمل الإنسان فيها لله ، ويحيا لله ، ويموت لله أيضاً»[٤١].

«فإنسان الأنبياء لا تحكمه الأشياء بل هو الذي يحاكمها على أساسٍ من نظام الشريعة والأخلاق الدينية.. ولو وجد إنسان واحد، فقد يهدي شعباً بأكمله» [٤٢].

فهدف مثل هذا النموذج ليس تعليبه ضمن برامجنا، وليس وضعه تحت سيطرة رقابتنا، بل دفعه للحياة بكل صراعاتها وهواجسها.. إذ هدف هكذا نموذج، إنسان قيادي قادرٌ على هداية شعب بأكمله فضلاً عن قدرته على الثبات بصراع شعبٍ بأكمله..

ولتكوين مثل هذه الشخصية، فلا بدَّ من رعاية جملة من المكونات القيمية.. والتي تعتمد عند الإمام على أبعاد وقيم معنوية حاكمة على المكونات التعليمية والكفاءات المهارتية..

وأول تلك القيم، هي التوكل على الله ولو أودى الأمر للاستشهاد، إذ يقول (قده): «إن انتصارنا وانتصار شعبنا في نهضته كان بسبب التوكل على الله. فقد حصل تغيير في شعبنا لم يسبق له مثيل،وهذا التغيير هو أنهم اعتبروا الشهادة فوزاً كبيرا»[٤٣].

فمثل هذا التوكل حوَّل الثقة بالنفس بحيث لم تعد تعرف الهزيمة، إذ حتى القتل في سبيل القضية هو نصرٌ عنوانه الشهادة.. وهذا تغيير في أصل القيم الثقافية في مسار حركة الشعوب.

ومقتضى هكذا فهم لقيم النصر والتوكل، الزهد القلبي بالناتج الدنيوي وهو زهدٌ فردي لا زهدٌ على مستوى طموح الأمة..

«فما عليكم إلا أن تعوِّدوا أنفسكم على الحياة البسيطة، وتجنبوا من ارتباط قلوبكم بالمال والجاه والمقام»[٤٤].

وعليه، فلا يصح اعتماد برامج توجه السلوك نحو اختيار حلول للمشكلات قائمة على أساس أن الترفه والتملك والمكانة السياسية والتنظيمية والإدارية هي الأصل في حل المشكلات بل هي مقتضيات تعوز الحل العملي..

ولقد تنبه الإمام (قده) إلى أن البعض قد يضعف أمام مثل هذه التوجيهات.. فدفع بطرح قيمة معرفية عليا لرفع ذاك الضعف، وهذه القيمة هي اليقين، إذ يقول (قده): «اليقين بالقوة سيجعلكم أقوياء، فالأصل هو هذا اليقين الذي سلبوه منا... فلو تحررت أفكاركم ووُجد عندكم اليقين بأنكم قادرون على الصناعة والتصنيع لأصبحتم كذلك،.. لو كانت أفكاركم ويقينكم بأنكم قادرون على الاستقلال وعدم الارتباط بالغير لأمكنكم ذلك»[٤٥].

فالنمو والكفاءة المهنية والحرفية يمكن معالجتها باليقين المولِّد للإرادة والعزم على تحقيق الإنجازات الكبرى..

لأن «يقين الإنسان هو أساس جميع الأمور»[٤٦]، عند الإمام الخميني (قده).

واليقين بإنسانية الإنسان يحتاج في جانب النهج التربوي إلى مكوّنات أدائية ومهارتية، وهي التي أطلق الإسلام عليها اسم الجهاد..

و«الجهاد من أجل البناء (بناء الإنسان لنفسه) مقدَّم على جميع أنواع الجهاد. وهذا الجهاد هو الذي عبَّر عنه الرسول بالجهاد الأكبر»[٤٧]. فينبغي أن نرسي قاعدة تربوية لقيمة في الأداء اسمها الجهاد..

فدور المعلم جهاد، ودورالأب والأم جهاد، ودور السياسي جهاد، ودور التقني جهاد، ودور العالم والمفكّر والفنان جهاد. هذا ومن باب أولى أن عمل المقاوم والمحازب المسلم والإداري هو جهاد..

شرط أن يقوم لله وأن يستهدف بناء الإنسان والأمة والحياة، على أساس برامج وخطط موصولة، أو نابعة من معايير القيم الإسلامية العليا..

بل يمكننا الذهاب مع الإمام الخميني (قده) إلى ما هو أبلغ من ذلك، إذ إنه وصل لاعتبار كل عمل عبادي وسيلة جهادية لبناء هدف إلهي، طالما أن المستهدف هو الإنسان..

«كافة العبادات والأدعية هي وسيلة لإظهار «لباب» الإنسان وتحويل ما لديه

بالقوة ـ وهو لب الإنسان ـ إلى دائرة الفعل وبذلك يصبح الإنسان بالقوة إنساناً بالفعل يصبح الإنسان الطبيعي إنساناً إلهيا بحيث تكون كافة أبعاده إلهية فكل ما يراه هو الحق.ولأجل هذه الغاية كانت بعثة الأنبياء، فهم لم يأتوا للحكومة بذاتها ولا لإدارة وتسيير الأمور الدنيوية فللحيوانات أيضاً دنيا يسيرون شؤونها»[٤٨]. فحركة الجهاد إنما تهدف لبناء الحياة القائمة عند الإنسان بمحضر من الثقة بالله سبحانه ورقابته.

وبالتالي، فإن تركيز البرامج التربوية والخطط العملية على نحوٍ من القيم التعليمية الصرفة أو المهارتية الصرفة، ستصرفنا عن الهدف.

وإن الركون لمتطلبات الحياة بإيجاد ترشيد في البرامج قائم على أساس الأرقام والحلول المباشرة، سيوقع المستهدف بالعملية التربوية؛ الإنسان؛ بانفصام بين ما نعظه به، من واقع القيومية الدينية ومواقع المقتضيات الحياتية . وكأن الله خارج إطار الحياة.. (والعياذ بالله). بل إن الشعور بالإحباط أمام المشكلات المتولدة من بيئتنا والتي يمكن أن تقع على الناشئة أو الجيل الذي نعمل عليه..

واللجوء إلى إجراءات ذات خصوصية بالغة الرقابة منا، ومبالغة في تضخيم الحيثيات وترك العنان لحلول إجرائية بحتة قد يبني لدينا جيلاً من الضعفاء غير القادرين على مواجهة الابتلاءات؛ لأن كثيراً من تلك المواقف قد تشكل مراسيل تربوية، تنفذ إلى عمق النفوس التابعة وغير القادرة على الثقة المباشرة بالله وبالذات، وبالتالي، فقد نخسر بناء قادة المستقبل الذي عناهم الأنبياء وتحدث عنهم الإمام الراحل (قده).

إذ اعتبر التربية من أهم وأخطر الوظائف والأدوار التي بحسبها سيكون الجيل الذي سيمسك بمقدَّرات المجتمع والبلاد..

وعليه فكل عمل أو مؤسسة تبنى إذا فقدت بعدها التربوي، فإنها ستفقد مضمونها وسبب قيامها..

«فالإسلام يؤكد على التخصص والعلم ، ولكن بشرط أن يكون ذلك التخصص والعلم في خدمة الشعب وفي خدمة مصالح المسلمين»[٤٩].

فالمدارس والجامعات والأحزاب والحكومات والأسرة والجمعيات الأهلية والمدنية والمراكز والمعاهد، كلها ينبغي أن تكون في سياق هذا الهدف التربوي..

لهذا، يطلق الإمام(قده) وصية ينظر من خلالها إلى أن للواقع مشاكله وأسئلته وحيثياته.. وهي تحتاج في معالجتها إلى رؤية، والرؤية ينبغي أن تكون اجتهادية وأن تستند في اجتهادها إلى حصن حصين، والحصن عند الإمام(قده) هو القرآن الكريم باعتباره المبدأ لكل اتجاه يحمل قيماً سامية إسلامية إنسانية.

فيقول (قده):

«إنني أوصي جميع الناس، وجميع المسلمين، وجميع العرب، أنه لو أرادوا التغلب على مشاكلهم ، فإنه يجب عليهم أن يتربوا تربية إسلامية . يجب التحرك وفق المنهج الإسلامي، وأن يكون القرآن موجههم، وهادياً لهم وإماماً لهم، ولو حصل هذا لأمكنهم التغلب على جميع المشاكل. وبخلاف ذلك لو أرادوا العمل بموجب الموازين العادية والموازين السياسية وأمثال ذلك فإن الغلبة ستكون للحكومات دوما»[٥٠].

فإلى كل الذين يرسمون البرامج والخطط، ويضعون المناهج والتصورات، ويراعون الدقة في ضبطها وتبويبها، وهو أمرٌ محمود يشكرون عليه، عليهم أن ينظروا إلى أفق تلك البرامج والخطط والمناهج المعنوية والقيمية، وإلى دورها ومراسيلها التي تشكل اتجاهات في شخصية المتلقين، ولو بنفس المستوى من العناية في ضبط الشكليات والجدوى المباشرة..

برامج موارد الاقتدار في ركيزة الإرشاد التربوي:

لم يترك الإمام (قده) فكرة الإرشاد التربوي، دون البحث لها عن موارد عملية تحرك أهدافها النهضوية، بل عمل ومن قلب الأصول الإسلامية وفروعها العبادية، وحصونها وأماكنها وأزمنتها أن يوجه نحو الاستفادة والتأمل والتدبر بما يحقق هذه الاستفادة العظيمة للمشروع الإرشادي لنهج الاقتدار... أو فكرة أو قول؛ فمن ذلك أن الإمام (قده) توجه إلى ما قبل اي فعل يؤديه الإنسان..

توجه إلى نيته ليبدأ منها عملية الإصلاح والتوجيه إذ «النية عبارة عن التصميم، والعزم على إتيان شيء، وإجماع النفس على إتيانه بعد تصوُّره، والتصديق بفائدته، والحكم بلزوم إتيانه، وهو حالة نفسانية ووجدانية تكون بعد هذه الامور.. ونعبّر عنها بالهمة والعزم والإرادة والقصد، وهي موجودة في جميع الأمور الاختيارية ولا يمكن تخلف فعل إرادي عنها»(٥١).

وإذا كانت النية هي التصميم، والعزم، والحكم بعد التصور والتصديق، والهمة، والإرادة، والقصد، فليكن كل ذلك متحرراً من أي قيد وتبعية لظلم النفس، أو الناس، أو الحكام، أو العادات والثقافات الفاسدة، .. فإن من الواجب ربطها بالله برابط الإخلاص.. إذ «من مهمات آداب النية وهو في نفس الوقت من مهمات جميع العبادات؛ ومن المقررات الكلية الشاملة: الإخلاص؛ وحقيقته تصفية العمل من شائبة سوى الله، وتصفية السر عن رؤية غير الحق تعالى، في جميع الأعمال الصورية (الظاهرة المحسوسة) واللبية؛ والظاهرة الباطنية، وكمال الإخلاص ترك الغير مطلقاً»(٥٢).

وهكذا يصبح الخيار والتوجه الإرشادي مرتبطاً في خيارات الإنسان وإرادته وهمته، وهذا العزم المخلص كما يكون في العبادات من مثل الصلاة، لتكون الصلاة هي الصلة بالله سبحانه وتجديد عهد العبودية له، ونفي أي شريك أو ولي.. فإنها تكون أيضاً بالحكم في الأرض والقضاء بين الناس، والجهاد في سبيل الله...

ومن هذه الأمثلة العبادية نذكر الحج الذي هو سفر إلى الله «اعلموا أن سفر الحج، ليس سفر كسب أو تحصيل دنيا؛ بل هو سفرٌ إلى الله، ولا بد لكم وأنتم تتجهون إلى بيت الله الحرام، أو تؤدون كل أعمالكم بصورة إلهية، أن سفركم هذا وفودٌ على الله، سفرٌ إلى الله تبارك وتعالى؛ لذا لا بد لكم من الاقتداء بالأنبياء العظام (ع) والأئمة الأطهار (ع) الذين كانوا في سفر دائم إلى الله في كل أدوار حياتهم، ولم يتخلفوا خطوة واحدة عن السير إلى الله»(٥٣).

فالملاحظ هنا ربط العبادة بالمقصد «الله» سبحانه، ثم تقديم أسوةً قيادية «الأنبياء» لكيفية تحصيل المطلوب من الحج بحيث تصبح حياة الإنسان على شاكلة حياة الأنبياء...

ليربط الأمر بعد ذلك بنتائج الحياة الرسالية «أن الأبعاد المعنوية للحج كثيرة.. فإذا ما تحقق هذا البعد العرفاني والمعنوي للإنسان، وتحققت التلبية المقرونة بنداء الحق تعالى، فسينتصر في جميع الميادين السياسية، والاجتماعية والثقافية وحتى العسكرية وأن مثل هذا الإنسان لا يعرف معنىً للهزيمة»[٥٤].

ثم يأخذ الإمام (قده) من الحج أهم رمزٍ فيه وهو المسجد الحرام، ليُلفِت إلى دوره أيام النبي (ص)، ودور كل مسجد من خلاله فيقول: «كان المسجد الحرام، والمساجد في زمن الرسول الاكرم (ص) مركزاً للشؤون السياسية والاجتماعية والعسكرية منها ينطلقون إلى الحرب. لم يكن مسجد النبي (ص) محصوراً بالصلاة والصيام والمسائل العبادية، بل إن معظم النشاط الذي كان يمارس في المسجد، كان نشاطاً سياسياً، ففي كل مرة كانت القوات تنطلق من المسجد للحرب، كما كانت تعبئة الناس تتم في المسجد، وكل شيء كان ينطلق من المسجد»[٥٥].

وهكذا، فإنه يريد لكل مسجد من مساجد العالم الإسلامي أن يكون دوره على غرار الدور الذي كان لمسجد النبي (ص)، وذلك ليجعل منه قاعدةً وبقعة انطلاق عبادي لتحقيق الهدف التربوي القائم بإقامة نهج الاقتدار...

محرمٌ وعاشوراء: ومن موارد هذه الركيزة إحياء شهر محرم وشعائر عاشوراء.. اذ يقول (قده): «ها قد جاء شهر محرم وعليكم إحياءه، فكل ما لدينا هو من محرم، ومن هذه المجالس»[٥٦].

«إن هذا الثواب المخصَّص للبكاء ومجالس العزاء، إنما تضيء علاوة على الناحية العبادية والمعنوية، على الأبعاد السياسية فهناك مغزىً سياسي لهذه المجالس»[٥٧].

ثم وسَّع الإمام مفهوم الإرشاد التربوي ليجعل من العمل الصالح أهم عبادة

من العبادات وذلك حينما يعتبر قائلاً: «لا أظن ان هناك عبادة أفضل من خدمة المحرومين»[٥٨].

«واختر في خدمة عباد الله ما هو الأكثر نفعاً لهم، وليس ما هو الأنفع لك ولأصدقائك، فمثل هذا الاختيار هو علامة الإخلاص لله عز وجل»[٥٩].

ومن هذه الموارد التي أكد عليها مجموعة واسعة من المؤسسات والقواعد كالحوزات، والمدارس والجامعات ومراكز الأبحاث والحركات وغيرها التي يمكن ان تأخذ صفة الخدمة لله وإرساء العدل في الحياة.

ما يعنينا إذاً، هو أن الإمام (قده) عمل على إيجاد وجهةٍ تربويةٍ لكل مفاصل الإسلام وجماعة المسلمين ومراكزهم وولاءاتهم التقليدية الأسرية والاجتماعية. ليحرّك فيها طاقة الاقتدار، يربطها بالهدف الإلهي؛ والمعنوية الإلهية؛ فيجعل منها حركة دؤوبة تبني العدالة وتهزم الظلم. وهو بمثل هذه الوجهة انعطف بكل معالم الحياة الإسلامية ليرسي فيها نهجاً فاعلاً، وباعثاً مقتدراً على المواجهة والتغيير...

الركيزة الثالثة: العرفان العبادي- السياسي

شكّل العرفان، كمنطلق لرؤية العالم وفهم الحق والوجود، وكسير وسلوك يتجه فيه المرء نحو الله سبحانه «مبدأ الوجود ومنتهاه»؛ ركيزة أساسية لقاعدة نهج الاقتدار (الإسلام) عند الإمام. فالعرفان عنده (قده)، ليس مجرّد نظريات، أو إرشادات، بل هو سلوك معنوي وحياتي يعيشه العارف في عمله وعقله وقلبه وروحه وسرّه.. وهو حسب الإمام الرؤية والفهم الذي يجمع مقاصد القرآن والسنّة المطهرة، ليوحّد بعدها مقاصد الفقه والشريعة، والأخلاق والطريقة، وعلم الكلام والفلسفة والحكمة والحقيقة. فيبني أساساً معنوياً لها، يربط فيه بين الجوانب النظرية والممارسة العملية، بحيث إننا لنتفهّم مقصود الإمام (قده) مثلاً من ولاية الفقيه وشروطه، وكونه وكيلاً عاماً للإمام الحجة(عج) في عصر غيبته، لا بدَّ أن نفهم المرجعية النظرية للإنسان الكامل في العرفان الإسلامي، وهكذا فإن للتربية النفسية المقتدرة على مواجهة الباطل والطغيان وتصاريف الزمان، دوراً وموقعاً خاصاً للعرفان فيها .. كما أن للعرفان وفهم الحضور الإلهي بين الناس دوراً حسّاساً في إيمان الإمام (قده) بخدمة الناس ونصرة كل مظلوم...

ففي الوقت الذي خلط فيه بعض الناس مثلاً بين العرفان والتصوّف؛ من دون أن يراعوا أن في التصوّف أموراً خاصة من مثل: تشكيل الجماعات الصوفية التي تنتهج سنناً وتقاليد خاصة بها.. فإن الإمام (قده) رفض أي لون من ألوان الانجرار نحو هذه الجماعت الصوفية، والتي قد تتحول في كثير من الأحيان إلى حركات أشبه ما تكون بالتحازب بين الجماعات التي تدّعي امتلاك الإيمان فتنفيه عن غيرها.. بل إنها جماعات يصل بها الحال إلى تقديم أفكار مغالية تشوّه المعتقدات، وتنسب لنفسها أموراً خطيرة من مثل أنهم يتصلون وبشكلٍ مفتوح مع النبي (ص)، أو مع أحد الأئمة (ع) أو أنهم باب الإمام الحجة (عج)..

فالإمام (قده) لم يكن يرى أن من حق أي جماعة أن تنغلق على نفسها، بل إن على هذه الجماعات الصوفية أو شبه الصوفية؛ أن تلتزم خط جماعة المسلمين فتتبنّى قضاياهم، وتدافع عن حقوقهم، وتواجه عدوهم، وبدل أن تتلهّى بذكر الكرامات وبعض الأعمال، فإن عليها أن تنشر بين الناس حب الولاء لقائم آل محمد (عج)، وتمهيد الأرض والعالم لمجيئه المبارك (عج)..

أما العرفان التقليدي الذي اشتغل فيه الكثيرون، فرغم احترام الإمام (قده) له في الجوانب النظرية والفكرية الجديدة التي قدَّمها. إلا أنه (قده) اعتبر أن «الانشغال بالعلوم حتى العرفان والتوحيد، إذا كان لاكتناز المصطلحات - كما هو حاصل- أو لأجل نفس تلك العلوم، فإنه لا يقرِّب السالك من الهدف، بل يبعده عنه: العلم هو الحجاب الأكبر»[٦٠]، بل هو يزيد من ثقل التبعات في تربية النفس، خاصة إذا استخدمه الإنسان لغير وجه الله سبحانه.. أما إذا كان الدافع لتحصيل العلم، دافعاً إلهياً فإنه (قده) ينصح بالقول: «إذا عرضت (شيئاً من العلم) فليكن لله ولتربية عباده، لا للرياء والتظاهر»[٦١].

فالأصل عند الإمام (قده) هو الدافع نحو العمل، ونحو العلم؛ لأن «هذه العلوم - بذاتها هي - معبرٌ نحو الهدف، وليست هي الهدف بحد ذاتها، فكما أن الدنيا مزرعة الآخرة، فإن العلوم المتعارفة مزرعةٌ للوصول إلى المقصود»[٦٢].

ثم إن في العرفان التقليدي مشكلة أخرى سببتها اشتباهات وقع فيها بعض العاملين في العرفان منها:

١- لمّا كان العرفان هو ذوق العارف وشهوده، وبالتالي فمعرفة العارف هي حجةٌ عليه لا على غيره.. اعتقد صاحب العرفان التقليدي أن تأثير العرفان إنما يحصل على مستوى الفرد - فقط -، وهو الفرد العارف، وبالتالي فإن بقية الناس لا تأثير للعرفان عليهم؛ لأن استعداداتهم وتجربتهم لا تسمح لهم بمثل هذه البركات العرفانية .. وغالباً ما اتخذ مثل هؤلاء الناس طريق العزلة والابتعاد عن الناس، بل والنظر إليهم أحياناً بازدراء، وحول هذا النمط من

العرفاء يقول الإمام (قده): «إن العارف الذي ينظر من خلال عرفانه إلى الناس جميعاً بعين الازدراء هو متكبّر، أو أن يقول عنهم بأنهم قشريون وسطحيون. (إن مثل هذا العارف) ترى أنه لا يملك شيئاً من المعارف الإلهية سوى حفنة من المفاهيم التي لا تعدو جميعاً من أن تكون حجباً تغطي الحقائق، أو مطبات في الطريق، ومجموعة من المصطلحات ذات البريق الخادع مما لا علاقة لها بالمعارف الإلهية، وبعيدة كل البعد عن معرفة الله وعن العلم بأسمائه وصفاته. إن المعرفة صفة القلب.. وهذا ما يجعله ينظر إلى عباد الله، وأصحاب أبواب الحق، ومظاهر جمال المحبوب، نظرة تحقير وازدراء»[٦٣].

فالإمام (قده) رأى في الناس عباداً لله، وأصحاباً لأبواب الحق، ومظاهر لجمال المحبوب.. ومن كانوا كذلك فهم حتماً من أهل الأهلية واللياقة ليكونوا لا كأفراد متفرّقين فقط، بل كجماعات وكأمّة مورداً لصدق الارتباط العرفاني بالحق سبحانه..

٢- ومن المشكلات التي وقعت لبعض أهل العرفان هي الشطح والادعاءات الباطلة، والتي أساءت تقديم التوحيد بطريقة تنسجم مع القرآن الكريم والنبي (ص) والآل (ع).. بحيث إن بعضهم عبَّر عن نفسه بقناعات معيّنة، أو عبَّر عن إيمانه ببعض العظماء بطريقة تشي بانحراف في الفهم والإيمان التوحيدي.. وهؤلاء هم الذين أسماهم المرحوم الشيخ محمد تقي الجعفري[٦٤] في بعض أبحاثه بأصحاب العرفان السلبي.. وذهب (رحمه الله) إلى أن قافلة العرفان السلبي تطوي السبل، وتبحث هنا وهناك.. إلا أنها تقنع في نهاية المطاف بأن تركن إلى لذّات نفسية خاصة بها.. من مثل تحصيل معلومات غير طبيعية، أو القيام بأعمال غير عادية.. وهؤلاء لا يعلمون أن كل ذلك لا علاقة له بالعرفان.. والشر المستطير في هؤلاء أنهم يضلون بمثل هذه المعلومات والأعمال بعض الناس.. وفي هؤلاء السلبيين من المحسوبين على العرفاء ينقل (رحمه الله) رأي الإمام (قده) فيهم: «إن هناك في أصحاب الارتياض والسلوك الشخصي، أناساً تركت رياضتهم، واشتغالهم بتصفية النفس قلوبهم أكثر كدراً،

وبواطنهم أشد ظلمة، وذلك لأن هؤلاء لم يلتزموا بمقتضيات السلوك المعنوي إلى الله. والهجرة إليه وتلوث سلوكهم العملي والارتياضي بتصرف الشيطان والنفس فكان عملهم في سبيلهما»[٦٥].

الملفت هنا في كلام الإمام (قده) تعبيره عن هؤلاء بأصحاب الارتياض والسلوك الشخصي.. وكأن في ذلك إشارة إلى أن أي ارتياض وسلوك لا يكون بمقتضى أحكام وقيم الإسلام والشريعة، وبتوجيه من أهل الله فإنه سيوصل إلى النتائج السلبية، وبالتالي فإن معيار صدق العرفان أو عدم صدقه وصحته هو بمدى التزامه بنهج رسول الله محمد (ص).. وأن أصحاب الدعاوى بالكرامات الشخصية إنما يعبدون أنفسهم، ويدعون الناس إلى غير الله سبحانه..

٣- ومن المشكلات التي وقع فيها بعض أهل العرفان أنهم فصلوا بين الدين والعقيدة، وبين السياسة والتصدي للشأن الاجتماعي العام.. إذ اعتبروا أن في التصدي للسياسة وأمور الناس ما ينافي العدالة والمروءة.. وهذا ما أبدى الإمام (قده) استغرابه الشديد منه، إذ «وصل بنا الأمر إلى حد أن البعض منا يعتبر لباس الحرس والقتال منافياً للمروءة والعدالة، في حين كان أئمتنا يلبسون للحرب لامتها، ويأخذون للقتال آلته، وكانوا يخوضون غمار الحرب، وكان أمير المؤمنين (ع) يرتدي لباس الحرب ويحمل سيفاً له حمائل، وهكذا كان الإمام الحسن (ع) وهكذا كان الإمام الحسين (ع).. ولو سنحت الفرص لجرى على ذلك الإمام محمد الباقر (ع) ومن بعده.. فكيف يكون ارتداء زي الحرب منافياً للعدالة الاجتماعية والمروءة؟!»[٦٦].

وهذه العقلية المنزوية التي ناقشها الإمام لم تكن لدى بعض العرفاء فقط، بل هي أيضاً كانت لدى غيرهم من بعض العلماء.. حتى أن بعضهم اعتبر أن عليه الاقتداء بعبد المطلب حينما قال: للبيت ربٌّ يحميه.. وأن علينا الدعاء لرفع البلاء فقط..

منابع العرفان المقتدر عند الإمام الخميني (قد):

يعيد الإمام الخميني (قده) مصادر العرفان الإسلامي وسلوكياته وأخلاقياته العملية إلى الإسلام نفسه، وإلى الفطرة الإنسانية الصافية... وهو عرفان يرى الوجود نعمة من الله تقتضي الشكر والعناية بها.. «نحن مفطورون على عشق الكمال المطلق (الله)؛ ومن هذا العشق - شئنا أم أبينا - ينشأ العشق لمطلق الكمال (كل الموجودات والمخلوقات) الذي هو من آثار الكمال المطلق، والأمر الملازم لفطرتنا هذه هو السعي للخلاص من النقص المطلق، وتلازمه الرغبة في الخلاص من مطلق النقص أيضاً»[٦٧].

فعشقنا لله سبحانه هو سر عشقنا للخير الإلهي المودع في أصل كل مخلوق وموجود.. وكل مخلوق وموجود إنما يتجه بحسب فطرته نحو الله سبحانه، وهو يريد أن ينفض عنه الشر، بل وكل سلوك للشر من المعصية إلى الظلم والطغيان وانتهاك حقوق العالم والطبيعة والناس. وبالتالي، فإن هذا النزوع نحو الخير هو الفطرة العرفانية الموجودة لدى كل إنسان والتي يحتجب عنها الإنسان أحياناً بأعمال وبمظلمات وموبقات يرتكبها.. وإحراز هذه الحقيقة يحتاج إلى «المجاهدة والتفكر والتلقين»[٦٨]. كما ويحتاج الأمر منا العودة إلى منابع الإسلام ومنها:

أ- القرآن الكريم: اعتبر الإمام (قده) أن القرآن الكريم يشتمل على الحقائق العرفانية، التي لم تصل إليها أفهام العالمين، قبل نزول القرآن.. وبالتالي، فما استخرجه العرفاء من القرآن يعدُّ من الكنوز التي تثير دفائن العقول، وتحرّك الفطرة في نزوعها نحو الكمال، وتبعث في النفس، كما تبعث في حياة المجتمعات الإنسانية روح النهوض والاقتدار والتغيير الذي يخرج الأمم من ظلمات الجهل والظلم، إلى نور المعرفة والعدالة الإلهية.. «ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على حقائق ومعارف لم تكن معروفة من قبل في العالم أجمع، فضلاً عن المحيط الذي نزل فيه. وأن من أعظم وأسمى معاجزه هي هذه المسائل العرفانية العظيمة التي لم تكن معروفة عند فلاسفة اليونان.. وحتى أن

فلاسفة الإسلام الذين ترعرعوا في مهد القرآن الكريم، وانتهلوا منه ما انتهلوا من مختلف المعارف، لجأوا إلى تأويلات في بعض آياته.. والحال أن عرفاء الإسلام العظام إنما أخذوا ما قالوه منه، فكل شيء أخذوه من الإسلام، ومن القرآن»(٦٩).

وهكذا فإن الإمام (قده) يذهب لاعتبار أن العرفان الإسلامي الموجود في كتاب الله العزيز، كان أبعد منالاً من أن تصل إليه فلسفات يونانية وهندية وغيرها.. بل إن بعض حقائق هذا العرفان لم تصل إلى معرفته فلسفة علماء تربّوا في بيئة الإسلام والقرآن، لأنهم اعتمدوا العقل البرهاني للتعرّف إلى تلك الأمور، وأعطوا بعض المسائل العرفانية تفسيرات لا تنسجم مع حقيقتها.. أما الذين كانوا مؤهلين لمثل هذه الحقائق القرآنية، فهم أهل العرفان أنفسهم.. إذ كل المسائل المطروحة لديهم إنما صدرت عن إيمانهم العرفاني بالقرآن، ومن هنا جاءت قدرتهم على فهم معانيه، واقتدارهم على إيصال تلك المعاني لغيرهم.. لكن الإمام (قده) لاحظ رغم ذلك أن هؤلاء العرفاء لم ينتبهوا إلى الكثير من الحقائق القرآنية العرفانية..

ومنها أن العرفان لا يصح أن يقتصر على جماعات خاصة من الناس، بل حقائق القرآن هي لنفع كل الناس.. وهؤلاء العرفاء «حينما تعرّضوا لتفسير القرآن فسَّروا أغلب الآيات بالمعاني العرفانية والفلسفية – الخاصة – .. وغفلوا كلياً عن الحياة الدنيا، وما هو مطلوب لها، وعن التربية الواجب تحقيقها فيها»(٧٠). وبسبب إغفالهم عن مثل هذه الأمور فقد عزلوا تأثير العرفان عن الناس وعن شؤون مجتمعات الدنيا وسياساتها .. وهذا فيه خطر العزلة العرفانية التي لا يرتضيها الإمام الراحل (قده)؛ لأن الإمام رأى في القرآن حياة القلوب في هذه الدنيا، التي هي مزرعة الآخرة.. وأن أحياء الأبدان في هذه الدنيا، هم الذين خاطبهم الله في كتابه العزيز ليبعث فيهم الحياة الطيبة، وهي الحياة الخالدة برحمة الله سبحانه.. فمن هنا كان القرآن يشير إلى أن الهدف العبادي والحياتي هو: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧١].

فعرفان القرآن يجعل من العبادة وشعائرها، كما يجعل من الموت والحياة كلها لله رب العالمين، مصدراً وموئلاً..

ويقول سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٧٢].. فعرفان القرآن يقرن العمل بالإيمان بهدف الحصول على حياة طيبة، هي حياة الروح في معنوية قربها من الله، وحياة الناس في أنعم إقامة العدل في أرض الله. ثم يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٧٣]. فالاستجابة لرسول الله(ص) تكون بإقامة الدين والصلاة والعدل؛ كما أن الاستجابة له تكون برفع الظلم وخدمة الناس وإعمار الأرض. وهذه الاستجابة هي حياة روح العارف، وهي دائرة حركة العرفان القرآني الذي أسَّس الإمام (قده) لفهمه على مقتضى نهج الاقتدار.

ب- الاهتداء والتأسّي بالحقيقة المحمدية للنبي (ص) والآل (ع):

لقد شكّلت الحقيقة المحمدية عند عارف كالإمام الخميني (قده) منبع استرشاد لهداية روحية وعت الوجود بكل مدارجه ومراتبه كمظهر وتجلٍ لعظمة الله وقدرته سبحانه.. ووعت الناس والعباد كمظاهر للطف الله سبحانه.. وأن كل هذه الموجودات هي آيات تشير إلى عظيم قدرة الله سبحانه. والإمام (قده) حينما يتحدّث عن الرسول (ص) وآله (ع) باعتبارهم مستودع الحقيقة المحمدية، فإنه يتحدث عنهم كأولياء يسترشد ويتأسى بهم كل عارف بالولاية، عليه فإنه (قده) يقول: «وإنها لمعجزة الرسول الأكرم (ص)، إذ كان على معرفة بمبدأ الوحي، بحيث يكشف له أسرار الوجود. وكان هو بدوره (ص) يرى الحقائق بوضوح ودون أي حجاب. وذلك بعروجه وارتقائه قمة كمال الإنسانية. وفي ذات الوقت كان حاضراً في جميع أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود، فمثَّل بذلك مظهر لـ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[٧٤].. كما سعى إلى رفع جميع الناس للوصول إلى تلك المرتبة.. وكان يتحمّل الآلام والمعاناة حينما كان

يراهم عاجزين عن بلوغ ذلك.. إن الذين بلغوا هذا المقام أو ما يماثله، لا يختارون العزلة عن الحق أو الانزواء، فهم مأمورون بإرشاد وهداية الضالين إلى هذه التجليات»[٧٥].

فالمثال الأعلى للعارف هو رسول الله (ص)، الذي: عرف الوحي حق معرفته.. وعرف حقائق الوجود دون أي مانع عن معرفتها.. وكان في كمال إنسانيته يهتم بكل شأن من شؤون الإنسانية.. وبمثل هذا الاقتداء بالرسول سعى الإمام لنهضة الاقتدار من أجل هداية الناس والحياة..

والعارف الذي لا يكدح ليكون على شاكلة هذا المثال المحمدي الأعلى والأسمى.. لا يمكن أن يكون عرفانه عرفاناً إسلامياً محمدياً.. فالعارف الحق، هو الموحِّد لله حق توحيده، وهو الذي يراعي حقوق الناس بالهداية، بل ويعمل على هدايتهم، وهو الذي لا تأسره الدنيا لتبعده عن الله وذكره، بل يندفع ليجعل من الدنيا أرضاً يُطاع الله فيها، وينعم فيها عباد الله بخيرات ربهم سبحانه.. إذ «إن ما هو مذموم، وأساس منشأ جميع ألوان الشقاء والعذاب والمهالك، ورأس جميع الخطايا والذنوب إنما هو حب الدنيا الناشئ من حب النفس، إن عالم المُلك - أي الدنيا - ليس مذموماً في حدٍّ ذاته. فهو مظهر الحق ومقام ربوبيته تعالى، ومهبط ملائكته، ومسجد ومكان تربية الأنبياء والأولياء (ع) ومعبد الصلحاء، وموطن تجلي الحق على قلوب عشّاق المحبوب الحقيقي، فإن كان حب عالم الملك ناشئاً عن حب الله؛ باعتباره مظهراً له جلّ وعلا؛ فهو أمر مطلوب ويستوجب الكمال. أما إذا كان منشؤه حب النفس، فهو رأس الخطايا جميعاً»[٧٦].

بمثل هذه النظرة الإيجابية للدنيا اقتدى الإمام (قده) برواية لأمير المؤمنين (ع) وردت بنهج البلاغة وفرَّقت بين الدنيا المذمومة، والدنيا المحمودة التي علينا أن ندافع عن أهلها وأن ننشر فيها لواء التوحيد، ولو ببذل الدماء والمهج.. لأنها دنيا الناس الذين واجه لأجلهم إبراهيم النمرود، وانتفض موسى بوجه فرعون، وأقام فيها رسول الله (ص) دولة الحق التي قدَّم الأئمة (ع) كل

ما عندهم لحفظها وجهّزوا التاريخ للحظة خروج قائمهم بالحق وناشر لواء الاستقامة والعدل في الأرض.. المهدي المنتظر (عج).. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه سلوك العارف بالله في أرض الله سبحانه؛ حسب نهج الاقتدار، الذي آمن به الإمام الراحل (قده).

ج- التأدُّب بلطائف معاني الأدعية والزيارات الواردة عن الأئمة:

إن الأدعية الواردة عن الأئمة الأطهار (ع) هي ينبوع معارف العرفان الإسلامي الأصيل.. ومضامينها هي حقائق المقاصد القرآنية، لذا أسميت بـ«القرآن الصاعد».. ومن هنا عدَّها الإمام «من أعظم النعم على العباد، والرحمة الواسعة في البلاد فهي من خزائن الوحي والشريعة وحملة العلم والحكمة، ولأنها الرابطة المعنوية بين الخالق والمخلوق، والحبل المتصل بين العاشق والمعشوق، والوسيلة للدخول في حصنه الحصين، والتمسّك بالعروة الوثقى والحبل المتين»(٧٧).

وشرط الاستفادة العارفة من هذه الأدعية أن لا يرى الإنسان مصدراً للغنى سوى الله سبحانه وذلك بالتمسّك بحقيقة قوله سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾**(٧٨) ليحفظ مقام العبودية ويخلص لله وحده..

وليرى أن المخلوقين مهما علو واستعلوا فهم في أنفسهم لا حول لهم ولا قوة.. إذ القدرة الحقيقية هي لله وحده.. والطغاة هم الذين يعملون دوماً لضرب هذه الحقيقة ومحوها من نفوس عباد الله.. والدعاء هو الكلام الذي يبرز حقيقة أن الأمر كله لله سبحانه.. وليصير الكلام حقيقة حال أهل الدعاء فعليهم أن يكونوا من أهل الرشد، وأن يكون الدعاء هو حقيقة حالهم وكيانهم..

فالله هو العزيز «اللهم إني أسألك من عزتك بأعزّها، وكل عزتك عزيزة، اللهم إني أسألك بعزتك كلها»(٧٩).

«والعزيز هو الغالب وهو القوي»(٨٠).

والله هو صاحب المشيئة النافذة.. والله هو صاحب القدرة «اللهم إني أسألك من قدرتك بالقدرة التي استطلت بها على كل شيء، وكل قدرتك

مستطيلة، اللهم إني أسألك بقدرتك كلها»[٨١]. والقدرة زلها الحيطة التامة.. بحيث إنها وسعت كل شيء وقهرت كل شيء.. والاستطالة هي سعة القدرة وبسط السلطنة عليها[٨٢].

ومن تجلّت هذه الحقيقة على قلبه كان مقتدراً بقدرة الله، ومن كان كذلك فهو لا يعرف الهزيمة.. لأنه حينها يكون قد حقق النصر العرفاني بمراحله الأنفسية «وإذا انتصرنا في هذه المرحلة من السير العرفاني. فإن موتنا نصر، كما أن حياتنا نصر أيضاً.. فإذا انتصرتم في هذه المرحلة فلا تخشوا الهزائم لأنها ليست هزائم»[٨٣].

بمثل هذا الفهم، وهذه الروحية العرفانية السائحة في حقائق الوجود، والبانية لمصالح العباد.. اتجه نهج الاقتدار في ركيزته العرفانية الخمينية ليُحدث تحولاً في الحركة المعنوية.. وليربي الأمّة بعد الإمام (قده) على السير في طريق هذا النهج.. وهذا ما تحصّل اليوم بقيادة الإمام الخامنئي (حفظه الله) الذي يعمل لرسم تفاصيل حركة العرفان القائم على نهج الاقتدار، كما أسسه الإمام(قده).

وكخلاصة لما أسلفنا من الكلام حول ركيزة العرفان الإسلامي نؤكد على أمرين:

الأمر الأول: إن التصوّف يختلف عن العرفان في كونه يسعى لتنظيم علاقة بين الشيخ والمريدين ضمن نظام طرائقي خاص، يميّز الجماعة الصوفية عمّا عداها.. ومن هنا يمكن لنا القول: إن تشكّل أي جماعة خاصة، ولو تحت عنوان العرفان هو بحقيقة الأمر توجه صوفي.. لأن العرفان وإن كان فيه الأستاذ المربّي والمعلّم، إلا أنه يسعى لدفع الجماعة نحو الالتزام العام الذي يجمع كل مسلم بإخاء مع الآخر ضمن التكاليف الشرعية الفقهية؛ وفي الوقت الذي يسعى فيه للإشراف على تهذيب نفوس المتأثرين به.. ثم عونهم على بذل الجهد، وصفاء الروح للارتباط والتقرّب من الله سبحانه.. وكل ما يدخل تحت عناوين الموضوعات والمسائل العرفانية العلمية؛ إنما هو من باب التفسير الذهني لهذه

الإشراقات والشهودات العرفانية.. إلا أن الكثير ممن تأثروا بالإدراك العرفاني ونزعته وصلوا إلى أن يكونوا أفراداً منفصلين عن شؤون الناس وعاشوا العزلة إلا عن بعض الخواص..

والإمام (قده) في الوقت الذي لم يقبل صيغة الدراويش من الصوفيين وتوجّه نحو الأمّة؛ باعتبارها جماعة الحق والمعرفة التي ينبغي توجيهها نحو الإخلاص والصفاء وعرفان نهج الاقتدار.. بل إن عرفان الإمام (قده) جعله بفتح قلبه إلى كل مستضعف مسلم وغير مسلم، ليعتبر أن حديث «من سمع منادياً ينادي يا للمسلمين فلم يُجبه فليس بمسلم» لا يختص بغوث المسلمين فقط، بل هو يشمل ضرورة غوث ونصرة كل إنسان..

فإن عرفان الإمام (قده) لم يقبل أيضاً بصيغة العزلة عن الناس التي اشتغل بها بعض العرفاء.. بل دعا للتصدّي لحمل همومهم التي اعتبرها أساساً من أعظم العبادات.

ولا نقصد هنا بالعزلة المرفوضة؛ أن يجد الإنسان وقتاً ينفرد فيه مع نفسه لعبادات وأذكار وارتياضات مخصوصة؛ إذ المعروف أن الإمام (قده).. كان ينفرد أيام وليالي شهر رمضان المبارك لتأدية مثل تلك الطاعات.. لأن هكذا عزلة تشحن النفس والإرادة بالقدرة على التصدي لكل مصاعب الحياة وابتلاءاتها بثقة بالله لا تعرف الهزيمة مطلقاً، هي التي يوافق عليها الإمام بل ويدعو لها كأصل لإقامة الدين.

أما عزلة الانكفاء والزهد السلبي فهي المرفوضة.. وهنا ينقل السيد نصر الله نصاً للإمام الخميني (قد) «لم يكن الحال أن علماءنا طوال التاريخ كانوا منعزلين عن السياسة، لقد تخيلت مجموعة كبيرة، أن العرفان عبارة عن أن يجلس المرء في مكان، ويقول ذكراً بحركة أو رقصة، أهذا هو معنى العرفان؟ لقد كان لدى الإمام علي (ع) تلك المرتبة الأعلى من العرفان، ولم يكن شيء من كل هذا في عمله.. لقد كان أمير المؤمنين (ع) أعرف خلق الله تعالى، ومع ذلك لم يجلس جانباً.. كان موسى من أهل الذكر والسلوك، ولكنه مع ذلك

ذهب إلى فرعون وقام بتلك الأعمال، إبراهيم (ع) كذلك.. ورسول الله (ص) كلنا يعلم أن رسول الله كان في حالة السلوك لسنوات طويلة وعندما توفرت له الفرصة، أقام حكومة سياسية من أجل تحقيق العدالة»[٨٤].

هذا النص يبرز أن الإمام (قده) اتخذ الأنبياء والأئمة نموذجاً مثالياً للعارف الحقيقي، وسلوكهم هو العرفان المقتدر، وأهدافهم هي مقاصد العرفان العارف بالله. لذلك يعلّق السيد نصر الله فيقول: «إن الإمام اعتبر أن الجهاد والشهادة ثمرات العرفان الصحيح.. إن لنا أن نفترض أن قوة العرفان عند إنسان ما، يجب أن تصنع منه مجاهداً أكبر، وتدفعه لتحمل المسؤوليات الجسيمة، وتقديم التضحيات الكبرى، ومواجهة الطواغيت، ولو كان أعزل، ويجب أن تجعله أقدر على قول كلمة الحق، ولو في ظل الحراب كتعبير عن أنه لا يخشى إلا الله وحده، وتجلٍ ليقظته وعزمه وإرادته وقطعه لكل العلائق مع ما سوى الله سبحانه وتعالى»[٨٥]. ثم يروي السيد نصر الله أنه في إحدى المناسبات قدّم أحد الأخوة اللبنانيين صوراً ووصايا لبعض الاستشهاديين من شباب وفتية المقاومة الإسلامية للإمام الخميني «قده» وعندما قرأ بعض تلك الوصايا ونظر إلى صورهم قال: «هؤلاء هم أهل العرفان الحقيقيين»[٨٦].

وعلى نفس هذا المسار العرفاني الذي قدَّمه الإمام الخميني (قده) كركيزة لقاعدة نهج الاقتدار والتي استوعبها جيل المقاومة الإسلامية، ويعملون بها.. يستكمل الإمام الخامنئي (حفظه الله) المسار إذ يقول:إن بعض الشباب في الجبهات، من أبناء ١٣ إلى ٢٠ سنة استطاعوا أن يصلوا إلى مقام، ودرجة عند الله عجز الكثير من أهل السير والسلوك والعرفان من الوصول إليها بعشرات السنين، وهذا يعني أن العرفان هنا حينما تحوّل إلى ركيزة نهج الاقتدار لم يعد مجرد حالة فردية يعيشها الإنسان الفرد في وجدانه لتنحصر فيه وتنتقل معه إلى مقام القرب من الله سبحانه.. بل أن العرفان هنا صار ثقافةً عامةً للأمة الشاهدة المقتدرة، والشهيدة.. وصار وجداناً يمثّل مسار النبوة وخلافة الإنسان لربه في الحياة لتنعم به كل الأمة، بل كل الناس.. وهذا يمثّل انعطافاً حساساً

في تاريخ التجربة العرفانية التي أيقظها الإمام (قده) وأيقظ بها العالم..

الأمر الثاني: إن الإمام (قده) في دراساته وتجربته العرفانية، مازج بين المعرفة الفلسفية للعرفان والتي أنتجت كتابات له (قده) من مثل (شرح دعاء السحر)، و (سر الصلاة أو صلاة العارفين)، و(مصباح الهداية) وتعليقاته على فصوص الحكم ومصباح الأنس وغير ذلك كثير..

وبين معنويته العبادية وسلوكه الروحي؛ الذي جعل من أستاذه بعد فترة من تعليمه، يعتبر أنه يستفيد من معنوية وروحية الإمام (قده)؛ أكثر مما يستفيد الإمام، منه؛ ثم يتطور الأمر ليستخرج الإمام (قده) عرفاناً منتمياً في كل ما فيه من منطلق وسير وسلوك ووصول إلى الكشف المحمدي التام، ليوحّد فيه كل منابع المعرفة والقدرة الإسلامية، من القرآن إلى النبي (ص) فالأئمة (ع) فالعلماء، والشهداء، والأمة..

وارتبط العرفان عند الإمام بالبعد الاجتماعي والسياسي، بكل قيم الإنسانية المفطورة على الحق ومغالبة الظلم؛ واقتدار الإيمان والتسليم الذي كان عين العبودية لله سبحانه.. وهي عبودية الاقتدار التكويني الذي لا يستطيع حتى رئيس الشر في عالم الوجود «إبليس» على مواجهته **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾**(٨٧)، بل هو اقتدارٌ يُدخل اليأس في قلب كل عدو مهما كان قوياً **﴿لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ◆ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾**(٨٨).

إنه عرفان يتحمّل مسؤولية الرسالة وهموم الأمة، بتقوىً ومعرفةٍ برقابة الله وتدبيره ونصرته سبحانه.

وهكذا عرفان هائمٌ بالله سبحانه، غير خارج عن شؤون خلق الله؛ لا يصنع الجماعات المنزوية، أو التحزبات الخاصة، بل يصنع مصير الأمة.. إذ فيه كل أبعاد فهم الواقع.. والواقع هنا لا يقتصر على مقتضيات الدنيا وحدها.. بل هو واقع الحياة الممتدة من الدنيا إلى الآخرة لأن الدنيا مزرعة الآخرة؛ بل لأن علينا أن نجعل من الدنيا على شاكلة الآخرة التي نتوق إليها.. وبهكذا نظرة فإذا أردنا الدخول في الصراع، وتقييم نقاط القوة والضعف لدينا.. فينبغي أن

لا نستثني تأثير ارتباط الآخرة بالدنيا على موارد القوة والضعف عندنا.. فنبحث في عملية الإعداد كيف نعدّ العدّة والعديد؛ من السلاح والرجال؛ كما نبحث كيف نعد أنفسنا لاستحقاق لطف الله سبحانه ولنصرته بسبب الإخلاص له سبحانه والثقة به، والاعتماد عليه.. لنهيء وعن إيمان عارف مقتدر دخول الملائكة في حربنا ضد الطغاة، حينما تصبح هذه الحرب صدقاً هي «حرب الله» وعندما يكون مطمح النصر هو «نصر الله» ولنصل إلى الآية الكريمة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(٨٩).. فإذا أحسن المقاومون كيفية جعل إرادتهم لله، بحيث تستدعي الملائكة لتقاتل معهم بلطفٍ من الله، كما يقاتل الرجال منهم بلطف وتسديد من الله.. كان القتال وسوحه، مراكز ذكر وعبادة وعرفان.. إذ يُصبح اللطف الإلهي والقدرة الإلهية هي متن الواقع في نظرة العارف - حسب نهج الاقتدار عند الإمام (قده)-.

ومن مظاهر هذا الارتباط باللطف الإلهي؛ ولاية محمد (ص) وآله الأطهار (ع).. وتوثيق عهد الولاء لقائم آل محمد (ص) والذي يكون بالصبر على بلاء انتظار فرج الظهور.. والصبر هنا هو صبر اقتدار، لا صبر انكفاء وعزلة.. إنه صبر الذي يهيء الأرض لاستقبال الحجة (عج)، حتى إذا ما حقق نصراً نسبه لقدس الإمام الحجة (عج) الشريف.. وهذا ما كان يشير إليه الإمام (قده) من أن انتصار الثورة إنما هو من بركات النفس المقدّسة للإمام الحجة (عج).. فالاندفاع نحو الإمام المهدي (عج) هو العرفان.. وليس القيل والقال في الاستغراق بتفاصيل العلامات.. رغم ما للعلامات من دور هائل في تقوية الاستعداد والتهيؤ للاستحقاق الكبير، الذي علينا أن نلاقيه بقوة وتحضير وحضور فاعل..

وعليه، فإن ما أسّسه الإمام الخميني من تيار «عرفان الحياة» والذي شكّل انعطافاً في تاريخ التجربة العرفانية، أثّرت في كل تاريخ الأمة، والعالم.. هو موضوعٌ يستحق منا المعالجة التفصيلية والتخصصية له؛ هذا وإن كنا نرجو الله لنوفّق إلى إنجاز مثل هذا الأمر؛ إلا أني أريد الإشارة هنا إلى ما يعني

موضوع بحثنا؛ وهو أن العرفان المتفاعل مع فهم الإمام الخميني (قد) لركيزة أصل التوحيد وتأثيراته، ولركيزة الاتجاه التربوي الإرشادي؛ شكّل هذا العرفان المتفاعل الركيزة الثالثة، والتي كان لها أبلغ الأثر في تربية الأمة وإيقاظها للالتحاق بمشروع «نهج الاقتدار» لتتكوّن بذلك منظومة الوعي لقاعدة نهج الاقتدار وركائزه .. والتي سبّبت وعي الأمة لربها ونفسها وقدرتها على الانتصار.. والتي بأفقها ومداها الحيوي تحققت الانتصارات التاريخية في عالمنا الإسلامي والمستضعف.. وبدأت سيادة عهدٍ ثقافي يبشّر بانكفاء عهد الهزائم عن حياة أمتنا..

الهوامش:

[١] الإمام الخميني:«**الكوثر**» م.س،ج٢، ص ٧٣.

[٢] م.ن، ج٢ص٧٤.

[٣] م.ن، ج٢ص٧٣.

[٤] م.ن، ج٢ص ٥٠٠- ٥٠٣.

[٥] الحجر:٩.

[٦] م.ن، ج٢ ص٤٧٤.

[٧] الأنبياء:٩٢.

[٨] البقرة:١٤٣.

[٩] الأنصاري، حميد:«**حديث الانطلاق**» مؤسسة نشر آثار الامام الخميني(قده)، طهران، تشرين الثاني١٩٩٤، ص١٢٦.

[١٠] الإمام الخميني :«**وصايا عرفانية**» إعداد السيد عباس نور الدين، مركز بقية الله الأعظم(ع)، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص ٩٤.

[١١] الأحزاب: ٧٢.

[١٢] البقرة: ٣٠.

[١٣] فاطر:٣٩.

[١٤] البقرة: ٣١.

[١٥] ص:٢٦.

[١٦] البقرة: ١٤٣.

[١٧] الحج: ٧٨.

[١٨] الجمعة: ٢.

[١٩] آل عمران:١٤٠.

[٢٠] البقرة:٣٠.

[٢١] الجاثية:١٣.

[٢٢] آل عمران:٦٤.

[٢٣] الضحى:١١.

[٢٤] أنصاري:«**حديث الانطلاق**» م.س، ص٤٥.

[٢٥] القبانجي، علي: «**شرح رسالة الحقوق**» دار الأضواء، بيروت، ط٤، ١٩٩٩، ص١٩.

[٢٦] أنظر حسين رحال، **إشكاليات التجديد**،سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد، دار الهادي،ط١، ٢٠٠٤، ص ٣٢.

[٢٧] الشيخ الكليني:«**الكافي**» تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، قم، ط٤، ١٣٦٥،

ج٢ص٤١٥.

[٢٨] الإمام الخميني:«**الوصية الخالدة**»، الدار الإسلامية، بيروت، ص ١٠.

[٢٩] أنظر الوصية الخالدة، ص ١٣.

[٣٠] م.ن،ص١١.

[٣١] الإمام الخميني :«**الآداب المعنوية للصلاة**»، ترجمة وتعريب أحمد الفهري، مؤسسة الاعلمي، ط٢٠٠٤٢، ص ٣٢٣.

[٣٢] م.ن، نفس المعطيات.

[٣٣] م.ن، نفس المعطيات.

[٣٤] م.ن، نفس المعطيات.

[٣٥] م.ن، نفس المعطيات.

[٣٦] الإمام الخميني «**منهجية الثورة الإسلامية**» مقتطفات وآراء، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، طهران، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٧٦.

[٣٧] م.ن، نفس المعطيات.

[٣٨] م.ن. ص ١٧٨.

[٣٩] م.ن. ص ١٨٢.

[٤٠] م.ن. نفس المعطيات.

[٤١] م. ن، ص ١٨٣.

[٤٢] م.ن، نفس المعطيات.

[٤٣] م.ن. ص ١٨٩.

[٤٤] م.ن. ص ١٩٥.

[٤٥] م.س. ص ١٩٩ ٢٠٠.

[٤٦] م.ن، ص ٢٠٢.

[٤٧] م.ن، ص ٢٢٦.

[٤٨] الإمام الخميني: «**شرح البسملة**» مؤسسة نشر وتنظيم آثار الإمام الخميني،طهران، ص١٠٠

[٤٩] الإمام الخميني: «**منهجية الثورة...**» م.س، ص٢٣٨.

[٥٠] م.ن، ص١٩٢.

[٥١] الإمام الخميني «**الآداب المعنوية للصلاة**، م.»، ص٢٨٩.

[٥٢] م.ن،ص ٢٩٤.

[٥٣] مركز الإمام الخميني الثقافي: «**أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني**» جمعية المعارف الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٤، ٢٠٠٢، ص١٦.

[٥٤] م.ن، ص ٢٠.

[٥٥] م.ن، ص٢٥.

[٥٦] الإمام الخميني:«نهضة عاشوراء» خطاب الإمام (قده) في جمع من خطباء وعلماء قم وطهران وآذربيجان الشرقية والغربية بتاريخ ١٧-١٠-١٩٨٢، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني (قده) الشؤون الدولية،ص ٢٦.

[٥٧] م.ن، حديث الإمام مع علماء ووعّاظ قم وطهران بتاريخ ١٩٨٦٦٢١ ص ٨٢.

[٥٨] مركز الإمام الخميني الثقافي: «خدمة الناس في فكر الإمام الإمام الخميني» جمعية المعارف الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٤، ٢٠٠٣، ص١٣.

[٥٩] م.ن، ص٤٤.

[٦٠] الإمام الخميني: «وصايا عرفانية»،م.س، ص ١١٠.

[٦١] م.ن، ص ١١٨.

[٦٢] م.ن، ص ٣٣.

[٦٣] الإمام الخميني: «الأربعون حديثا» ترجمة محمد الغروي، دار التعارف، بيروت، ١٤١١ه، ١٩٩١م، ص٩٥.

[٦٤] ولد الشيخ الجعفري عام ١٣٤٥ هـ بمدينة تبريز في إيران. أكمل دراسته الابتدائية في مدينة تبريز، وبعد الانتهاء من دراسته التمهيدية سافر إلى العاصمة طهران لإكمال دراسته، وبقي فيها مستفيداً من دروس علمائها في شتّى العلوم الإسلامية، ثمّ ذهب إلى مدينة قم المقدّسة، وبقي فيها حوالي سنة، وفي نهاية عام ١٣٦٤ هـ سافر إلى مدينة النجف الأشرف لمواصلة دراسته، وبقي فيها اثنتي عشرة سنة ، وبالإضافة للدراسة انهمك الشيخ بالتدريس، والتحقيق، والاطلاع على الفلسفة الغربية ومدارسها. وفي عام ١٣٧٨ هـ سافر إلى مدينة قم المقدّسة ، ثمّ ذهب إلى مدينة مشهد المقدّسة ، وبعدها عاد إلى العاصمة طهران ، وبقي فيها يواصل البحث والتحقيق والتأليف في الفلسفة والعرفان والفقه حتّى آخر حياته .

[٦٥] من مؤتمر في إيران، عقد في ذكرى أربعين الإمام الخميني(قده) ص ٤٩.

[٦٦] الإمام الخميني: «الحكومة الإسلامية» دط، د.ت،١٣ ذي القعدة ١٣٨٩، ص ١٦.

[٦٧] الإمام الخميني، وصايا عرفانية، م.س، ص ٣٠ -١٣.

[٦٨] م.ن، ص٣١.

[٦٩] م.ن، ص ١٦.

[٧٠] الإمام الخميني، «الكوثر»، م.س، ج١ ، ص١٠٠ .

[٧١] الأنعام: ١٦٢.

[٧٢] النحل: ٩٧.

[٧٣] الأنفال: ٢٤.

[٧٤] الحديد: ٣.

[٧٥] الإمام الخميني: «وصايا عرفانية»، م.س، ص ١٦ - ١٧.

[٧٦] الإمام الخميني :«وصايا عرفانية»،م.س، ص ٢٢.

(٧٧) الإمام الخميني:«شرح دعاء السحر»، مؤسسة نشر وتنظيم آثار الإمام الخميني،طهران، ص ٥.

(٧٨) فاطر: ١٥.

(٧٩) دعاء البهاء، أنظر السيد رضي الدين علي بن موسى جعفر ابن طاووس:«إقبال الأعمال» تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٤هـ.ق، ج١ص٩٦.

(٨٠) الإمام الخميني:«شرح دعاء السحر» م.س، ص ٩٢.

(٨١) دعاء البهاء، م.س.

(٨٢) راجع: شرح دعاء السحر.

(٨٣) المعاونية الثقافية في منظمة الإعلام الإسلامي:«حديث الشمس» ترجمة رعد جبارة، معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢، ص٢٢٦.

(٨٤) السيد حسن نصر الله:«مؤتمر العرفان عند الإمام الخميني»، المعهد الإسلامي المعارف الحكمية، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٢.

(٨٥) م.ن، ص ١٣.

(٨٦) م.ن، ص ١٥.

(٨٧) الحجر: ٤٢.

(٨٨) ص: ٨٢ - ٨٣.

(٨٩) الأنفال: ١٧.

الفصـــل الثالـث

الإمام الخميني
بين وعي الأهداف المبدئية..
ورسم الأهداف العملية

الحديث في الإمام الخميني (قده) وحركته الإحيائية المقتدرة، هو حديث عن النهضة الإسلامية المعاصرة.. وحينما نتحدّث عن النهضة الإسلامية، فنحن نتحدث عن القيام لله سبحانه الذي يجب أن نلتزمه بعمق الروح والقلب.. «فالموعظة الإلهية الفريدة اسمعها بالقلب والروح، واقبلها بكل قوتك، وسر في خطها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾[1].. الميزان في أول السير هو القيام لله، إن في الأعمال الشخصية والفردية، أو في النشاطات الاجتماعية»[2].

لذا كانت أول انطلاقة للرسول (ص) القيام من أجل الإنذار ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[3].. ومنها جاءت كل نهضة وتحليق في ذرى العزة بعد قعود ووهن، ارتكست فيه الأمة..

ومن مقتضيات النهوض.. أن هناك قضية استنهاض ترتكز على مبادئ تدفع القيم نحو حركة دؤوبة، لتصل إلى غاياتها، وأن يكون هناك أمة أو شعب، يمثّل دائرة فعل الاستنهاض، ووعاء حفظ سير حركة النهوض، كما أن هناك قائداً وباعثاً للقضية تحيط به جماعة من الناس، هم الأكثر وعياً وتفاعلاً مع القضية التي يعمل القائد على انبعاثها، ومع الأهداف التي يريد أن يحققها..

عليه، فإن المبادئ والقضية والقيم المؤسّسة لها يشكّلون روح النهضة، كما يمثّل القائد وصحابته والأمة، جسّد النهوض الإسلامي الذي إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الأطراف بالسهر والحمى..

الأفق العقيدي لنهضة الإمام:

لا بدّ لأي مشروع نهضوي إسلامي، من مرجعية عقيدية وأخلاقية إيمانية ينطلق منها.. ولقد تمايزت المشاريع النهضوية لدى المسلمين بحسب طريقة اجتهادهم وفهمهم لهذه المرجعية الإيمانية..

ونحن هنا لسنا بصدد المقارنة بين هذه الاجتهادات، فما يعنينا هو الاجتهاد الخميني في فهم المرجعية الإيمانية التي شكّلت عنده مبدأ انطلاق حركته، والتي أول ما ارتسمت لديه، جسَّدها بنموذج حي تمثَّل بالأنبياء (ع)، وبالأخص منهم «أولو العزم من الرسل» وبأكملهم رسول الله محمد (ص)..

وهذا المنطلق الذي اعتمده الإمام (قده) الذي هو التوحيد تمظهر في قيادة تتجسّد فيها كامل المبادئ والأهداف الإلهية.. ليتعلّم من هذه القيادة الرؤية التوحيدية في ربط الحياة بأصل التوحيد، ومبادئ تحقيق البناء الروحي الذي يحقق رضا الله، كما ويتزكّى به بقدسية القيم والإرشادات النبوية، ثم ليتربّى على المسلك النبوي في تحديد الأهداف الإلهية وكيفية تحقيقها.. وكيف يربط الجماعة أو الأمة بمبادئها وأهدافها..

لذا، فإن تبيان رؤية الإمام (قده) لحركة الأنبياء سيقدّم لنا معرفة منطلق الأهداف التي رسمها الإمام، وسار عليها.. وهذا يوجب علينا أن ندرس نظرته (قده) للأنبياء وخصائصهم ودورهم، وكيف ربط نفسه وحركته بهم.. بحيث كانت أهدافه مستقاة من أهداف الأنبياء (ع).. على أن نُتبع هذه القراءة التمعن بالخطوات المنهجية التي أسّس على ضوئها الإمام، مرجعية أهداف نهج الاقتدار.

سر مقام النبوة:

ذهبت بعض التفسيرات الكلامية للقول : إن مقام النبوة يمثّل المهمة والوظيفة الإبلاغية التي يؤدّيها النبي عن ربه سبحانه.. وبالتالي، فهي منصب من المناصب الإلهية.. وهذا ما رفضه الإمام (قده) الذي اعتبر «أن النبوة

ليست أمراً مجعولاً، ومنصباً جعلياً بالشكل الذي يُجعل للولاة، بل أن هذا المنصب قائم بعين حقيقة ذلك النبي، لأنه ينبغي أن يكون ذلك الشخص الذي يتمكّن من مشاهدة عالم الحقائق ويقتبس منها، ويبسط ذلك في عالم الشهادة (الدنيا)، ويوصله للآخرين، وهذا غير ممكن إلا أن يكون القلب مفتوحاً باتجاه طرفي عالم الغيب وعالم الشهادة»(٤).

وهذا الرأي للإمام يعيد مقام الإنسان إلى أصل كماله النفسي والمعنوي، فمن هذا الأصل وبحسب تمكنه في ذات الإنسان وحقيقة كمالاته تتبع مشروعية المهام والمناصب والأدوار المنوطة به.. وبالتالي فإذا كان الأنبياء هم الأسوة، فعلى من ينتهج نهجهم أن يعلم أن الوظيفة النهضوية لعمله، إنما تنطلق من أصل بناء النفس والذات على مقتضى الرضا الإلهي.. بالتالي فإن القيام لله لا بدّ فيه من يقظة روحية وكمال روحي خاص لأن «ظل الله يكون ظلاً لله عندما تكون حركته إلهية، فلا يملك شيئاً من عنده. والرسول الأكرم (ص) هو ظل الله لأنه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(٥).. و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾(٦)، فلماذا تعتبر البيعة مع الرسول بيعة مع الله؟ لأن كل ما يملكه الرسول هو من الله، وكل ما يشاهده هو الله وأنه فانٍ في الله. وأن كل حركة يقوم بها الأنبياء تطابق رضا الله، وهم يتحركون بحركته وبتحريكه، ولا يملكون حركةً من عندهم، بل يتحركون بتحريكه»(٧).

لذا فالقيام بأي مهمة من المهام لا تمثّل غاية بنفسها عندهم، بل هي خدمة يقصد بها وجه الله، وهكذا ينبغي أن يكون البرنامج التربوي والإرشادي الذي ينتهجه من أراد السير على خطاهم (ع).. «إن الأنبياء يعتبرون أنفسهم خدماً، ولا يحملون تصوراً بأنهم يحكمون الناس، فلا مجال للحكم، وأن لأولياء الله، والأنبياء العظام نفس هذا الإحساس، أنهم جاؤوا لهداية الناس وأداء الخدمة لهم»(٨).

فتصدّي الأنبياء (ع) ومن على دربهم؛ للشأن العام، وتولي السلطة ليس من

الأمور المقصودة، بل هم أساساً؛ وبحسب بنائهم الروحي؛ منصرفون عنها، إذ اعتقادهم يوقن على أن الحكم هو لله وحده، وإذا ماعملوا على الإمساك بالحكم فلأن فيه خدمةً للناس، لأن خدمة الناس بما تعني من مظهر لطاعة الله هي التي تعنيهم، وهي التي يقصدونها .. وهنا أهم فارق بين نهج الاستحواذ الذي تمثله قوى الظلم والطغيان، وبين نهج الاقتدار الذي يمثله خط الأنبياء (ع).. فالأولى تقصد السلطة بذاتها، لتأكيد فرض سطوتها، وتحجب الناس عن نيل حقوقهم حتى لا يزاحموها على سلطتها، بينما الثانية فإنها لا تقصد إلا «كلمة واحدة وهي معرفة الله وكل شيء مقدّمة لهذا الهدف.. فلم يكن الأنبياء يريدون حرباً، ولا دعوة غير هذه الدعوة، ولم يدعوا لاحتلال البلدان»[٩]، وبذلك فهم يريدون نشر رحمة الله بين العباد، ورفع الضيم عنهم ليتاح لهم معرفة الله سبحانه «فجميع الأنبياء هم مظهر رحمة الله وكذلك فإن وجودنا جميعاً هو مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية.. لذا فإن الأنبياء والأولياء الذين كانوا يعرفون الطريق، والعواقب . كانوا يشعرون بالحزن على هذا الإنسان، وبذلوا مهجهم من أجل خلاص الناس»[١٠].

فبسبب هذا الارتباط بالله سبحانه، وبسبب هذه الروحية القائمة على الرحمة، وحب الناس، كان العلم، وكانت التضحية في سبيل خدمة الناس وهدايتهم، ومن هذه النفحات القدسية تولّدت حركة النبوة لتقيم في الأرض معالم «نهج الاقتدار» الذي يمسك بتلابيب القوة ليقهر بها القهر والطغيان، ويهيّء كل مستلزمات الراحة والهناء وفرح الحياة بالله سبحانه.. «إن العمل الإلهي الذي لا هدف له سوى الله - مثل أعمال الأنبياء ودعوتهم- هي أعمال لا تستهدف إلا الخالق جل وعلا. لذا فرغم الأذى والتعب الذي كان الأنبياء يتحملونه بسبب دعوتهم وإرشادهم، فإن أياً من هذه المتاعب لم تجعلهم يتوانوا عن مسؤولياتهم ويجب القول: إن ما نصفه بالتعب والأذى - بحسب الدوافع البشرية - لم يكن بالنسبة إليهم كذلك. لأن هدفهم الذي كانوا يتحركون من

أجله ويعملون بسببه. كان كبيراً وسامياً بحيث إن التعب من أجله لم يكن تعباً من وجهة نظرهم. فالهدف هو الأساس لذا فإنهم كانوا يصرفون عمرهم بكامله في طريق تحقيق ذلك الهدف. ولم يرجعوا أي خطوة واحدة إلى الوراء. ولم يعتريهم التزلزل أبداً في نفوسهم»(١١).

فحب الأنبياء والأولياء والصالحين للجهاد في سبيل تحقيق الهدف النهائي، بل وحب كل هدف في الحياة ينبع من الهدف النهائي، الذي هو مرضاة الله؛ والشغف بخدمة الناس، والسعي لهدايتهم وإسعادهم، والتضحية بأغلى ما يمتلك المحب في سبيل إنقاذ الناس، فإنما ذلك كله يحصل بالعنوان المعنوي؛ وهو أن الناس عبيد الله، وأن الأهداف والجهاد والابتلاءات هي في سبيل الله سبحانه، لذا تكون القدرة باعلى إمكاناتها وبأوفر استطالتها، تتفاعل مع الحياة والأحياء على أساس الاقتدار النابع من قدرة الإنسان، وليدة عبودية الحب لله، الذي يخرج إلى الناس بصور الرحمة والبذل والاقتدار.

فتكون مسيرة الإنسان على هدي خطى الأنبياء(ع)، نهجاً يصنع من الضعف قوةً، ويغتنم فرص القوة ليهدم صروح الظلم، ولينشر مبادئ ومعالم العدل والإحسان والرحمة في البلاد وبين العباد..

وبكل الحالات التي يمكن أن تترتب عليها نتائج معيّنة قد تختلف بحسب الظروف والأوضاع، فإن الناهج نهج الاقتدار النبوي المرتبط بالله سبحانه، هو دائم الإحساس بالفوز، طالما أنه مطمئن إلى نيل رضا الرحمن سبحانه.. فمثل هذا المرتبط بالله يمكن أن نسميه بصاحب النفس المطمئنة.. من الذين ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾..(١٢)

طبعاً هذا الكلام لا يعني أن تحقيق الأهداف الحياتية لا تمثل قيمة يُعتدُّ بها.. بل المقصود أن المجاهد في سبيل تحقيق تلك الأهداف، وبسبب من تأثير الهدف النهائي الذي يسعى إليه، فإن كل أعماله وحركاته وسكناته، والوسائل الصادقة التي يؤدِّيها من أجل تحقيق الأهداف الحياتية، تصبح أيضاً ذات قيمة كبيرة لارتباطها بالله كهدف نهائي.. وهكذا تدخل الوسائل في دائرة

القيم (الاقتدار) سواءً أوصلت إلى تحقيق الأهداف الحياتية أم لم توصل.. وإن كان من الطبيعي أن تحقيق تلك الأهداف والوصول بها إلى منتهاها سيؤدي إلى روحية سامية وواثقة جداً.. كما وسيمثّل مورداً من موارد النعم التي تستوجب الشكر..

الأهداف الحياتية المقدّسة عند الأنبياء:

بعد أن بيّنّا طبيعة الهدف النهائي الذي نتعلمه من نهج الاقتدار؛ عند الأنبياء؛ فإن جملة من الأهداف الحياتية والمعنوية، لاحظها الإمام الخميني، عندهم (ع)، وجعلها مورد أسوة يقتدى بها في حركته ونهضته (رضوان الله عليه).. ومن تلك الأهداف:

الهدف الأول: بناء الإنسان في جميع أبعاده المعنوية والنفسية والمادية، وسواءً على المستوى الفردي أم الجماعي..

«إن جميع الأديان النازلة من الخالق تبارك وتعالى، وجميع الأنبياء العظام الذين أُمروا بالإبلاغ، إنما جاؤوا من أجل راحة الإنسان وبنائه، وأراد الباري تعالى من خلال الوحي للأنبياء العظام هداية الناس.. جميع الناس.. وبناء الإنسان في جميع أبعاده»(١٣).

الهدف الثاني: وهو أيضاً هدف يجمع - حسب الإمام - بين كل الأنبياء والأديان في إبلاغها، ويتعلّق بتربية الإنسان على مقتضى المشيئة الإلهية.. «كل هذه الأديان النازلة من الخالق جل وعلا الذي خلق جميع أبعاد الإنسان، وله رعاية بها، فإنها تريد تربية الإنسان بكل أبعاده»(١٤).

الهدف الثالث: رفع وتنمية الجانب المعنوي عند الناس ليعوا حقيقة أنهم بأنفسهم لا يمتلكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.. وأن ما يُقوِّم حياة الناس إنما هو الاعتماد على الله.. ليندفع الناس بعد هذه التنمية المعنوية نحو إصلاح الحياة والمجتمع فينقذوا الحياة وأهلها من أسر الظلم وشياطين الأرض..

«لقد بعث الأنبياء من أجل تنمية معنويات الناس واستعدادتهم حتى

يفهموا- من خلال تلك الاستعدادات أنهم لا شيء (من دون الله).. وإضافة إلى ذلك إنقاذ الناس، وإنقاذ الضعفاء من نير الاستكبار. وكان للأنبياء منذ البداية هاتين الوظيفتين.. الوظيفة المعنوية لإنقاذ الناس من أسر النفس، ومن أسر ذاتهم (لأن الذات شيطان كبير).. وإنقاذ الناس والضعفاء من أسر سلطة الظالمين»(١٥).

وهكذا، فإنه هدف تحريري بامتياز يبدأ من تحرير الذات من كل ألوان الأسر، بما فيه الهوى والأنانية والإحباط واليأس والوهن.. إلى تحرير الحياة والمجتمع من أسر التبعية والانحطاط والظلم والمهانة.. ساعياً لإقامة ما فيه صلاح الأنفس واعتدالها، وما فيه استقلال المجتمع ونشر العدالة..

الهدف الرابع: هدم معاقل الظلم والقضاء على أئمة الاستحواذ وتحطيم سياساتهم وذلك عبر دفع الشعوب نحو معرفة قدراتها..

«لقد جاءت النبوة وبعث النبي من أجل تحطيم معاقل الظالمين الذي يظلمون الناس. وأن معاقل الظلم هذه إنما قامت أسسها على كدح هؤلاء الضعفاء، وعلى دمائهم واستثمارهم، وأصبحت قصوراً عالية، كان مجيء النبي (ص) لتحطيم هذه المعاقل وقلع جذور الظلم هذه»(١٦).

وهذا الهدف النبوي انتهج سياسات مبنية على مكوّنات نهج الاقتدار، من مثل اعتماد الأدلة والبيّنات ونشر المعرفة لتحقيق الهدف، وفي نفس الوقت تقديم البرهان الساطع الذي يوصل إلى ملامسة الأمور لخواتيمها، دون اللجوء مباشرة إلى القوة والعنف. في نفس الوقت الذي تعمل فيه حركة نهج الاقتدار على الإعداد للقوة بأعلى مستوياتها المنسجمة مع تحقيق الأهداف، لتكون القوة هي وسيلة دفاع عن الحق والحقوق فتأخذ بذلك قيمة الاقتدار الفاعل بدل أن تكون أداة جبروت وتخريب وهدم.

«يقول تعالى في كتابه العزيز أنه بعث الأنبياء وأعطاهم البيّنات والآيات والميزان ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (١٧).. فالغاية قيام الناس بالقسط، وأن

تتحق العدالة الاجتماعية بين الناس ويزول الظلم، ويحل الاهتمام بالضعفاء، والقيام بالقسط. ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[١٨] فما هو الارتباط؟

إن ذلك يعني أن تحقق هذه الأهداف يكون بالحديد والبيّنات، وبالميزان؛ والحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[١٩]؛ أي إذا أراد شخص ما أو مجموعة معينة القضاء على المجتمع أو على تلك الحكومة العادلة، فإنه ينبغي الحديث معها بالبينات، ولو لم ينفع فبالموازين العقلية، ولو لم ينفع فبالحديد»[٢٠].

الهدف الخامس: تحضير الناس، والبيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية، وإعداد كل البرامج والإجراءات اللازمة، من أجل جعل الحياة الدنيا وأهلها، على غرار الحياة الآخرة وأهلها.. فالآخرة دار عدالة إلهية وفيها الرحمة منشورة بين العباد.. والآخرة فيها رغيد العيش والرزق، وقبل هذا وذاك فإن فيها غاية بهجة الفطرة الإنسانية، وهي معرفة الله سبحانه.. لذا كان الهدف السامي لحركة النبوة هو إيصال أهل الدنيا، لينعموا فيها بما يشابه نعم الآخرة.. وليبنوا هذه الدنيا على ما يتماثل وصورة الآخرة..

«إن الهدف الذي بُعث من أجله الأنبياء، وجميع الأعمال الأخرى هي مقدّمة له، هو نشر التوحيد ومعرفة الناس بالعالم، وإراءة العالم كما هو، لا بالشكل الذي ندركه.. والأنبياء بذلوا جهدهم.. لإنقاذ الناس وإخراجهم من الظلمة التي تسيطر على العالم، إلى فسحة نور التوحيد..»[٢١].

«إن جميع أهداف الأنبياء تعود إلى كلمة واحدة، وهي معرفة الله؛ وكل شيء مقدّمة لهذا الهدف.. وهو رفع الحجاب عن تلك النقطة الأصلية الموجودة في فطرة جميع الناس، حتى يصل الإنسان إليها. فإن معرفة الله هي الهداف السامي»[٢٢].

أما كيف يحقّق الأنبياء أو يسعون لتحقيق مثل هذه الأهداف فقد لاحظ الإمام (قده) الأمور التالية:

١- وحدة التكوين النفسي بين أهل البلاغ والجهاد يوصل إلى قوة متماسكة

في السير نحو الهدف.. فالأنبياء مثلاً «لم يكذب أحدهم مواضيع الآخر أبداً، ومحال أن يفعلوا ذلك. وهذا ليس من باب التقدّس، وأن الذم حرام. بل من جهة أنهم جميعاً، وبذلك المقدار الذي يشتركون فيه جميعاً في الإدراكات كانوا بنفس ذلك المقدار متوافقون في إدراك الحقائق من دون أن يكون بينهم اختلاف في الكلمة»(٢٣).

فحينما يكون البناء النفسي على نهج محدَّد، وتكون الإدراكات نابعة من نهج محدَّد.. فلا بدّ أن تنتج وحدة متوافقة في المعرفة والموقف.. وهذا الأصل هو الذي يبني؛ إذا ما اعتمدناه؛ وحدة مسير جهادي بين أهل نهج الاقتدار..

٢- أن يعايش المجاهدون الحقائق والأهداف والقضايا في عمق وجدانهم وإيمانهم، لا أن يكتفوا بسطح المفاهيم المتعلّقة بتلك الحقائق والأهداف والقضايا.. فالذي يتحدث عن الشهادة وما يحفها من مفاهيم، لا يمكن أن يصل للخير المعنوي الذي تحمله الشهادة.. لذا عليه أن يتجرّد من كل الأشكال والمفاهيم والعلائق المادية ليدخل عمق المعنى وروح الحقائق والأشياء «وكلما ازداد التجرّد.. ازداد درك الأعيان المجرّدة.. بحيث إنه لو استمر على ذلك، فإن تلك الحقائق تنبعث من نفسه وقلبه، وهذا هو المقصود، أن يحصل الأنس الاتحادي مع المبادئ العالية، لا أن يُدرك الإنسان المفهوم فقط» (٢٤).

٣- وحدة الجماعة والكلمة، وعدم الاختلاف خاصة أثناء خوض المواجهات المصيرية..

٤- الخروج من بين المستضعفين، وحمل قضاياهم على الدوام .. «إن الرسول الآكرم (ص) وقف بوجه قريش.. أنه كان من قريش لكنه إنسان ينتمي إلى هذه الطبقات الدانية. إنه كان من الأشراف؛ بمعنى أن له عشيرة، ولكنه لا يملك شيئاً. لم يستطع العيش في مكة، وفرَّ من أيدي هؤلاء الطغاة.. وفي المدينة من كان يرافقه.. هل كانوا هؤلاء الأغنياء؟ هل كانوا الطغاة؟ هل كانوا الآكلين للربا أو التجار؟.. أم أن الرسول دخل على رجل كان يملك بيتاً وغرفة قائمة على جذوع النخل، حيث بنى منها غرفته ومسجده، وكان بعض أصحابه من

أهل الصفة الذين لا بيت لهم،.. فبمثل هؤلاء الفقراء قضى النبي (ص) على طغاة قريش»[٢٥].

٥- الاقتدار والتوازن في مجالات الدعوة والقوة «الأنبياء العظام السابقين والرسول الأكرم (ص) في الوقت الذي يحملون فيه الكتب السماوية في يد، من أجل هداية الناس، كانوا يحملون السلاح في اليد الأخرى» [٢٦].

وهذا ما يمثل تمام نهج الاقتدار إذ قامت «سيرة الأنبياء على أساس الوقوف بقوة بوجه الطاغوت، والتواضع أمام الضعفاء والفقراء والمساكين والمستضعفين.. فالنبي لم يخضع لأية قدرة لأنه كان يشاهد الله؛ فالذي يعتقد بأن القوة مهما كانت فإنها لله تبارك وتعالى، والآخرون لا شيء. مثل هذا الشخص لا يمكنه أن يخضع أمام أي قوي مهما كان»[٢٧].

بمثل هذه الرؤية لنهج الاقتدار، وأهداف النهوض النبوي رسم الإمام (قده) معالم النموذج المعصوم الذي سيقتدي به في أفق بنائه الإيماني وأهدافه العقائدية الأساسية.. وكانت هذه الرؤية تمثّل الخطوة المركزية الأولى على طريق السياق المنهجي الذي حدَّده للخلفية العقائدية والإسلامية لحركته ونهجه المبني على قيم الاقتدار.. وبعد ذلك جاءت بقية الخطوات ومنها:

الخطوة الثانية: وهي وإن اندرجت في سياق الخطوة الأولى؛ إلا أنها أكثر خصوصيةً، وأكثر اكتمالاً في دلالاتها وعلاقتها برؤية الإمام (قده).. وهذه الخطوة تتعلق بأهداف بعثة النبي (ص) «جاءت بعثة رسول الله (ص) لتوضح للناس طريق رفع الظلم وإزالته، وتكشف لهم الطريق، حتى يواجه الناس القوى الكبرى. وتستهدف البعثة إنقاذ أخلاق الناس، ونفوسهم، وأرواحهم، وأجسامهم من الظلمات، وأن تزيل الظلمات ليحل محلها النور، لتزيح ظلمة الجهل، وتأتي مكانها بنور العلم، وأن تزيل ظلام الظلم وتحقق مكانه العدل، ليشع بنوره، وكشفت لنا عن طريقه، وأوضحت أن جميع الناس، وجميع المسلمين إخوة، ويجب أن يتحدوا بينهم ولا يتفرقوا»[٢٨].

هذا النص للإمام يكشف عن جملة أهداف للبعثة المحمدية؛ التي تمثّل بعثة نهج الاقتدار المحمدي الأصيل؛ ومنها:

١-أنها أوضحت الطريق أو النهج السوي المستقيم لإزالة الظلم.. وهذا ما نصطلح عليه بـ «نهج الاقتدار».

٢- تبيان كيفية تطبيق هذا النهج الذي يستهدف فيما يستهدف إزالة حضارة «قوة الاستحواذ» التي تمثلها القوى الكبرى، والتي تقف على الخط النقيض لحضارة «نهج الاقتدار».

٣- إنقاذ الناس عبر هدايتهم في أخلاقهم وقيمهم ونفوسهم وأرواحهم وأجسامهم، وذلك بنقلهم من بيئة الظلم والجهل والقهر إلى نور العلم والعزة والاقتدار..

٤- تحقيق العدل كنظام حكم وقانون في الاجتماع والسياسة وغير ذلك..

٥- تثبيت أواصر الأخوّة بين المسلمين على أساس الولاء للإسلام؛ دين الله الأكمل؛ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾[٢٩]، وبذلك تتكوّن أمة الإيمان والاعتقاد..

٦- تثبيت أواصر الإخاء الإنساني بين جميع شعوب العالم، على أساس أن «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[٣٠]. وتشكيل أمة المستضعفين .. وهكذا فبين أمة الإيمان، وأمة المستضعفين تتولد لحمة الاستنهاض لقضايا التحرّر العالمي المبني على «نهج الاقتدار المحمدي الأصيل».. والذي استطاع الإمام أن يعيد انبعاثه في حياة الأمة، وضمير العالم.

الخطوة الثالثة: وهي تلك التي تتعلق بطبيعة التشيُّع، والتي إذ أبرزها الإمام فليقول: إن حركته هي من صلب التشيُّع المحمدي، العلوي.

«إن واحدةً من خصائص التشيّع الذاتية منذ البداية وحتى اليوم هي المقاومة والانتفاض بوجه الدكتاتورية والظلم، حيثُ يشاهد ذلك على طول تاريخ الشيعة، وإن كانت ذروة هذا الكفاح قد اقتصرت على بعض الفترات الزمنية» [٣١].

من هنا يؤكّد الإمام أننا «نفخر بجميع أئمتنا المعصومين (ع) ونلتزم باتباعهم.. نحن نفخر بأن، أئمتنا المعصومين (ع) قضوا أعمارهم سجناً ونفياً وتشريداً في سبيل رفعة الإسلام، وتحقيق أهداف القرآن الكريم والتي أحدها تأسيس حكومة العدل، وكانت عاقبتهم أن استشهدوا في جهادهم لإسقاط حكومات الجور والطغيان في عهودهم» [٣٢].

الخطوة الرابعة: جعل البيئة الشرعية الحاضنة لتحقيق الأهداف هي في تطبيق نفس التشريعات والعبادات والشعائر الإسلامية بما تحمل من طبيعة وديمومة ومضامين.. ولهذا يقول الإمام (قده): «إن مجموعة القوانين لا تكفي لإصلاح المجتمع. ولكي يكون القانون مادة لإصلاح وإسعاد البشر، فإنه يحتاج إلى السلطة التنفيذية. لذا فإن الله عز وجل قد جعل في الأرض - إلى جانب مجموعة القوانين - حكومة وجهاز تنفيذ وإدارة.. الرسول الأعظم (ص) كان يترأس جميع أجهزة التنفيذ في إدارة المجتمع الإسلامي. وإضافة إلى مهام التبليغ والبيان وتفصيل الأحكام والأنظمة، كان قد اهتم بتنفيذها، حتى أخرج دولة الإسلام إلى حيّز الوجود.. ولم يكن تعيين الخليفة لبيان الأحكام فحسب، وإنما لتنفيذها أيضا»[٣٣].

وهكذا، فإن الهدف العقائدي والإيماني العام قد أخذ بالاقتراب مع هذه الخطوة، من الهدف المعاصر والخاص بعصر تصدّي الإمام (قده) لانبعاث نهج الاقتدار.. بحيث إن معالم الهدف أخذت تتجمع ضمن صورة إقامة حكم إسلامي يلبي ويستجيب لكافة الأهداف الإيمانية والعقائدية.. بل وجعل من هذا الهدف جامعاً يضم كافة الاستفادات.. فإننا «نستفيد من سنة الرسول (ص) وسيرته ضرورة تشكيل الحكومة»[٣٤]. وبما أن النبي (ص) «استخلف بأمر من الله، من يقوم من بعده على هذه المهام، فإن هذا الاستخلاف يدل بوضوح على ضرورة استمرار الحكومة» [٣٥]. ثم «إذا كان حلال محمد حلالاً إلى يوم القيامة وحرامه حراماً إلى يوم القيامة، فلا يجوز أن تعطل حدوده،

وتهمل تعاليمه، ويترك القصاص، أو تتوقف جباية الضرائب المالية، أو يترك الدفاع عن أمة المسلمين وأراضيهم»[٣٦].

إنطلاقاً من كل هذا «فقد ثبت بضرورة الشرع والعقل أن ما كان ضرورياً أيام الرسول (ص)؛ وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من وجود الحكومة الإسلامية؛ لا يزال ضرورياً إلى يومنا هذا» [٣٧] خاصة «أن ماهية قوانين الإسلام دليل آخر على ضرورة تشكيل الحكومة» [٣٨]، إذ فيها قوانين نظام اجتماعي يسدّ جميع حاجات الإنسان بدءً من حالته الفردية والأسرية والاجتماعية وصولاً لما له علاقة بتشريعات تخصّ «الحرب والسلم، والعلاقات الدولية، والقوانين الجزائية، والحقوق التجارية والصناعية والزراعية» وعند إمعان النظر في هذه الأحكام «يثبت لدينا أن لا سبيل إلى وضعها موضع التنفيذ إلا بواسطة حكومة ذات أجهزة مقتدرة» [٣٩].

بل إن الإمام (قده) ذهب لتحليل واقع الصراع بين قوى الاستحواذ والطغيان، وبين قوى الرحمة والاقتدار، ليؤكّد بأنه مبني على ضرورات عقلانية تفيد أن التراجع أمام الطغيان والبغي يعني خسران فرص بناء الذات على أسس من التقوى والإيمان، وخسران الحياة من فرص إقامة العدالة وتحقيق السعادة والكمال المعنوي والمادي.. إذ «إن تمادي هذه الحكومات (الظالمة) في غيّها يعني تعطيل نظام الإسلام وأحكامه.. وفي نفس الوقت نحن مسؤولون عن تهيئة الجو المناسب لتربية وتنشئة جيل مؤمن فاضل يحطم عروش الطواغيت، ويقضي على سلطاتهم غير الشرعية، لأن الفساد والانحراف ينمو على أيديهم، وهذا الفساد ينبغي إزالته ومحوه وإنزال العقوبة الصارمة بمسبّبيه. وقد وصف الله في كتابه العزيز فرعون بأنه كان من المفسدين.. وفي ظل حكم فرعوني يتحكّم في المجتمع ويفسده ولا يصلحه، لا يستطيع مؤمن يتقي الله أن يعيش ملتزماً ومحتفظاً بإيمانه وهديه.. وأمامه سبيلان لا ثالث لهما: أما أن يقسر على ارتكاب أعمال مردية، أو يتمرد على حكم الطاغوت ويحاربه، ويحاول

إزالته، أو يقلل من آثاره على الأقل؛ ولا سبيل لنا إلا الثاني.. هذا واجب يكلف به المسلمون جميعاً أينما كانوا من أجل خلق ثورة سياسية إسلامية ظافرة منتصرة» (٤٠).

فانطلاقاً مما استفاده الإمام من تجارب الأنبياء (ع) وبعثة النبي (ص) ودور الأئمة (ع) وطبيعة الأحكام الإسلامية، والمسار الذاتي للتشيُّع.. حدَّد الإمام تكليفه تجاه الواقع الذي يعيشه، بعد أن فهم هذا الواقع بسننه وأحداثه.. وأرسل للأمة نداءه أن لا سبيل أمامها؛ لتحفظ الإسلام بأحكامه، ولتحفظ إيمانها وممارسة التزاماتها بما يرضي الله سبحانه؛ إلا أن تحارب الطاغوت المتمثّل بحضارة قوة الاستحواذ التي أطلّت برأسها (الشيطان الأكبر؛ أميركا).. وامتدت بذيلها فكان أتباع أميركا من حكومات وقيادات الاستبداد والتبعية في المنطقة؛ الذين ما زالوا يعيثون فيها فساداً وإفساداً..

وحربهم هذه ليست عبثية.. بل هي ثورة في فهم السياسة والدين مبنية على طموح الظفر والانتصار؛ وهذا يعني أنها حرب نهج الاقتدار ضد قوة الاستحواذ المركزي الأميركي .. وبمقتضى هذه الرؤية فلقد صار للتاريخ والسيرة، والعقيدة والأخلاق والفقه معنىً آخر؛ كما بات للعرفان والحكمة والفلسفة والثقافة معنىً آخر في قاموس الإمام (قده) لأن كل ذلك صار ضمن منهجية نهج الاقتدار المنطلق من الثقلين «كتاب الله وعترة النبي (ص)» وهما المتوحّدان بالنبي محمد (ص).. الذي جمع في اهتمامات رسالته وبلاغه شؤون الدنيا والآخرة.. وحفظ استمرار هذه الرسالة ما دامت السموات والأرض.. ورفع حدود المقصود من كل ذلك ببناء الحياة الدنيا على صورة إشراقة نور الآخرة، وبناء الإنسان فيها على صورة العز الإلهي الذي اصطفاه الله سبحانه لأمة نبيه المصطفى (ص)..

من هنا جاءت دعوات الإمام لعرفان يتجاوز الفرد ليكون معنوية الأمة العارفة، ولأخلاق قائمة على الاقتدار، ولتوحيد عقائدي يصيغ الحياة بحسب المثال الأعلى الذي يرتبط به.. وبفقه يتسع لمساحة الكتاب والسنة فيصنع وجه

الحضارة والسلوك العالمي.. ولفلسفة وثقافة وحكمةٍ علوية تبعث في الحياة العبرة والتأمل، والخبرة والمعنى..

كما جاءت دعواته لتطوير مسار المؤسسات العلمية والفكرية والتعليمية، ومؤسسات الإنتاج والتطوير، وربط المسجد بالجبهة، والحج بجماعة الأمة الواحدة، والصلاة بترقي حركة العبادة نحو صنع الحياة والسياسة بمقتضى الصلة بالله سبحانه.. وإعادة ثقة الأمة بنفسها وتاريخها ونبيها وربها لتحقق أهدافها.. ثم عمل (قده) لربط كل ذلك ضمن صياغة انبعاثية للإسلام القادر العزيز المقتدر في كل شأن نظري أو عملي حياتي، ليفتح قلب الأمة ووعيها وإرادتها على نهج جديدٍ يرتبط بحركة الرسالات الإلهية ارتباطاً عضوياً فاعلاً؛ هو نهج الاقتدار؛ والذي تسالم الناس على تسميته بـ «خط الإمام الخميني (قده)».. فما هي أهداف هذا النهج؟ وكيف يمكن الوصول إلى تحقيقها؟

إن الإجابة عن هذين السؤالين سيفرضان علينا في البداية أن ننطلق من مسلّمة؛ مفادها أن أي هدف جديد في حياة التجارب الرسالية بعد النبي محمد(ص) ينبغي أن تقارب في ذاتها وأساليب تحقيقها وحركتها نفس الهدف النبوي.. لذا فإن علينا أن نحدّد أولاً ما هي وجوه المقاربة بين أي هدف معاصر، وبين الهدف النبوي أو العقائدي العام.. وذلك بدراسة خصائص تلك المقاربة التي تربط بين ما أسميناه بالأفق العقائدي للأهداف.. وبين الهدف الخاص في هذا العصر أو ذاك، وفي هذه البقعة الجغرافية أو تلك.. ومن تلك الخصائص نذكر:

الخاصية الأولى: اعتماد ركن التوحيد الإيماني؛ بمعناه النبوي الذي أسلفنا الحديث فيه؛ وتخطي ما أثارته الفلسفة وعلم الكلام ودائرة المفاهيم حول هذا الركن، ليكون هو أصل البناء المعنوي للهدف، وتحقيق الهدف..

الخاصية الثانية: الانطلاق من حركة تجسيد التوحيد الفاعل في الحياة التي تتمثّل بحركة الأنبياء وبعثة النبي الأكرم (ص)، تلك الحركة التي يمكن

لنا إجمالها.. بإقامة مجتمع العدالة.. وتربية المجاهدين والعاملين في هذا المجتمع على أخلاق ومواصفات معرفية ونفسية وإجرائية عملية تنسجم مع مبادىء العدالة..

ثم التركيز على تنمية الجوانب المعنوية في خوض كل عملٍ من أعمال إعمار المجتمع المدني.. والتأكيد أن الهدف الخاص سواءً أكان حكومة إسلامية.. أو مقاومة إسلامية أو غير ذلك؛ لا بدَّ من تعهده ومبايعة قائده في مسيرته على أساس أنها بيعة لله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾(٤١).

وهذه البيعة والتعهد هو الكفيل بربط أفراد الأمة بمصدر الهدف؛ الذي هو الله سبحانه؛ كما أنه هو الكفيل باستمرار الحركة في الحياة وبين الأجيال.. بحيث لا تتأثر الحركة بموت قائدها، أو اختلال موازين الصراع لغير صالحها، طالما أن رابطة الولاء في العمل للهدف هي الله سبحانه..

وشعار هذه الخاصية هو قول أمير المؤمنين (ع): «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك»(٤٢).

فالسلطان ليس شيئاً يقصده صاحب الهدف الإلهي.. بل إن السلطة وظيفة تمثّل طاقة حكم وقوة تسمح لصاحب نهج الاقتدار أن يُقوِّم أي انحراف تعرضت له أحكام الدين، ويسعى للإصلاح في البلاد؛ وكل ذلك بغية أهم هدف أراده الله سبحانه وهو نصرة المظلومين، وتنفيذ الأحكام الضامنة لسيادة العدالة..

الخاصية الثالثة: أن تكون قيادة الهدف بيد العالمين بسنن الأنبياء وأهداف البعثة المحمدية؛ ولديهم من الكفاءة العلمية والعملية ما يؤهلهم لربط مسيرة الهدف الخاص بأفق الهدف العقائدي العام.

الخاصية الرابعة: اعتماد الناس كحاضنة للمشروع الرسالي، وتقديم ما

يجعلهم على وعي بالرسالة وبما يحقق مصالحهم الدينية والدنيوية..

الخاصية الخامسة: الشجاعة في تحديد العدو بوضوح تام، سواءً أكان شخصاً كالنمرود، وفرعون، ويزيد، أو هذا الحاكم المتسلّط وذاك.. أم كان حالة كالجاهلية التي أراد رسول الله (ص) اجتثاثها، والانحراف الذي عمل الأئمة على تقويضه، أو الاستكبار العالمي لحضارة قوة الاستحواذ المركزي الذي خاض الإمام الخميني (قده) المواجهات ضده، والتي ما زال خط الإمام (قده) يستكمل مواجهته له عبر تثوير الأمة بنهج الاقتدار المحمدي الأصيل..

الخاصية السادسة: بلورة الولاءات التقليدية في حركة نهج الاقتدار وذلك لتثويرها، واستخراج طاقاتها الكامنة، إذ إن طريقة نهج الاقتدار تتعامل مع التركيبة والبنى الطبيعية الموجودة في مجتمعات المسلمين وتستثمرها، دون أن تقول لهم عندنا بنية جديدة وقالب جديد نريد أن نصبكم فيه لتعملوا للإسلام فهي طريقة تنسجم مع طبيعة الناس.. وتنسجم مع سيرة النبي (ص) وآل بيته(ع) والأصحاب.. ثم هكذا عمل العلماء المجاهدون [٤٣]. إذ كانت حركة نهج الاقتدار تتفاعل مع الأمة بمساجدها وقراها وعشائرها ووجهائها.

الخاصية السابعة: أن يكون ميزان الأفضلية بين الأمة هو لأهل التقوى والعلم والجهاد والمقاومة؛ إذ ﴿**وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً**﴾[٤٤]. وهذا التأكيد لا بدّ منه من أجل خوض غمار المقاومة والجهاد، ورسم معالم ثقافة إسلامية شعبية تقوم على تقديس العمل الجهادي، ودماء الشهداء، وتضحيات أهل الصبر والبلاء.. وشرط التوفر على مثل هذه الثقافة العمل على تثوير الوعي العقائدي والروحي والفقهي انطلاقاً من التخطيط لمشروع فكري وثقافي ناظم للرؤية الإسلامية وقابل للتعميم في حياة المسلمين وبرامجهم، وهو يقوم على أساس «نهج الاقتدار المحمدي الأصيل».

الخاصية الثامنة: احترام الخصوصيات الثقافية والمذهبية والدينية في الوقت الذي يُعمل فيه على إيجاد قاعدة عملية وقيمية لوحدة هذه الخصوصيات في كل بلد، أو مذهب، أو دين، أو فكر.. تقوم على طلب العدالة

والحرية ورفض الظلم والتبعية..

ففي كل وطن لا بدّ من اجتماع كافة شرائحه على هذه القاعدة.. ولا بدّ من توحيد الأمة الإسلامية، كما الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية على نفس القاعدة، لتشكيل جبهة مقاومة الغزو العسكري والثقافي والحياتي لحضارة قوة الاستحواذ المركزي الظالم .. باعتماد الاقتدار نهجاً وصيغة حياة وتعارف ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شعُوباً وَقَبَائِلَ لِتعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٤٥)..

وهذه الخصائص الثماني نراها بوضوح في حركة خط الإمام (قده) سواءً عند انطلاقته، أو أثناء صراعه، أو عند انتصاره، أو في قيادته للجمهورية الإسلامية في إيران، أو قيادته التوجيهية للعالم الإسلامي والمستضعف.. فالإمام أحيا روح التوحيد في الأمة، وجعل الناس والعالم ينظرون لحركة النبوة والبعثة بمنظار جديد، وأعاد للأمة الإسلامية ثقتها بنفسها، وفتح باب الأمل عند الشعوب المقهورة، وأرسى ثقافة الجهاد والشهادة والانتصار، ودفع حركة المستضعفين نحو طلب الحرية والاستقلال، وشكّل الزلزال الذي أوجد الشرخ في بناء صروح الظلم الإسرائيلي والأميركي في العالم، وأودع الأمانة لدى قيادةٍ وأمةٍ سارت بإخلاص على درب انبعاث حضارة نهج الاقتدار من جديد..

«ويمكن القول باطمئنان : إن الإنجاز الأكبر الذي حققه الإمام الخميني(رض) في مستوى الدعوة، هو أنه استطاع أن يصدم العالم كله بالإسلام، وأن يدخل الإسلام إلى كل عقل وقلب، وأن يجعله شيئاً علمياً وعملياً، في الوقت الذي كان الإسلام يعيش الانكماش في الواقع السياسي والثقافي في العالم، وربما استطاع من خلال ثورته المدوّية أن يُسمع كل الشعوب والبلاد التي لم تكن قد سمعت بالإسلام من قبل، بهذا الدين العالمي، وكل ذلك كان من خلال ثورته الناجحة التي حققت هذا الهدف الكبير...

كما أن إنجازه الكبير على مستوى الدولة، هو نجاحه في تأسيس الدولة الإسلامية، وتحريك الواقع الإسلامي في خط الوعي والصحوة الإسلامية»(٤٦).

وهذه الإنجازات لا يمكن لنا اختصار معرفتها بالفترة الزمنية الخاصة بحياة الإمام (قده).. لأن حركته كانت نهجاً حقيقياً ما زال إلى يومنا هذا يتفاعل، وبتصاعد مستمر في قيادة الإمام الخامنئي (حفظه المولى) والنظام الإسلامي في إيران الذي كانت فيه إرادة القيادة والناس متحدة على خلق ظروف التطور والإبداع والترقي، وعلى خط المواجهات الريادية للمشروع الأميركي والصهيوني.. بدوائره المتعدّدة والمتنوعة.. كما وينبغي قراءة هذه التفاعلات في مقاومة الشعوب المستضعفة وما حققته إلى الآن من إنجازات سواءً في لبنان وإنجاز المقاومة والتحرير والإنتصار، ام في فلسطين الانتفاضة والمقاومة والإدارة الشعبية، أو في العراق أو غيرها من البلدان؛ التي لولا بعض المثالب التي زرعها الاستكبار وما زال يرعاها؛ لبدت صورة الوحدة بين المسلمين والمستضعفين متجلية بأبهى صورها في مسيرة الشعوب نحو تحقيق قضاياها العادلة على مقتضى نهج الاقتدار وفعاليته الهائلة..

الإمام الخميني (قده)
وانبعاث نهج الاقتدار وتوليد الأهداف المعاصرة

بعدما ذكرنا من رؤية الإمام الخميني لأفق الهدف العقائدي العام وبعدما أوردنا من خاصّيات ينبغي أن يحقّقها أيّ تحرّر خاص ليرتبط بالهدف العام، فيبني بمقتضاها هدفه أو أهدافه الخاصة،.. وبعد أن بينا مراعاة الإمام لكل هذه الأمور.. نشرع في قراءة المسير الذي انطلق به الإمام الخميني لخطه، والذي شكّل انبعاثاً حيوياً تجديدياً لنهج الاقتدار المحمّدي الأصيل.. فالإمام(قده) اعتبر أن هناك أساسين لا بدّ منهما لهذا الانبعاث، هما: تغيير ما بالأنفس على وفق نهج الاقتدار.. والتخطيط لتحريك الواقع الميداني في بلورة الهدف الخاص وتحقيق إنجازه.. ونحن سنتناول؛ وإن بالعموم؛ هذين الأساسين لعلمنا أن التفصيل يحتاج إلى مجال أوسع من هذا الكتاب..

الأساس الأول، تغيير ما بالأنفس:

تُعتبر مرجعية هذا الأساس مستندةً إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٤٧].

والتي رأى فيها الإمام أن كلمة «(ما) عبارة عن واقعية قانون يفيد أنه لو حدثت تغييرات في شعب، أو قوم معينين، فإن ذلك سيكون سبباً لتغيرات تكوينية وعالمية وظرفية.. وما لم يحصل هذا التغير النفسي فإن تغييراً حقيقياً لم يكن ليحصل.. إذ أن الله يعمل بموجب هذه الأسباب والمسبّبات»[٤٨].

واعتماداً على السنن الإلهية التي أثارها القرآن الكريم، فإن أصل التغير في أيّ واقع اجتماعي وإنساني، إنما يبدأ من التحولات التي تقع داخل البنية النفسية لأفراد أو قادة هذا المجتمع.. والتي تؤهّلهم لإحداث التبدّلات في شبكة العلاقات الإنسانية .. كما تحدّد مدى صلاحيتهم لتلقي فيض الأنعم،.. فبحسب هذه السنن، فإن الله إنما يُنزل النصر على من يستحقه من الجماعة التي تنتصر لأمر الله سبحانه.. ومن هذه السنن أنه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ﴾[٤٩].. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[٥٠].

لذا، فإن تأمين شروط ومقدّمات إنجاز الهدف الرسالي، ضرورة لازمة، ينبغي الانطلاق منها.. وهي ما عبَّرت عنه الأحاديث الشريفة بالجهاد الأكبر.. «فالعالِم المنحرف (مثلاً) يمكن أن يُضلَّ أمة بأسرها، والعالِم المستقيم المتحلي بالأخلاق الفاضلة والمهذّب لنفسه، والملتزم بآداب الإسلام، يستطيع أن يصلح ويهذّب أمة بأسرها»[٥١]. والغاية من هذا الجهاد تحصيل الانقطاع التام إلى الله سبحانه.. إذ نقرأ في المناجاة الشعبانية «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك.. حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعز

قدسك»[٥٢]. «إن كمال الانقطاع لا يحصل ببساطة، إنه يحتاج إلى ترويض للنفس غير اعتيادي، ويحتاج إلى بذل الجهد والاستقامة والممارسة»[٥٣].

وأول جهد يحتاجه الإنسان في عملية تغيير نفسه هو سيطرة العقل والشرع، على قوة الوهم؛ «لأن الوهم هو سلطان القوى الظاهرية والباطنية للنفس، فلو تحكَّم الوهم في تلك القوى أو بتصرف من الشيطان، كانت تلك القوى جنوداً للشيطان»[٥٤].

والوهم هنا يقصد به تلك المعرفة المزيفة التي تقلب الحقائق، فتثير الخوف مما لا ينبغي الخوف منه، والطمع فيما لا مطمع فيه، والتمرّد على ما لا ينبغي التمرّد عليه.. من أجل أن تجعل الإنسان أسير حبه لذاته ولذائذه.. لذا فإن «الجهاد الأكبر هو عبارة عن انتصار الإنسان على كل قواه النفسية، وجعلها تحت إمرة الخالق وتخلية مملكة النفس من لوث الشيطان وجنوده» [٥٥]. حتى يعرف حقيقة نفسه، فيعرف عظمة ربه، فلا ينظر إلى شيء إلا ويرى الله قبله وبعده ومعه وفيه..

ولتحقيق هذه الغاية، نورد بشكل مختصر ما نستفيده من شرح الإمام الخميني (قده) لحديث الجهاد الأكبر في كتاب «الأربعون حديثاً».. عبر خطوات ينصح الإمام بالقيام بها:

الخطوة الأولى: تحصيل المعرفة بحقائق الأمور والأشياء والمقاصد عبر (التفكّر)، إذ «إن أول شرط في مجاهدة النفس والحركة إلى الحق تعالى هو: التفكّر»[٥٦]. وهذا إنما يحصل بالتأمّل والتبصّر لإدراك المقصد والمقصود.. وقد ورد في الحثّ عليه عن رسول الله (ص) «تفكّر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»[٥٧]. وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا**

﴿لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٥٨].

إنها عملية تفكّر كاملة في الوجود والعالم، توصل إلى معرفة المصير وإلى الثقة أن الظلم والظالمين في خسرانٍ مبين..

الخطوة الثانية: العزم في النية والعمل على بناء الذات والتصميم «على ترك المعاصي، وفعل الواجبات، وجبران ما فاته من أيام حياته، وبالنتيجة العزم أن يجعل ظاهره وصورته إنساناً على وفق العقل والشرع.. بأن يكون سَيْرُهُ طبق مرام الشرع، ويكون ظاهره كظاهر رسول الله الأكرم محمد (ص). ومن الواضح أن التأسّي بذاك العظيم في جميع حركاته وسكناته وفي كلية أفعاله وتروكه أمرٌ ممكن» [٥٩].

لذا؛ فإن العزم للوصول إلى مثل هذا التأسي يجعل من المجاهد في سبيل الله على ثبات وتصميم لا يتزلزل، ففي الوارد بكتاب الكافي، عن الإمام محمد بن علي الباقر، في وصية لجابر الجعفي قال فيها: «واعلم أنك لم تكن لنا ولياً، حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك.. ولو قالوا إنك صالح لم يسرّك ذلك، ولكن اعرض نفسك على ما في كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، فاثبت وأبشر فإنه لا يضرك ما قيل فيك.. وإن كنت مبايناً للقرآن فما الذي يغرك من نفسك»[٦٠].

فصاحب العزم المحمّدي، هو الذي يعمل على أن يبقى ملتزماً حدود الشرع وأمر الله سبحانه.. لا يسوءه ذمّ الناس له إن كان في عمله ما يرضي الله، ولا يفرحه مدح الناس له إن كان في قوله أو عمله ما يخالف أمر الله، أو ما لا يرضيه سبحانه.. إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٦١].

كما أن صاحب العزم المحمدي لا يستوحش طريق الحق لقلة سالكيه، ومدار توجهه دوماً، بل وأنيس روحه هو كتاب الله سبحانه، وما فيه من مقاصد خاطب الله بها عباده.. هذا وبمقدار عزم المجاهدين تتفاوت درجاتهم، وكمالاتهم الإنسانية؛ لأن العزم هو حقيقة إنسانية الإنسان.

الخطوة الثالثة: التخطيط والرقابة والنقد الذاتي؛ عبر القيام بأدب نبوي هو «المشارطة والمراقبة والمحاسبة».

والمشارطة هي أن يخطط الإنسان ليومه حتى يكون يوماً خالصاً لله وفي سبيل الله، وسبيل الله هو خدمة الناس والقيام بالعمل الصالح «فيشترط على نفسه في أول يومه على أن لا يرتكب اليوم أي عمل يخالف أوامر الله، ويتخذ قراراً بذلك ويعزم عليه»(٦٢).

فتوقيت الزمن الذي سيمارس فيه العمل شرط.. ومعرفة ما يريد شرط.. وتقييم العمل إن كان فاسداً مفسداً أو صالحاً شرط.. وبعث النية للارتباط بالله شرط.. وأخذ القرار النهائي شرط.. والعزم المحمّدي شرط.. وكلها مقدمات لتنفيذ البرنامج والإجراءات اللازمة لتحقيق الهدف بمقتضى تلك الشروط القاضية أن لا يكون الفعل والالتزام عبثيين.. هذا وبعد المشارطة تأتي المراقبة؛ وهي «أن تنتبه طوال مدة المشاركة إلى عملك وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت .. والمراقبة لا تتعارض مع أي من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة»(٦٣).

فبعد التخطيط والبدء بالتنفيذ، لا بدّ من إجراء رقابة على منطلق العمل، وهل كان بحسب الشروط التي تجعله لله سبحانه..؟ والرقابة على نفس العمل في جريان تنفيذه، هل كان بحسب أحكام الله وشرعه الحنيف؟ وما المقصود من هذا العمل؟ هل هو الإخلاص لوجه الله؟ أم لجلب قلوب الناس نحو نفسك وذاتك؟ ولما يحقق المنافع الشخصية والدنيوية..؟ ومثل هذه الرقابة المستمرة، فإنها تضمن سلامة تنفيذ الخطة الموضوعة.. ليصار بعد ذلك إلى البدء بعملية المراجعة والنقد الذاتي والتقويم الممنهج؛ وهذه هي المحاسبة التي تعني «أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع الله؟ ولم تخن ولي نعمتك. فإذا كنت قد وفّيت حقاً، فاشكر الله على هذا التوفيق، وإن شاء الله ييسّر لك سبحانه التقدّم في أمور دنياك وآخرتك، وسيكون عمل الغد أيسر

عليك من سابقه.. واعلم أن الله لم يكلفك ما يشق عليك به، ولم يفرض عليك ما لا طاقة لك به، ولا قدرة لك عليه، لكن الشيطان وجنده يصوّرون لك الأمر وكأنه شاق وصعب.

وإذا حدث - لا سمح الله - في أثناء المحاسبة تهاونٌ وفتورٌ تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكل شجاعة بالمشارطة غداً، وكن على هذا الحال كي يفتح الله تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الصراط المستقيم للإنسانية»(٦٤).

إن قراءة دلالات معنى النص نستفيد منها: أن أي تخطيط ورقابة سيبقيان بلا قصدية، ولا هدف ما لم نمارس نقداً صريحاً مع الذات؛ بغية تقويمها ودفعها نحو الأفضل والأسمى.. حتى إذا ما كانت النتيجة إيجابية، فإن على المجاهد أن يقدِّم حق الطاعة لله بشكره له سبحانه، وهذه سمات الصالحين الذين يسددهم المولى.. إلا أن تحصيل النتيجة الإيجابية لا يعني الاكتفاء بالإنجاز، بل يجب التقدم في العمل، بحيث تصبح كل الحياة خالصة لله. أما إذا ما أساء الإنسان في تخطيطه وعمله، فعليه أن لا ييأس؛ لأن اليأس حرامٌ في قاموس أهل الجهاد الربّاني.. بل عليه العزم على الوفاء، والشجاعة بالإقدام على تجاوز الأخطاء، عبر تصفية النية ودراسة الخطوات من جديد، والسعي الدؤوب في السير نحو تحقيق الأهداف بروحية التوكل على الله سبحانه، عسى أن يتدارك المجاهد ما فات، فيكون من أهل الإخلاص الذين يفتح الله لهم أبواب التوفيق والانتصار على الذات، وسلوك الصّراط المحمّدي المستقيم.. وعلى المجاهد أن يعلم دوماً أن غاية عدوّه هي أن يوقعه في الإحباط واليأس والوهن؛ وذلك بأن يُشعره أن تنفيذ العمل الجهادي أمرٌ مستحيل، وأن الانتصار على قوة العدو بعيدة المنال..

وواقع الأمر أن كسر وتحطيم هذا الشّراك الشيطاني لا يكون إلا باليقين بأن الله هو القدير الذي لا حدّ لقدرته .. وأنه سبحانه لا يكلف الناس ما لا

يطيقون.. فإذا تيقن المجاهد من ذلك، علم أن قدرة الله فوق كل قدرة، وأن العمل الجهادي المطلوب منه أمرٌ متيسّر؛ مهما صعب؛ إذا ما اعتمد على قدرة القدير وانتهج نهج الاقتدار.. حتى إذا ما صار هذا اليقين العلمي عند المجاهد، يقين إيمان واطمئنان تحوَّل فعله دوماً إلى صواب وانتصار؛ لأنه بذلك يصير الشاهد للحق، والذاكر لأنعم الله ما ظهر منها وما بطن..

الخطوة الرابعة: حسن التدبير في رعاية شؤون القوى المتنوّعة، وعدم كبتها في الوقت الذي لا يُسمح لها بالإفراط حتى لا تتحول إلى هلاك.. ومن ذلك أن في الإنسان قوة الغضب وهي التي لو كبتت لتحوّل الإنسان إلى جبان متخاذل لا يقوى على شيء، ولو تركت وأُرسل لها العنان لتحوّلت إلى جبروت وطغيان يبطش ويظلم ويستحوذ على كل شيء، لذا فإن الاستفادة من قوة الغضب دون إفراط هو الذي نسمّيه «الاقتدار» ولو في ملكة أو قوة واحدة من قوى النفس.. إذ في النفس ثلاث قوى هي: «الوهمية والغضبية والشهوانية.. ولكل واحدة من هذه القوى منافع كثيرة من أجل حفظ النوع والشخص وإعمار الدنيا والآخرة.. وهي أيضاً منبع جميع الملكات الحسنة والسيئة»(٦٥). فإذا ما تعامل معها الإنسان بتدبّرٍ وحكمةٍ واشتغل على تربيتها بهمّة؛ فإنه يستطيع أن يجعلها من جنود الرحمن «إذا سلمها للعقل السليم وللأنبياء العظام.. (ولم يطلق) العنان للوهم ليتحكّم في القوتين الأخريين: الغضب والشهوة.. ولم يعد خافياً أن أياً من الأنبياء العظام (ع) لم يكبتوا الشهوة والغضب والوهم بصورة مطلقة، ولم يقولوا بأن الشهوة يمكن أن تُقتل بصورة عامة، وأن يخمد أوار الغضب بصورة كاملة، وأن يترك تدبير الوهم، بل قالوا: يجب السيطرة عليها حتى تؤدي واجبها في ظل ميزان العقل والدستور الإلهي.. لذا جاء الأنبياء (ع) وأتوا بقوانين، وأنزلت عليهم الكتب السماوية من أجل الحيلولة دون الإطلاق والإفراط»(٦٦).

وحسن التدبير في هذه القوى، يقتضي الرشد في معرفتها، وفي كيفية

التعامل معها كواقع قائم، وكيفية الانتقال بها إلى غاية المقصود حتى تؤدي دورها في الصالح العام، للإنسان في إنسانيته.. كما أن التدبير ينبغي أن ينطوي على نحو من القوة الاستثنائية التي يستمدها من العقل الفطري ومن سنن الأنبياء وشفاعتهم، بحيث يستطيع أن يسيطر على كل تفلُّت يقع بواسطة (طائر الخيال) الذي هو من أحابيل إبليس، والذي يعمل على أن يلقي في نفس الإنسان كل صور الضعف أمام الشهوة والغضب، ليغتر الإنسان بكل ذلك، فيخالف ما فيه لله رضا من التوكل عليه والثقة بالنفس العاقلة المفطورة على الخير.. وهذه القوة هي ما يمكن أن نسمّيها بالولاية التدبيرية على النفس وقواها، وهي المؤهلة أن توازن بين المصالح والمفاسد لتستقطب كل منفعة لدى القوى النفسية، وتوظفها بما يحقق الاعتدال بين القوى، والعدالة في الطبع والبناء النفسي، لتجعل من القلب العاقل، والعقل المفطور على الإيمان بحال من الثقة واليقين والاطمئنان أن «القوة لله تعالى وهي المؤثّر في جميع الموجودات»[٦٧].

وهنا ينصح الإمام (قده) قائلاً: «اكتب على قلبك بمداد العقل – مهما قاسيت في ذلك وعانيت – أن لا مؤثّر في الوجود إلا الله.. وأدخل في قلبك بأية وسيلة كانت، التوحيد العملي، وهو أول درجات التوحيد، واجعل قلبك مؤمناً ومسلماً، واختم على قلبك بهذه الكلمة المباركة والختم الشريف (لا إله إلا الله)، واجعل صورة قلبك صورة كلمة التوحيد، وأوصله إلى درجة الاطمئنان، وأفهمه أن الناس لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فالله وحده هو النافع والضار. أزل هذا العمى عن عينيك، وإلا ستكون ممن يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾[٦٨]. وتحشر يوم كشف السرائر أعمى. واعلم أن إرادة الله تعالى قاهرة لجميع الإرادات، وإذا اطمأن قلبك بهذه الكلمة المباركة وتسلِّم لهذه العقيدة، فالأمل أن ينجز عملك»[٦٩].

إن هذا النظام المبني على رؤية جهادية لداخل مملكة النفس، تقارب في

الكثير من عناوينها وجوه مملكة العالم.. فالموقف الجهادي في هذا العالم ما لم يُبنَ على حسن التفكّر والتبصّر بالأوضاع والأحوال. ومعرفةٍ بالذات والآخر، وحجم كل منهما وموقعه في الصراع.. وما لم يكن هناك عزم أصيل في مواجهة المخاطر والزلازل، وتخطيط واضح يستهدف غايات شريفة، متبوع بدقة في الرقابة على المنطلقات والمسار والأهداف، ثم القيام الدائم بتقييم ونقد ذاتي إيجابي لتطوير المؤهلات والإمكانات والخطط وتجاوز العثرات وتعميق فهم الواقع، وحسن التدبير والرعاية والولاية في قيادة القوى أمام صخب الدعايات المشبوهة التي تماثل طائر الخيال، والحروب النفسية التي تماثل الوهم عند النفس.. تحضيراً واستكمالاً لتأكيد الارتباط بالله وحده؛ بحيث لا يرى قلب المجاهد في البين إلا الله، ولا يثق وعيه إلا بقدرته سبحانه.. عندها تنفتح مملكة العالم أمام انتصار نهج اقتدار مملكة النفس بعد أن يُجعل القلب فيها عرشاً للرحمن سبحانه..

ما لم يحصل كل ذلك، فإن قوى الشهوات والرذائل التي جعلت من الحشمة تهتكاً، ومن المعروف منكراً، ومن الفضيلة ضعفاً وجهلاً، ستحكم مملكتي النفس والعالم.. أو أن قوى الغضب والتي يمكن أن تجعل من الناس ذئاباً يأكل الواحد منهم الآخر،.. وينظرون إلى أنفسهم المتعالية فينزلونها منزلة الآلهة، التي ترسم مصير العالم وأقدار الناس ستكون لها وحدها الحاكمية المدمّرة..

فتتشكّل من هذه الصور الثلاث: الوهم بما يعنيه من سياسة الأكاذيب، والقوة بما تعني من حرب وبطش، والشهوة بما تعنيه من رغبة بالذات واستحواذ على الآخر، معالم المشهد الأخير لحضارة قوة الاستحواذ.. وهي حضارة نشأت منذ أن كان الاختلاف بين الناس في بواكير عمر الإنسانية.. إذ قامت قوى تمردت على تآلف الناس، وعاثت فيهم فساداً، فنصبت نفسها آلهة من دون الله، لتحول دون وحدة البشرية وارتباطها بالله الواحد الأحد.. وهي الحالة التي أسماها القرآن بالفرعونية.. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ

﴿أهلَهَا شِيَعا﴾[٧٠].. «فالفرعونية على مرّ التاريخ، تبني العلاقات بين الإنسان والإنسان على أساس الظلم والاستغلال، وتجزيء المجتمع، وتبعثر إمكانياته وطاقاته»[٧١]. وتجعل من واقع المجتمعات مجرّد مظاهر وطوائف محكومة لـواقـع حضـاري واحـد هـو «حضـارة فـرعـون، الأقـوى والأكثر هـيـمـنـة واستحواذاً»[٧٢]. وتدفع بذلك نحو تقسيم الحياة إلى قسمين: ظالم وهو فرعون وقوته وإدارته المركزية للعالم.. ومظلومون يُقسّمهم فعل فرعون وقيمه السائدة إلى طوائف.. منها من يتملّق لفرعون عبر تحريضه على كل مقاوم ومجاهد ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾[٧٣]. ومنهم الذين ينساقون دون وعي أو إدراك، بل كل ما يحرّكهم هو حسّهم العصبي والمذهبي أو غير ذلك، فيتبعون سادتهم بطريقة عمياء ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾[٧٤].

ومنهم من يعي الواقع الظالم لكن إرادته مكبّلة فلا ينتفض على الظلم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾[٧٥].. ومنهم المنعزلون تحت عنوان الحيادية أو اعتبار أنفسهم أنهم أهل قداسة، وبالغالب فإن هؤلاء يستخدمهم المستكبر ليحقق بهم بعض تضليلاته..

وأخيراً، فإن هناك طائفة يخشاها المستكبر، فيعمل على إذلالها وتجهيلها وإبعادها عن ساحة التأثير لئلا «تشكل إطاراً للتحرك ضده، ولهذا استضعفها بالذات.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾[٧٦].

وقد علّمنا القرآن الكريم ضمن ستة من سنن التاريخ، أن موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم، يتناسب عكساً مع موقعه بعد انحسار الظلم، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٧٧]»[٧٨].

وهـذا الـواقـع الـفـرعـوني لمواجـهـتـه وتـدمير قـوة الاسـتـحـواذ في مـعـالمه الحضارية، لا بدّ من التعامل معه كشيطان يتربص بأهل الخير، شراً، ولا بدّ من مواجهته كمواجهة النفس الشيطانية.. وبمقدار ما يتحقق في دائرة الجهاد الأكبر الذي يمارسه المجاهد، تأمين قاعدة انطلاق لحركة المواجهة والاقتدار، من داخل البناء النفسي للمجاهد، والذي يؤهّله لخوض جهاد حضاري فاعل في العالم فإنه سيقدر على تحقيق الإنجاز العملي في الساحة الاجتماعية وفي مواجهة قوى الظلم.. إلا أن هناك مسألة بالغة الأهمية ولا بدّ من التركيز عليها، وهي أن هذا البناء النفسي للفرد لا يمكن لنا الانتقال منه إلى المواجهة المفتوحة مع حضارة قوة الاستحواذ الاستكباري بشكل مباشر، إذا أردنا أن نرى تباشير الانتصار. بل لا بدّ من العمل على تغيير الواقع النفسي للأمة المظلومة على حسب نهج الاقتدار.. «فالمحتوى النفسي والداخلي للأمة كأمة، لا لهذا الفرد أو ذاك، هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغييرات في البناء العلوي للحركة التاريخية كلها.. والقرآن يؤمن بأن العمليتين يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب؛

١-عملية صنع الإنسان لمحتواه الداخلي، لفكره وإرادته..

٢- مع البناء الخارجي..

ولهذا سمى الإسلام عملية بناء المحتوى الداخلي، إذا اتجهت اتجاهاً صالحاً بالجهاد الأكبر؛ تأكيداً منه على قاعدية المحتوى الداخلي. وسمّى عملية الجهاد الخارجي بالجهاد الأصغر، واعتبر أن الجهاد الأصغر إذا فصل عن الجهاد الأكبر فقدَ محتواه ومضمونه، وقدرته على التغيير الحقيقي على الساحة التاريخية والاجتماعية. ومن هنا نجد القرآن يعرض لحالة من حالات انفصال عملية البناء الخارجي عن عملية البناء الداخلي، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ

وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[٧٩].. فالإنسان إذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه وأعماق روحه، ولم يبنِ نفسه بناءً صالحاً لا يمكنه أبداً أن يطرح الكلمات الصالحة؛ لأن الكلمات الصالحة إنما يمكن أن تتحول إلى بناء صالح في المجتمع، إذا نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها تلك الكلمات، وإلا فتبقى مجرّد ألفاظ جوفاء دون أن يكون لها مضمون ومحتوى. فمسألة القلب هي التي تعطي للكلمات معناها، ولعملية البناء الخارجي أهدافها ومسارها»[٨٠].

وبموجب ذلك، فإن الإمام (قده) حينما كان يتحدث في كتاب «الأربعون حديثاً»، فإنه كان يتناول البناء النفسي والقلبي للفرد الذي ينطلق لبناء المحتوى النفسي للجماعة .. وحينما كان يتحدّث في خطاباته ووصاياه وتوجيهاته، فإنه كان يتحدث حول الجهاد الأكبر للأمة، التي ينبغي أن تتحضر لتحقيق مستقبل العالم والانتصار على قوى البغي، وحضارة قوة الاستحواذ المركزي للاستكبار الأميركي..

منطلقاً في مجمل توجيهاته، على أن محور هذه العملية التغييرية هو ربط الأمة بتوحيد الله المحيط بقدرته، والقاهر لكل قوة وبالاقتدار بالأهداف النبوية العلوية، وأن البناء الحضاري لأي مجتمع لا بدّ أن يُقام على أساس تصورات خاصة للمستقبل متناسبة مع محور بنائه الذاتي.. فإذا كان التوحيد والنبوة والإمامة وإقامة العدل هي أصول هذا البناء لأمة نهج الاقتدار، فإن المستقبل المتصوَّر لديها هو دفع التاريخ ليوم يسود فيه القسط والعدل، على يد وارث الأنبياء والأوصياء (ع)، ومحقق حلم المستضعفين «قائم آل محمد (ص)».. والتسابق للخيرات استعداداً ليوم اللقاء، يوم الدين، يوم يقوم الناس، كل الناس لربّ العالمين..

وقد أثار الإمام (قده) نقطتين هامتين، واعتبرهما هدفين تربويين، ينبغي العمل عليهما لصنع حضارة نهج الاقتدار وهما:

النقطة الأولى: تقوية يقين الأمة بأن النصر من عند الله، وبأن الله ينصر من ينصره..

بل واليقين أن الأمة قادرة على رسم مصيرها وصنع استقلالها ومستقبلها بجدارة وكفاءة عاليتين «إن يقين الإنسان هو أساس جميع الأمور»[٨١].

واليقين الذي يقصده الإمام (قده) هو الثقة بقدرة الشعوب المستضعفة على تحقيق الإنجازات.. فالدول القوية لطالما سعت إلى إقناع الشعوب والدول المستضعفة بأنها عاجزة، وجروها إلى الفساد والتخلّف .. «فلو كان يقين الإنسان ضعيفاً تجاه أي عمل، فإنه لن يستطيع القيام به، وأن الانهزام هو عاقبة أصحاب هذا الاعتقاد بعدم الاقتدار»[٨٢].

«وأن هذا سببه تلك المخططات التي وضعتها القوى العظمى للشعوب المستضعفة في العالم، وقد عملوا ضمن دعاية واسعة.. بحيث حصل يقين عند هذه الدول بأنها لا تستطيع فعل أي شيء، وأنها لا تتمكن من القيام بأي شيء من الأمور المدنية والعسكرية والصناعية وسائر الأمور الأخرى التي تدخل ضمن التمدن البشري، وينبغي الانقياد إلى الغرب والقوى العظمى»[٨٣].

هذا علماً أن «اليقين على نوعين: يقين الضعف والعجز والخوار.. ويقين القدرة والقوة والاستعداد. فلو أن شعباً كان متيقّناً بأنه قادر على الوقوف بوجه القوى الكبرى، فإن هذا اليقين سيكون سبباً ليجد في نفسه القوة، ويقف بوجه القوى الكبرى، فهذا النصر الذي حققتموه إنما كان بسبب اعتقادكم ويقينكم بأنكم قادرون»[٨٤].

فاليقين هو الباعث النفسي لقدرة أي أمة على صنع إنجازاتها ومستقبلها ومواقفها..

ومن مظاهر هذا اليقين والاقتدار، الإصرار على المواجهة ولو كان الثمن «القتل في سبيل الله، والمستضعفين، وقضايا الحق»..

وهذا هو المقصود بطلب الشهادة واعتبارها فوزاً كبيراً..

«إن انتصار شعبنا كان بسبب التوكل على الله، وقد حصل تغيير في شعبنا.. وهو أنهم اعتبروا الشهادة فوزاً كبيراً بالنسبة إليهم»[٨٥].

فالجديد في هذه العبارة للإمام؛ أنه يشير إلى حصول تغيير في الشعب أوصله إلى الانتصار، وهذا التغيّر هو في نظرته للشهادة، واعتبارها فوزاً كبيراً.. وهذا يعني حصول تغيير في المضمون الثقافي؛ عند وعي الشعب والأمة؛ والذي ربط الدنيا بمسار يمتد إلى الآخرة، وجعل ميزان الحكم على ما يحصل في الدنيا هو ما ينتظرهم في الآخرة، فعندما يكون القتل مرتبطاً بمسار يمتد للآخرة، فلا يعود القتل موتاً وخسارة، بل هو حياة وشهادة ورزق من عند الله، وفوز كبير **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾**[٨٦].

وهذا ما يدخلنا إلى:

النقطة الثانية: والتي تتعلق بالمضمون والشكل والتوجه الثقافي لبناء نهج الاقتدار .. لأن «الثقافة هي أساس الشعب وأساس قومية الشعب وأساس استقلال الشعب».

والثقافة عند الإمام الخميني، ليست تراكمات كمية من الأخبار والمعارف، بل هي الرؤية الحضارية والإنسانية التي تصنع الهوية المضمونية وملامح شخصية أي جماعة وأمة.. لذا فإنها رؤية تربوية وفكرية تطمح لإحداث التغيير في حياة الجماعة الإنسانية .. «إن ما يصنع الشعوب هو الثقافة الصحيحة»[٨٧]. و «أن ثقافة أيّ مجتمع هي التي تحدد أساساً هوية ذلك المجتمع ووجوده، فإذا انحرفت الثقافة، فإن المجتمع يكون أجوف فارغاً مهما حقق من القوة في الجوانب الاقتصادية والسياسية والصناعية»[٨٨].

بل وهيَ بحسب الإمامَ رسالة تحمل مشروع الإسلام إلى العالم، لذا، «يجب على المثقفين الإسلاميين جميعاً؛ ومن خلال العلم والوعي؛ أن يسلكوا الطريق الصعب لتغيير العالم، ويجب على جميع المتحرّرين؛ ومن خلال الوعي والتوعية

أن يرسموا الطريق للشعوب الإسلامية المظلومة والعالم الثالث»[٨٩].

ويعتبر الإمام (قده) «أن مثل هذه الثقافة الرسالية ينبغي أن تتشكل على أساس الوعي بحقيقة أن الله هو الحقيقة التي نعمل على أساس هديها.. كما وأنها ثقافة نهضوية تقترن بإرادة مقتدرة وبالوعي. وبالإرادة الواعية المقتدرة يتشكّل نهج الاقتدار «كل عمل أوله فكر وبداية، كل عمل هو التفكّر والتأمّل في جوانبه، ولو برز الضعف إلى نفوسنا فلا يمكننا العمل.. قوّوا نفوسكم وقلوبكم وانقطعوا إلى الله، فهذه الأدعية الواردة تدعو إلى التوكل على الله؛ لأنه مركز القدرة. وهذه الدعوات الواردة بعدم التشبث بغير الله لكي تستشعروا القوة، فأنتم عندكم سند عظيم هو الله، ومن أيّ شيء يخاف ذلك الذي عنده الله؟ ومن أي قوة تخافون، أنتم الذين تريدون العمل لله؟ هل تخافون من الشهادة؟ وهل في الاستشهاد خوف؟»[٩٠].

فثقافة الانقطاع إلى الله، والوعي، أنه سبحانه هو مصدر الاقتدار وإليه المصير، ووعي، أن من توكل عليه نجا.. لا بدّ أن يؤسّس لمظاهر سلوكية في الوعي الثقافي منها: التصدي للطغاة، والثبات على الحق، واعتبار الشهادة فوزاً كبيراً..

ومن هنا، فإن الحرص على حفظ استمرار هذه الثقافة واجب ديني وتحريري إذ «كلكم تعرفون، وكلنا يعرف أن أيّ انحراف يصيب ثقافة دولة ما، مهما كانت مؤسّسات وسلطات تلك الدولة متمسّكة بالصراط المستقيم، وبالاستقلال والتحرر من قيود الشيطان، ومهما كان الشعب متمسّكاً بالإسلام، ومطبقاً لأحكامه وشرائعه، فإن الانحراف الثقافي سيتغلب عليهم جميعاً عاجلاً أم آجلاً، وسيجرهم إلى الانحراف رضوا أم أبوا، وسيجعل من الجيل القادم ينظر إلى الانحراف على أنه الطريق القويم، ويتقبّل الإسلام المنحرف بدل الإسلام الحقيقي ليغوص هو ووطنه في متاهات الضياع»[٩١].

ومن مظاهر الانحراف الثقافي الشعور بالوهن والضعف أمام الاستكبار

والتبعية للخارج دون الاعتماد على الذات في مجال التنمية والتطور العلمي والصناعي وغير ذلك.. ومن مظاهر الانحراف الطغيان «فعندما يرى الإنسان نفسه، ويرى لنفسه مقاماً ويرى لنفسه عظمة فإن هذه الأنانية ورؤية النفس تكون سبباً للطغيان وأن أساس كل هذا الاختلاف الحاصل بين البشر.. يعود إلى الطغيان»(٩٢).

ومن مظاهر الانحراف التهتك وثقافة الحرية اللاأخلاقية.. «لنعلم جميعاً أن الحرية على الطراز الغربي تؤدي إلى تدمير الشبان.. إنهم يريدون من خلال كلمة الحرية التي يلقونها في عقول الشباب أن يفرضوا سلطتهم عليكم ويسلبوا حريتكم»(٩٣).

ومن مظاهر الانحراف الاغترار بالنفس عند تحقيق الإنجازات والانتصارات، ونسبتها إلى نفس المجاهد دون الله. «هناك مسألة مهمة كرّرتها مراراً وأكرّرها الآن، وهي أن على الشعب العزيز المجاهد، وخاصة المقاتلين الأبطال والمجاهدين في سبيل الله أن يعلموا أن الغرور بالنصر هو من الآفات الكبيرة التي يوجدها الشيطان الداخلي في عباد الله لحرفهم عن طريق الحق، وإضعافهم في مسعاهم لتحقيق الأهداف الإلهية، وهذه الحالة الشيطانية لو بلغت الجبهات، - لا سمح الله- ؛ لتوقفت الانتصارات وحلّت محلها الهزائم.. ينبغي على مقاتلينا الأعزاء أن لا يفكروا أن هذا النصر قد تحقق دون إمدادات إلهية.. فنحن لا نملك شيئاً، وكل ما نملكه تحقق من عند الله سبحانه وتعالى، ويجب أن نضحي به في سبيله»(٩٤).

كما وأن من أخطر مظاهر الانحراف الثقافي أن تتحوّل الثقافة إلى جدل عقيم، ولا نقدّم الجديد الذي يبعث في الحياة الاجتماعية والحضارية الأمل بالمستقبل، والقدرة على تحقيق الأهداف، والترقي في تحكيم نظام العدل في الحياة، ولو ببذل الروح والأهل في سبيل هذه الأهداف النبوية.. لذا ومن منطلق هذه الروحية الثقافية المتوثبة نحو التقدّم والحرية المسؤولة، وربط الدنيا

بالآخرة، كان حب الشهادة واعتبارها فوزاً كبيراً، هو ميزان صحة وصدقية الثقافة الإسلامية التي نحملها ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٩٥). وتمني الموت هنا هو سبيل ملاقاة الله بإخلاص في النية والعمل والتوجه، لتحقيق شهادة من نفس مطمئنة..

وهؤلاء يقول فيهم الإمام: «إنهم النفوس المطمئنة الذين يخاطبهم ربهم بقوله: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾(٩٦) فهنا البحث عن العشق، واليراع لا يمكنه ترسيمه» (٩٧)... «كل ما للدنيا فان، وكل ما لله يبقى، وهؤلاء الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، لقد نالوا الرزق المعنوي الأبدي لدى ربهم، لأنهم قدَّموا كل ما وهبه الله إليهم، وسلموا إليه الأمانة، ولقد قبلهم الله»(٩٨).

خلاصة الأمر، أن اليقين والثقافة إذا اقترنا بإرادة وعزم في الارتباط بالله سبحانه وبناء الحياة على أصول العدل، فإنهما سيشكّلان صورة نهج الاقتدار الذي يغيّر كل المضمون النفسي للأمة ليدفع بها نحو حياة المجد والاقتدار والنعيم الذي أراده الله سبحانه.. كما يدفعنا بها لاستبدال قيم الإسلام بدل قيم الطغيان.. وهو ما عبّر عنه أجمل تعبير الإمام الخامنئي بقوله: «إن مدرسة الثورة التي أسسها الإمام تأبى أيّ نمط من الإسلام المسخَّر للتبر والقهر، وبالتالي الإسلام الذي تسيّره أيدي القوى الغازية على أرواح الشعوب...

وتحتضن بكل شوق الإسلام القرآني المحمّدي، إسلام العقيدة والجهاد، الإسلام المعادي للظالمين، المعين للمظلومين، الإسلام المقارع لكل فرعون وقارون.. وندعو إلى الإسلام المحطّم للجبابرة، المقيم لحكومة المستضعفين..

في ثورتنا الإسلامية يحل إسلام الكتاب والسنة محل إسلام الخرافة والبدعة.

إسلام الجهاد والشهادة محل إسلام القعود وتقبل الأسر والذل.

إسلام التعبّد والتعقل محل إسلام الالتقاط والجهل.

إسلام الدنيا والآخرة محل الإسلام الراكن للدنيا أو الرهبانية.

إسلام العلم والمعرفة محل إسلام التحجّر والغفلة.

إسلام الدين والسياسة محل إسلام التحلل واللامبالاة.

إسلام القيام والعمل محل إسلام الخور والملل.

إسلام الفرد والمجتمع محل إسلام المراسم الرسمية الخاوية.

والإسلام المنقذ للمحرومين محل إسلام الألعوبة بيد القوى.

وخلاصة الأمر، الإسلام المحمّدي الأصيل محل الإسلام الأميركي»[٩٩].

هذه هي معالم ثقافة الاقتدار التي رسمها الإمام واعتبرها من النقاط المركزية في بناء المحتوي النفسي والداخلي للأمة الإسلامية.. وأنها سر قوة التغيير التي يمكن أن تمارسها هذه الأمة في حركة أهدافها وفي صراعاتها وحروبها، كما وفي عملية بنائها وتطويرها المجتمعي..

يبقى أن نتقدم بالكلام؛ بعد توضيح الأساس المنهجي لعملية التغيير التي اقترحها الإمام، والتي أسلفنا الكلام فيها عن تغيير ما بالأنفس، لنشرع في الحديث حول الخطوات المنهجية التي قدمها ومارسها الإمام الخميني في الحركة التنفيذية لتطبيق نهج الاقتدار، برسم الهدف الخاص بالأمة في عصر الإمام، وكيفية الوصول لتحقيق الانتصار لهذا الهدف. وهو ما سيشكل مجمل الأساس الثاني لعملية الانبعاث الإسلامي التي قام بها الإمام (قده)..

الأساس الثاني، وهو القيام لله سبحانه:

وبعد أن ترسخ الأساس الأول الذي هو تغيير ما بالأنفس، سواءً على المستوى البناء الفردي، والذي يبتغي أن يكون ظاهر المجاهد كظاهر رسول الله (ص)؛ لأنه هو غاية الشرف لكل مؤمن ومجاهد..

ومثل هذا الظاهر لا يتناسب إلا مع القيام لله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾[١٠٠]، أم كان تغيير ما بالأنفس على مستوى البناء الداخلي للأمة المجاهدة التي اصطفاها الله سبحانه لتكون شاهدةً على الأمم ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[١٠١]؛ والشهادة على الناس هي إقامة الحجة عليهم بأخذ

دور طليعي يكسر قيود الظلم، ويهدم أعمدة الطغيان.. ومثل هذا الدور الطليعي لا بدّ فيه من القيام والتحرك لله وفي سبيل الله سبحانه...

بعد هذا، كان الأساس الثاني (القيام لله) تحركاً نهضوياً ثورياً لتغيير معالم الواقع وجوهره، وإحلال الإسلام والعدل، بدل الجاهلية الظلماء.. وقد تناول الإمام الخميني كيفية التحرك في الفصل الأخير من كتاب «الحكومة الإسلامية».. الذي أول ما أعلن فيه تحديد الهدف الخاص بالواقع المعاصر في إيران وهو «علينا أن نسعى بجد لتشكيل حكومة إسلامية»[١٠٢]. فإيران بلد مسلم بعموم أهله، من الذين تحوّلت هويتهم الوطنية، وإرادتهم القومية، إلى إرادة وهوية إسلامية الانتماء.. وقد قدّم هذا البلد الكثير في تاريخ التجربة الإسلامية.. إلا أن الاستعمار الذي غزا المنطقة عمل على تقويض الدين في حياة الشعب، بغية صياغة الهوية الإيرانية على شاكلة تركيا أتاتورك[١٠٣]، ولهذا فإنه سعى إلى تطويع الأسرة البهلوية[١٠٤] الحاكمة، وجعلها تابعة بالكامل لإرادة المستعمر، من أجل الوصول إلى ربط إيران نهائياً بالمشروع الاستكباري في المنطقة من جهة، وعدم السماح لأي جهة أن تعترض على نهب الخيرات الوطنية من جهة أخرى.. وهذا ما لاقى على الدوام معارضة ومقاومة شيعية قادها على علماء دين كآية الله الكاشاني[١٠٥]، وآية الله السيد حسن المدرّس[١٠٦] وغيرهما، كما والكثير من الأحرار الإيرانيين..

الأمر الذي جعل الواقع الإيراني ضمن دائرة صراع بين إرادة الاستبداد البهلوي؛ ومن خلفها إرادة وإدارة قوى الاستحواذ الغربي والأميركي على وجه الخصوص.. وبين إرادة الرفض الشعبي ومن خلفها إرادة العلماء المجاهدين، الذين كانت تنقصهم إدارة قوية تتناسب وإرادة التغيير التي يحملونها، فجاء الإمام الخميني من قلب المؤسسة التي تحفظ قدسية الرسالة النبوية «الحوزة العلمية»، وبدأ انطلاقاً منها بتشكيل إدارة ناظمة لإرادة التغيير الشعبي، مقدّماً بذلك نموذجاً مغايراً لكل الحركات الإسلامية المعاصرة التي انتهجت في

الإدارة، النموذج الحزبي، القائم على ضميمة الجماعة الحزبية، والتي لطالما افترقت عن طبيعة الولاءات التقليدية الشعبية في إدراتها التي استبدلت فيها (الأحزاب) المساجد بالمكاتب الحزبية، والحج العالمي بالمؤتمر السنوي للحزب، وأئمة المساجد والقرى والعلماء والفقهاء بالشخصيات والقيادات الحزبية، وشعائر عاشوراء ببعض المناسبات الخاصة.. وغير ذلك.. بل استبدلت وظيفة الفقيه القيادية (الولي الفقيه) بالزعامة الحزبية .. جاء الإمام ليُحدث منعطفاً يعيد فيه الأمور إلى نصابها وليقول لكل الحركات، خذوا الشكل الذي ترونه مناسباً شريطة أن تكون حافظة للهدف العقائدي العام، وللنموذج، النبوي في التحرك، وللتماهي مع إرادة التغيير الشعبي بولاءاته للمسجد والحج والعبادة والشعائر الحسينية وعلماء الدين والمرجعية وولاية الفقيه.. فضمن هذه الضوابط يُصحّح أي عمل تنظيمي يبتغي إدارة قوى التغيير، وهذه هي سجية نهج الاقتدار في حركة الصراع ضد الباطل. أمام هذا الواقع وهذه الانعطافات بالواقع نحو روح الرسالة النبوية حدَّد الإمام الهدف الشرعي والذي يمكن فعلاً تطبيقه في إيران، رغم الصعاب العظام التي تعترض تنفيذ مثل هذا المشروع.. والذي أعلن عنه عند كل مناسبة وحتى اللحظات الأخيرة من حياته، هو إقامة الدولة الإسلامية و«الحفاظ على الجمهورية الإسلامية واجب عيني، ومن أهم الواجبات والقضايا الحياتية»[١٠٧].

فإقامة الدولة الإسلامية كانت الهدف الخاص الذي ينسجم مع الهدف العقائدي النبوي، للأنبياء (ع) بإقامة الدين والعدل.. ولبعثة النبي محمد (ص) بإقامة دولة الحق والعدل، ولهدف الأئمة بحفظ معالم الدين ومصالح العباد.. لذا، فإن قدسية الهدف الخاص تمنع من أن نتعامل معه كأسلوب تكتيكي قابل للتفاوض، بل هو وسيلة تقرب إلى الله سبحانه.. وهكذا كل هدف تشخّصه جماعة أو شعب في واقع جغرافي ؟ سياسي، أو بيئة ثقافية ؟ حضارية معينة فعليها انتقاء الهدف القدسي الذي يحتضن الهدف العقيدي، وينسجم

مع الواقع، ويشكل وسيلة تقرب إلى الله سبحانه؛ ومن أمثلة هذه الأهداف القدسية الخاصة «المقاومة الإسلامية في لبنان».. إذ إن حفظها لا يعد من الأمور القابلة للتفاوض والمساومة؛ لأنها من أقرب ما يُقرِّب إلى الله سبحانه..

بعد تحديد الهدف، ووضوح علاقته بالعمق العقيدي تبدأ التحركات والتي منها:

الخطوة الأولى: تشكيل الجماعة المجاهدة والواعية للهدف، والمستعدة لتقديم كل ما تملك من أجل تحقيق هذا الهدف.. إذ «الأفكار تتفاعل عند مجموعة من الأشخاص، ثم يكون تصميم وتخطيط، ثم البدء بالعمل، ومحاولة نشر هذه الأفكار وبثها من أجل إقناع الآخرين تدريجياً»[١٠٨].

بعد نضوج الأفكار، والتخطيط للنجاح، والبدء بالعمل لبثّها بين الناس وإقناع الآخرين بها؛ تبدأ عناصر القوة والاقتدار ونضوج الفرص تتوفر لدى المجاهد «فلم تكن القوة حليفة الأفكار من أول يوم» [١٠٩]، بل ينبغي العمل على تحصيلها بإيمان وصبر وتصميم.

الخطوة الثانية: اعتماد الناس كقاعدة حصانة للنهضة، والعمل الدؤوب على توعيتها بالأهداف عبر الصراع الذي يفضح جرائم الظلم «وفي هذا كله ينبغي أن تتخذ من الشعب بكل قواه قاعدة رصينة يرتكز عليها ويركن إليها، مع العمل الدائب على التوعية الجماهيرية من أجل فضح خطط الإجرام.. ويتم تدريجياً استقطاب الجماهير كل الجماهير، ويتم بعدها الوصول إلى الهدف»[١١٠].

فالوصول إلى الهدف - حسب الإمام - يكون باعتماد كل الشعب والجماهير؛ بكافة شرائحها الثقافية والطبقية والدينية؛ لأن الاقتصار على جزء منها لا يوصل إلى تحقيق وحدة شعبية تصنع النصر.. ثم إن التوعية لا تقتصر على الكتابة والتوجيه وإن كانتا مطلوبتين إلى درجة أن الذي يتتبع اليوم خطابات الإمام الخميني قد يستطيع أن يتعرّف إلى الأحداث التفصيلية

آنذاك، وكأنه في قلب الحدث، لكن هذا لا يكفي، بل لا بدّ من فتح صراع عملي مجبول بالبذل والتضحية والجهاد والشهادة ليكون هناك وعيٌّ حقيقيٌّ؛ وعلى حسب نهج الاقتدار المحمدي الأصيل،..

الخطوة الثالثة: تثوير الفقه ليكون فقه حياة تنهج نهج الاقتدار، ومثل هذا الفقه ليس شيئاً مختلفاً عن الفقه التقليدي، بل هو نفسه لكن بلحاظ دوره في بناء الإنسان والمجتمع والتاريخ.. وهكذا تثوير العبادة بالتزام أبعادها المعنوية والسياسية، وتثوير الشعائر الدينية الواجبة كالحج أو المستحبة كالزيارات والأدعية والمجالس العاشورائية؛ ليكون التثوير نحو الهدف من نفس عمق الارتباط الديني بالله سبحانه..

ويقترح الإمام، انطلاقاً من هذه الخطوة وعلى شاكلتها نسج مجموع من المناسبات التي تمثل منعطفات حساسة في حياة الناس، لإحيائها على غرار إحياء المناسبات الدينية المستحبة، خاصة تلك المشابهة للمجالس الحسينية؛ فمثلاً إحياء يوم للانتفاضة، ويوم التحرير، ويوم للشهيد، ويوم للانتصار وغير ذلك قد يجعل من هذه الأيام مفاصل تصوغ تاريخ التجربة النهضوية المعاصرة وتربطها بالتجربة النهضوية النبوية ويتم فيها، وعلى الدوام، ربط الناس بالله وبالعقيدة الجهادية «وكما تحتفظون بذكرى عاشوراء الحزينة، ولا تفرّطون بها، فتلكن المصائب التي حلّت بدين الإسلام من أول يوم وإلى يومنا هذا عاشوراء جديدة تحيون ذكراها باستمرار. وإنكم إذا تحدثتم عن الإسلام بكل إخلاص، وأظهرتم الإسلام على أصوله وأحكامه وأنظمته الاجتماعية، فإن الناس يرحّبون بهذا الدين ويتبعونه، والله يعلم أن محبي الإسلام كثير، ولكنهم جاهلون لأكثر أحكامه»(١١١).

الخطوة الرابعة: نشر تعاليم الإسلام وتبيان حقيقة نهج الاقتدار وتأثيراته على حياتهم، وذلك باعتماد الحجة والأدلة المقنعة، التي تقدّم هذا النهج وهذه التعاليم بطريقة استنهاضية مؤثرة «يا أبناء الإسلام، كونوا أشداء أقوياء في

بيان حجتكم للناس لتغلبوا عدوكم بكل عساكره وأسلحته وحرسه . بيّنوا الحقائق للجماهير واستنهضوهم، وانفخوا الجهاد والاقتدار في حياة أهل السوق والشارع، وفي العامل والفلاح، والجامعي .. الجميع حينها سيهبّون للجهاد، الكل يطلب الحرية والاستقلال والكرامة والسعادة»(١١٢). فعندما يُقدَّم الهدف الإسلامي لحياتنا وواقعنا بطريقة مقنعة، فإن الناس ستلتف حول الهدف المحدّد.. ستلتف حول الحكومة الإسلامية، أو حول المقاومة والانتفاضة والمعارضة.. وسترى الناس تعاليم الإسلام في تجسّدها الباعث للحياة نحو الاقتدار..

الخطوة الخامسة: العمل على النفس الطويل، وعدم حرق المراحل؛ لأن الأصل في العمل لتحقيق الهدف ينبغي أن يكون بمضمون روحي مرتبط بمرضاة الله، وأداء التكليف برفع الضيم عن الناس.. فحتى لو توقعنا أن يكون الانتصار قريباً، إلا أن العمل في سبيل تحقيق الأهداف ينبغي أن يكون بعقلية من يريد إنجاز العمل، ولو بمقدار أن يفتح الطريق إليه لتستكمله الأجيال فيما بعد «نحن لا نتوقع أن تؤتي تعليماتنا وجهودنا أكلها في زمن قريب، لأن ترسيخ دعائم الحكومة الإسلامية يحتاج إلى وقت طويل وجهود مضنية، ونحن نرى كثيراً من العقلاء يضعون حجراً ليبني عليه الآخرون بناءً ولو بعد مائتي عام»(١١٣). وهذه كانت سيرة الأنبياء في رسالتهم الإلهية، وكانت سيرة النبي (ص) ومن خلفه من الأئمة (ع).. وهكذا عمل المجاهدون في مسيرتهم الجهادية الطويلة والمضنية حتى حفظوا أصل الأهداف، وقيم التحفّز نحو تحقيقها وجعلها واقعاً نعيشه في حياتنا..

الخطوة السادسة: إصلاح المؤسّسات القيادية والإرشادية والتعليمية بما يتناسب مع إدارة إرادة التغيير، وإجراء تطوير فيها يتناسب مع قيادة ومتابعة مسيرة نهج الاقتدار الذي أراده الإمام أن ينصح وجه الحضارة العالمية.

وأهم ما ينبغي إصلاحه هو اليقين بالقدرة على التغيير والتطوير وقيادة

هـذا المجتمـع أو تلك الحكومـة، بل وقيـادة العـالم، باسـتقـلال واعتمـاد علـى الاستعدادات والكفاءات الخاصة «والله يعلم أن جدارتكم وأهليتكم على تولي أمور النـاس لا تقل عن الآخرين، سوى أننا لا نملك الإقدام والجرأة على القتل بـغير الحق، ولا نملك الجرأة عـلـى الجور والـظـلـم، لأن ذلك لـيس مـن اختصاصنا»[114]. بـل واليـقين بـقـدرة الإسلام علـى قيادة شؤون الأنـظـمـة والقوانين والأفكار الباعثة روح التطور والتجديد في حياة النـاس.. وهذا اليقين ينبغي أن يتمظهر بالدفاع عن الإسلام ضد كل الشبهات التي تثار في وجهه.. بل وضد كل مظاهـر التلبّس بالقداسة من أجل الإساءة إلى الإسلام.. وذلك على أرضية إبراز وتقديم هذا الدين كنهج اقتدار محمدي أصيل إنما بعث الله كل الأنبياء على صراطه، وفي سبيل إخراج الأمم والشعوب به من الظلمات إلى النور والعدل والاقتدار..

الخطوة السابعة: نقل إدارة شؤون الشعوب من يد حكام الظلم والجور إلى نفس المستضعفين «وصيتي إلى جميع مسلمي العالم ومستضعفيه هي: يجب أن لا تجلسوا منتظرين أن يأتي حكّام بلدكم، ومن يعنيهم الأمر أو القوى الأجنبية ويجلبوا الاستقلال والحرية هدية لكم.. نحن وأنتم شاهدنا، على الأقل في هذه المائة سنة الأخيرة؛ التي دخلت فيها أقدام القوى العالمية الكبرى بالتدريج إلى جميع البلاد .. الإسلاميـة وسـائـر البلاد الصغيرة .. شـاهـدنـا وشـاهـدتم أو حدثتنا التواريخ الصحيحة أن أياً من الدول الحاكمة في هذه البلاد لم تكن- وليست - تفكر بحرية شعوبها واستقلالها ورفاهيتها، بل إن أكثريتها الساحقة إما أنها هي تمارس على شعوبها الظلم والكبت، وكل ما فعلته فهو لمصالحها الشخصية أو الفئوية، وإما أنها تسعى لرفاهية الشريحة المرفّهة والمترفة فيما بقيت الطبقات المظلومة من ساكني الأكواخ والأقبية محرومة من كل مواهب الحياة، حتى مثل الماء والخبز وما يسدّ الرمق. وقد سخّرت الحكومات أولئك البائسين لخدمة الطبقة المرفهة والماجنة، أو أنها كانت أدوات للقوى الكبرى

التي استعملتها لتحقيق المزيد من تبعية الدول والشعوب فحوّلوا هذه الدول بالحيل المختلفة إلى سوق للشرق والغرب وتأمين مصالحهما، وإبقاء الشعوب متخلفة استهلاكية، وهم الآن يسيرون وفق هذه الخطة، وأنتم يا مستضعفي العالم، وأيتها الدول الإسلامية ومسلمي العالم، انهضوا وخذوا حقكم بقبضاتكم وأسنانكم، ولا تخافوا الضجيج الإعلامي للقوى الكبرى وعملائها العبيد، واطردوا من بلادكم الحكّام الجناة الذين يسلّمون حصيلة أتعابكم إلى أعدائكم وأعداء الإسلام العزيز، ولتأخذ الطبقات المخلصة الملتزمة بزمام الأمور، واتحدوا جميعاً تحت راية الإسلام المجيدة، وهبّوا للدفاع في مقابل أعداء الإسلام ومحرومي العالم، وامضوا قدماً نحو دولة إسلامية واحدة بجمهوريات حرة ومستقلة، فإنكم بتحقيق ذلك تضعون حداً لجميع المستكبرين في العالم وتحققون إمامة المستضعفين ووراثتهم للأرض.. على أمل ذلك اليوم الذي وعد به الله تعالى» (١١٥).

الخطوة الثامنة: ترتيب كل ما يلزم لحسن أداء الإنجاز والمهام المطلوبة، بما يوفّر أفضل صورة لتعميم مقاصد الهدف وفائدته، حتى يتحول إلى غاية يقصدها المستضعفون في العالم ويعملون على وفق نهجها الاقتداري.. من هنا كان تركيزه (قده) على إبراز دور الشعب في الانتخابات والرقابة على حركة السلطة التنفيذية، وتقسيم سلطات الدولة بما ينسجم مع موازين رعاية الخبرات العلمية، والعدل في الأحكام، وتقوية الجيش، وتطوير المناهج المدرسية والجامعية والحوزوية، ودفع البلاد نحو التطور في كافة الميادين بما يسمح أن تكون من البلدان الأكثر تقدماً في العالم، وإبراز أن القوة الدافعة في كل ذلك هو الإسلام الذي فيه حياة الشعوب . والتذكير دوماً «أن سرّ بقاء الثورة الإسلامية هو نفس سرّ النصر، ويعرف الشعب سر النصر.. وستقرأ الأجيال الآتية أن ركنيه الأصليين هما الدافع الإلهي، والهدف السامي للحكومة الإسلامية؛ واجتماع الشعب في جميع البلاد مع وحدة الكلمة من أجل ذلك

الدافع وذلك الهدف» (١١٦).

الخطوة التاسعة: العمل على تأمين استمرار الهدف في رونقه، ليتحول الهدف عبر استمراره من مجرد حالةٍ أو هبةٍ ليكون نهجاً دائماً، يقوم على الاقتدار والإرادة المخلصة والإدارة الحكيمة المتمثلة بقيادة ولي أمرٍ يخلف الإمام في دوره ومهمته الرسالية، حتى تسليم الراية إلى محجّة كل المجاهدين، إلى القائم بالحق الإمام الحجة المنتظر (عج).. ولتكون هذه القيادة المرشدة لنهج الاقتدار حريصة على إشاعة العدل والحق بين الشعوب وفي العالم..

هذا، وإذا ما أردنا خلاصة صافية للدور الذي نهض به الإمام، فإننا ندع الأمر للإمام الخامنئي الذي حدَّد إنجازات هذه النهضة بقيادة الإمام بالشكل التالي:

- الشعب في المقاومة بوجه المذابح الجماعية وإيجاد سلسلة أربعينات الشهداء.

- تنوير الأذهان عبر فضح الخفايا المتعلّقة بدور النظام المقبور في جريمة إحراق سينما (ركس) بمن فيها في مدينة عبادان.

- حمل الشعب على المقاومة في قبال الهجوم المسلَّح والدامي الذي يشنّه عليه جلاوزة الشاه.

- تهيئة الشعب للاستفادة من موسم شهر محرَّم وإعلان شعار (الدم ينتصر على السيف).

- طرح شعار (على الشاه أن يذهب) في الوقت الذي لم يكن أي امرئ يفكّر آنذاك بمثل هذا الدواء لإدواء إيران، ولم يكن أي شخص ليجرؤ على طرح هذا المطلب حتى ولو على شكل مجرّد افتراض.

- إعلان المواقف الحاسمة والصارمة إزاء الحكومات المزوّرة المتوالية على الحكم في الأشهر الأخيرة من عمر النظام الشاهنشاهي وسلب هيبة الحكم العرفي وأبهته، ومن بعده الحكومة العسكرية.

- إفشاء حقيقة الحكومة المتظاهرة كذباً بـ (الوطنية) وفضح أهدافها واتخاذ موقف صارم من طلب رئيس تلك الحكومة المرائي الذي كان يريد الالتقاء بالإمام أثناء مكوثه في باريس.

- الإعلان بعد المجيء إلى إيران، عن عزل الحكومة المنصبة من قبل الشاه وإقالتها، وتعيين الحكومة المؤقّتة، ومن ثم اتخاذ المواقف المناسبة حيال حوادث الثورة لحظة بلحظة وإصدار التوجيهات، وإعطاء التعليمات للناس لمساعدتهم في اجتياز أصعب منعطف مرّ به هذا البلد طيلة تاريخه خلال القرون الأخيرة» [١١٧].

ومع هذا النص نختم هذا الفصل بالقول: إن ما أعاد الإمام انبعاثه على ضوء قيم وتعاليم النبي محمد (ص) والآل (ع)، من (نهج الاقتدار) استطاع أن يجعل الأمّة التي كادت أن تتحوّل إلى نسيٍ منسيٍّ، أمة حاضرة في العالم، وتبقى مهمة الحافظين لهذا النهج بقيادة الإمام الخامنئي؛ أن يسيروا به ليشكّلوا وجه حضارة الاقتدار العالمي الذي يريد نصر قيم العدل وتقويض كل ظلم في العالم...

الهوامش:

[١] سبأ: ٤٦.

[٢] الإمام الخميني:«وصايا عرفانية»،م.س، ص ٥٥.

[٣] المدثر: ١- ٢.

[٤] الإمام الخميني «منهجية الثورة الإسلامية»، م.س، ص ٥٣.

[٥] الأنفال:١٧.

[٦] الفتح: ١٠.

[٧] الإمام الخميني:«منهجية الثورة الإسلامية»، م.س، ص ٥٤.

[٨] م.ن، ص ٥٥.

[٩] م.ن، ص ٤٩.

[١٠] م.ن، ص ٥٥.

[١١] الإمام الخميني:«منهجية الثورة الإسلامية» م.س، ص ٥٦.

[١٢] المائدة:١١٩.

[١٣] الإمام الخميني:«منهجية الثورة الإسلامية» م.،، ص ٤٩.

[١٤] م.ن، ص ٥٠.

[١٥] م.ن، ص ٥١.

[١٦] م.ن، ص ٥٢.

[١٧] الحديد: ٢٥.

[١٨] الحديد: ٢٥.

[١٩] الحديد:٢٥.

[٢٠] الإمام الخميني، «منهجية الثورة الإسلامية»، ص ٥٢.

[٢١] م.ن، ص ٤٨.

[٢٢] م.ن. ص ٤٩.

[٢٣] م.ن، ص ٥٣.

[٢٤] الإمام الخميني، «منهجية الثورة الإسلامية»، م.س، ص ٥٣.

[٢٥] م.ن، ص ٤٧.

[٢٦] م.ن، ص ٥٦.

[٢٧] م.ن، ص ٥٨.

[٢٨] الإمام الخميني، «منهجية الثورة الإسلامية»، م.س، ص ٦٩.

[٢٩] التوبة: ٧١.

[٣٠] المتقي الهندي:«كنز العمال» تحقيق الشيخ بكري حياني، وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة،

بيروت، د.ت، الحديث:٦٥٠٦١، ج٦ ص٣٦٠

[٣١] الإمام الخميني:«منهجية الثورة الإسلامية» م.س، ص ١٢٧.

[٣٢] م.ن، ص ١٢٦.

[٣٣] الإمام الخميني «الحكومة الإسلامية»،م.س، ص ٢٣.

[٣٤] م.ن، ص ٢٤.

[٣٥] م.ن، ص ٢٥.

[٣٦] م.ن، ص ٢٥.

[٣٧] الإمام الخميني، «الحكومة الإسلامية»، م.س، ص٢٦.

[٣٨] م.ن، ص ٢٧.

[٣٩] م.ن، ص ٢٨.

[٤٠] م.ن، ص ٣٤.

[٤١] الفتح:١٠.

[٤٢] الإمام علي:« نهج البلاغة» تحقيق محمد عبدة، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٢ص١٢.

[٤٣] أنظر: الشيخ علي كوراني، طريقة حزب الله في العمل الإسلامي.

[٤٤] النساء: ٩٥.

[٤٥] الحجرات: ١٣.

[٤٦] فضل الله، السيد محمد حسين: «أبعاد شخصية الإمام الخميني...نظرة تحليلية» كتاب: ثورة الفقيه ودولته، إعداد وحوار حميد حلمي زاده، د.ن، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٢٦.

[٤٧] الرعد:١١.

[٤٨] الإمام الخميني « منهجية الثورة ...»، م.س، ص ١٩٥.

[٤٩] سورة الأعراف: ٩٦.

[٥٠] الإسراء: ١٦.

(٥١) الإمام الخميني:«الجهاد الأكبر» ترجمة حسين كوراني، الدار الإسلامية، بيروت، ١٤١١، ١٩٩١، ص ١٣.

[٥٢] ابن طاووس:«اقبال الاعمال» م.س، ج٢ ص٢٩٩.

[٥٣] الامام الخميني :«الجهاد الأكبر» م.س، ص ٤٥.

[٥٤] الإمام الخميني:«الأربعون حديثاً» م.س، ص ٢٢.

[٥٥] م.ن، ص ٢٣.

[٥٦] م.ن، ص ٢٣.

[٥٧] ابن ابي جمهور الاحسائي:«عوالي اللئالي العزيزة في الأحاديث الدينية» تحقيق السيد المرعشي والشيخ مجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء، قم، ١٩٨٢،١٤٠٢، ج٢ص٥٧.

[٥٨] آل عمران:١٩٠– ١٩٢.

[59] الإمام الخميني: «الأربعون حديثاً» م.س، ص ٢٥.

[60] الشاهرودي، علي نمازي: «مستدرك سفينة البحار» تحقيق حسن بن علي نمازي، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، قم، ١٤١٩، ج١٠ص٤١٩.

[61] ابن البراج: «المهذب» تحقيق باشراف الشيخ السبحاني، جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٦، ج٢ص٤٦٧.

[62] الإمام الخميني: « الأربعون حديثاً» م.س، ص ٢٦.

[63] م.ن، ص ٢٦.

[64] الإمام الخميني: «الأربعون حديثاً»، م.س، ص ٢٧.

[65] الإمام الخميني، «الأربعون حديثاً»، م.س، ص ٣١.

[66] م.ن، ص ٣٣.

[67] م.ن، ص ٦٠.

[68] طه: ١٢٥.

[69] الإمام الخميني، «الأربعون حديثاً»، م.س، ص ٦١.

[70] القصص: ٤.

[71] الصدر، السيد محمد باقر: «السنن التاريخية في القرآن» الأعمال الكاملة، دار التعارف، ط١٩٩٠،ج١٣ ص ١٥٠.

[72] م.ن، ص١٥١.

[73] الأعراف: ١٢٧.

[74] الأحزاب: ٦٧.

[75] النساء: ٩٧.

[76] النساء: ٩٧.

[77] القصص:٥.

[78] راجع: المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية، دار التعارف، ص ١٥٤.

[79] البقرة: ٢٠٤- ٢٠٥.

[80] الصدر: «السنن التاريخية» م.س، ص ١٠٦ - ١٠٧.

[81] الإمام الخميني: «منهجية الثورة الإسلامية»،م.س، ص ٢٠٢.

[82] م.ن، ص ٢٠٢.

[83] م.ن، ص ١٩٩.

[84] م.ن، ص ١٨٩.

[85] م.ن. ص ١٨٩.

[86] آل عمران: ١٦٩- ١٧٠.

(87) مركز الإمام الخميني : «إصلاح المجتمع في فكر الإمام الخميني»، مركز الإمام الخميني الثقافي، ط٢، تموز ٢٠٠٢م، ص ٤٥.

(88) م.ن، نفس المعطيات.

(89) الإمام الخميني: «**منهجية الثورة**»،م.س، ص ٢٧٧.

(90) م.ن، ص ٢٨١.

(91) الإمام الخميني :«**خطاب الانتصار**»، الوحدة الإعلامية المركزية في حزب الله، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص ٩٣.

(92) مركز الإمام الخميني: «**إصلاح المجتمع في...**»، م.س، ص ٣٠.

(93) م.ن، ص٣٢.

(94) الإمام الخميني : «**خطاب الانتصار**» م.س، ص ٨٩.

(95) الجمعة: ٦.

(96) الفجر:٢٨.

(97) مركز الإمام الخميني الثقافي: « **الشهادة في فكر الإمام الخميني**»، مركز الإمام الخميني الثقافي، بيروت، تموز ٢٠٠٢، ص ١٠.

(98) م.ن، ص ١١.

(99) الإمام الخامنئي: «**بيان قائد الثورة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل الإمام القائد**» مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٣٢، محرم - صفر،١٤١١هـ، المستشارية الثقافية في دمشق، ص٢٠١٩.

(100) المدثر: ١- ٢.

(101) البقرة: ١٤٣.

(102) الإمام الخميني: «**الحكومة الإسلامية**» م.س، ص١١٩.

(103) مصطفى كمال أتاتورك (٢١ مارس/ آذار ١٨٨١ - ٠١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨). ولد في مدينة سلانيك ساهم في الانقلاب ضد السلطان العثماني وحيد الدين محمد (محمد السادس)والخليفة الصوري عبد المجيد الثاني وأعلن في أنقرة قيام جمهورية تركية قومية على النمط الأوروبي، توفي في ١٩٣٨.

(104) أسرة حكمت إيران عام ١٩٢٥ بعد الإنقلاب الذي قام به رضا خان على أحمد شاه القاجاري، وانتهى حكمها عام ١٩٧٩، عندما أعلنت الجمهورية الإسلامية في إيران.

(105) آية الله الكاشاني الممثل الأقوى للتيار الإسلامي السياسي في عقد الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ومع كل أقطاب التيار الديني السياسي. فقد كان آية الله ابو القاسم الكاشاني أحد أعمدة حركة تأميم النفط الإيراني في بداية الخمسينيات، وكان من أصحاب الدعوة للتقريب بين المذاهب، ودعا إلى مقاومة الإحتلال الصهيوني لفلسطين. .

(106) فقيه وعارف، وقف بقوة في وجه السلطة البهلوية عند إعلانها، خاصة بعد المراسيم، التي

أعلن فيها رضا خان إلغاء المراسم العاشورائية عام ١٩٢٧.

(١٠٧) الإمام الخميني :«**خطاب الانتصار**»،م.س، ص ١٦٠.

(١٠٨) الإمام الخميني:«**الحكومة الإسلامية**»،م.س، ص ١١٩.

(١٠٩) م.ن، ص ١١٩.

(١١٠) الإمام الخميني:«**الحكومة الإسلامية**»،م.س ص ١٢٠.

(١١١) م.ن، ص ١٢٧.

(١١٢) الإمام الخميني، «**الحكومة الإسلامية**»، ص ١٢٧.

(١١٣) م.ن، ص ١٢٨.

(١١٤) م.ن، ص ١٣٦.

(١١٥) الإمام الخميني: «**الوصية الخالدة**»، الدار الإسلامية، ص ٧٥.

(١١٦) م.ن، ص ٢٢.

(١١٧)منظمة الإعلام: «**حديث الشمس**»،م.س، ص ٩٣.

الفصل الرابع

الإمام الخميني
باعث نهج الاقتدار

أن تتناول حياة إنسان عظيم بالكتابة، فهذا يعني أنك تريد نشر سيرته الشخصية.. لما في هذه السيرة من إثارة تلفت نظر القرّاء إليها، ومن أحداثٍ تكشف الكثير من السياسات، والسائد من الأوضاع التاريخية في فترة مفصلية من مفاصل الزمن..

أما مقصودنا من نقل سيرة الإمام الخميني (قده) في كتاب يعالج موضوع نهج الاقتدار كأطروحة إسلامية نهضوية، فهو وإن كان يراعي كل هذه المبرّرات السابقة، إلا أنه يبتغي بالأساس التأكيد على خاصية لهذا النهج مبنية على ربط التصور النظري والأفق الرؤيوي بالحياة العملية، والممارسة الإجرائية.. وهذا ما كان واضحاً في التوجيه النظري للإمام (قده) حينما جسّد الهدف بفاعلية سيرة وتجربة الأنبياء والأوصياء والعلماء.. ونفس الأمر نلتزمه، حينما نود بحث الانبعاث الجديد لنهج الاقتدار في زماننا المعاصر، إذ نرى لزاماً علينا بعد بحث مسار هذا النهج في رسم الأهداف والمنطلقات وقواعد العمل الفاعل والمؤثر.. أن نرى ونعاين كيفية حركتها في تجربة عملية حيَّة تجسّد فيها نهج الاقتدار بشخصٍ وحياة مؤسّسه وباعثه الإمام الخميني..

وحرصاً منّا على تقديم سيرة موثّقة، لم نر أفضل من أن نترك الكلام، لمن عايش الإمام خطوةً خطوةً بكل إخلاص وصدق، والذي تحدّث عن سيرته ضمن رؤية لطبيعة الصراع وأحداثه التي عاشها الإمام.. ونقصد به ابن الإمام؛ السيد أحمد الخميني (رحمه الله) الذي كتب تجربة الإمام في مقدّمة سلسلة خاصة تُرجمت إلى اللغة العربية تحت اسم «الكوثر» والتي اختصت بمواقف

وخطابات الإمام الخميني.. وقد استخلصنا مما كتبه السيد أحمد(رحمه الله) ما له علاقة بإبراز وجوه نظرة ومواقف الإمام الخميني (قده) من الأحداث وكيف بنى ورسَّخ عملياً المدى الحيوي لنهج الاقتدار..

ولد الإمام الخميني في العشرين من جمادي الثاني سنة ١٣٢٠ للهجرة القمرية (١٩٠٢) في أسرة دينية مجاهدة. وشهد في صباه جهاد أبيه الكريم ضد خوانين وسلاطين المنطقة، والذي أدّى بالنتيجة إلى استشهاده. وقد رافقت طفولة الإمام أزمات سياسية واجتماعية في إيران . وكان لطبع سماحته الرافض للظلم، والظروف الزمانية التي اكتنفت حياته، الأثر البالغ في أن يبدي -منذ صباه- الاهتمام بالقضايا السياسية، ويتابع معاناة ومشاكل شعبه. وقد أكمل الإمام الخميني. بما يتمتّع به من ذهنية متوقّدة واستعداد عال، دراسة مختلف العلوم الإسلامية بسرعة قياسية. وإضافة إلى الفقه والأصول، فقد درس الفلسفة والعرفان على أعلى المستويات على أساتذة كبار، وهاجر إلى مدينة قم المقدّسة إثر هجرة آية الله الحائري إليها وتأسيسه الحوزة العلمية فيها.

لقد اجتاحت البلدان الإسلامية (في مثل هذه الفترة) موجة من العداء للإسلام بقيادة الإنجليز والدول الاستعمارية الأخرى. ففي إيران أخذ عملاء نظام رضا خان - وبالتعاون مع أشباه المثقفين من العلمانيين - يعملون على الترويج للبهائية والوهّابية. وقد ألّف الإمام الخميني في أول ردّ فعل له، كتاب «كشف الأسرار» في وقت كان يسود في الأوساط الدينية والحوزة العلمية الصمت والاضطراب الشديدين. ردَّ فيه على اتهامات أعداء الدين، وهاجم بقوة جرائم رضا خان والنظام البهلوي. وأردف ذلك ببيان سياسي أصدره بعد مدة قصيرة، افتتحه بالآية القرآنية: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾**[1]، ودعا فيه علماء الإسلام كافة والشعب الإيراني إلى الثورة على الأوضاع السائدة.

إن ما كان يحول دون القيام بعملٍ أساسي، هو حالة الاضطراب والصمت

التي كانت تسود المجتمع، ومحاربة العمل السياسي في أوساط الحوزات العلمية. وحل هذه المسألة كان يستدعي، إعادة الانسجام بين العلماء، الذي تأثّر كثيراً نتيجة السياسات التي اتبعها رضا خان، وبثّ الوعي بين الطلبة، وتعزيز موقع الحوزات العلمية والعلماء في الأوساط الجماهيرية باعتبارهم القادة الحقيقيين للشعب.

ولقد أدّى الإمام الخميني، دوراً كبيراً في تثبيت مرجعية سماحة آية الله العظمى البروجردي، من بعد وفاة آية الله الحائري.

ووفّرت الحرب العالمية الثانية، الأرضية لبروز قوة الولايات المتحدة الأميركية ونفوذها إلى المناطق التي كانت تحت الهيمنة الأوروبية، في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون منهمكين في حلّ مشاكلهم وأزماتهم الاقتصادية وترميم ما خلّفته الحرب من دمار واسع. وأخذ الساسة الأميركيون -الذين بقوا في منأى عن الإصابات المباشرة في الحرب - يعملون على فرض نظامهم الاقتصادي على العالم، ويوسّعون من دائرة هيمنتهم الشيطانية على البلدان الأخرى وتركت بريطانيا مكانها في إيران مجبرة حيث كانت تعتبرها منطقة نفوذها التقليدية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذه الأثناء، انصب اهتمام الولايات المتحدة الأميركية على موضوعين رئيسيين: «الهيمنة على المناطق النفطية» و «إيجاد قواعد استراتيجية جغرافية في مواجهة الروس» وقد شكّل هذان الموضوعان محور النشاط السياسي والاقتصادي الأميركي. فوقعت إيران، للسببين المذكورين المارّ ذكرهما في مركز هذا الاهتمام.

ومن جهة أخرى، فقد تم إبعاد العلماء من الساحة السياسية، بعد النضال الذي خاضه المرحوم السيد المدرّس وأدّى إلى استشهاده مظلوماً. إلا أنه وخلال الفترة الفاصلة بين انتخابات المجلس الوطني، من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٣، سنحت فرصة أخرى للعلماء كي يثبتوا حضورهم في الساحة السياسية. فقد أزال فدائيو الإسلام عن الطريق، رئيس الوزراء -آنذاك- الفريق (رزم آرا)

الذي كان يعارض بشدة حركة تأميم الصناعات النفطية. وأدّى دعم ومساندة آية الله الكاشاني للنوّاب، الذين كانوا يمثّلون الأقلية في المجلس الوطني بقيادة الدكتور مصدّق، إلى المصادقة على لائحة تأميم الصناعات النفطية. وإثر التظاهرات الشعبية في ٢١ تموز عام ١٩٥٢، عزل قوام السلطنة من منصبه، وتم تعيين الدكتور مصدّق رئيساً للوزراء بدلاً عنه. واضطر الملك إلى الخروج من إيران. إلا أن القيادة العلمائية لم تكن لتروق للجبهة الوطنية، فوضعت معارضتها لها الدكتور مصدّق وجهاً لوجه في قبالة آية الله الكاشاني. ووفّرت خلافات قادة الحركة والأعمال الخيانية التي ارتكبها حزب تودة الشيوعي في الخفاء والعلن، الأرضية لتنفيذ المخطّطات الأميركية. فحصل انقلاب ١٩ آب ١٩٥٣، وأعيد الدكتاتور إلى إيران. إن ما يستنتج من اتصالات الإمام الخميني مع آية الله الكاشاني في هذه الأيام، والأحاديث التي أدلى بها فيما بعد وبياناته التي أصدرها، هو أن الإمام لم يكن متفائلاً كثيراً بنتائج هذه الحركة، نظراً للأهداف التي كانت تحملها، وأهم من ذلك، توجهات بعض الأشخاص المشاركين فيها فبعد مرور عامين على حصول الانقلاب، أعتقل فدائيو الإسلام، وحوكم السيد نوّاب صفوي ورفاقه في المحكمة العسكرية، وأعدموا فجر يوم ١٧ كانون الثاني عام ١٩٥٦.

على أية حال، فمع مجيء عميل الأميركيين (زاهدي) إلى السلطة، بدأت مرحلة جديدة من الخيانة والنهب الواسع لثروات إيران تسير بخطى أسرع من الماضي. ففي السنوات الفاصلة بين عام ١٩٥٣ و١٩٦٣ فقط تجاوز مقدار النفط الذي نهبته الشركات الأوروبية والأميركية، المقدار الكبير الذي نهبته بريطانيا خلال الخمسين عاماً التي سبقته . وتحوّل الاقتصاد، والزراعة، والثقافة في إيران، إلى ساحة تصول وتجول فيها أميركا والغرب وخلال فترة قصيرة، تحوّلت إيران إلى قاعدة عسكرية لرعاية المصالح الأميركية في منطقة الشرق الأوسط الحسّاسة وأعطيت مسؤولية التدريب والمناصب

الحسّاسة في الجيش إلى المستشارين العسكريين الأميركيين . وأبرمت الاتفاقيات الاقتصادية، والتسليحية، والسياسية في المنطقة، بهدف الحفاظ على المصالح الأميركية غير المشروعة، بواسطة سلطة الانقلاب.

موقع الحوزة العلمية في مواجهة المشاريع الظالمة:

إن موقع الحوزة العلمية في قم، الذي تعزّز بفضل الجهود الذي بذلها آية الله العظمى الحائري وحضور آية الله العظمى البروجردي القوي فيها وشخصيات متنوّرة كالإمام الخميني، كان ينظر إليه على أنه يمثّل العقبة الرئيسية في وجه تنفيذ الإصلاحات الأميركية. وإثر وفاة آية الله العظمى البروجردي، وتعدد المرجعية الدينية من بعده، خرجت السلطة الحاكمة بتحليل يفيد بأن الفرصة قد حانت لتنفيذ الإصلاحات بشكل سريع، فحصل الشاه، خلال سفره إلى الولايات المتحدة الأميركية، على موافقة البيت الأبيض بشأن تغيّر الحكومة وتنصيب (أسد الله علم) على رأس الوزارة. وتمّت المصادقة على لائحة الإصلاحات الأساسية في كانون الثاني ١٩٦٢، وإضافة إلى الدعم المطلق الذي لقِيَه من الولايات المتحدة الأميركية، فقد أشادت وسائل الإعلام الرسمية في الاتحاد السوفياتي بالخطوة التي أقدم عليها الملك . كما وتم الانتهاء من المصادقة على لائحة مجالس الولايات في تشرين الأول ١٩٦٢ أيضاً. وكانت هذه اللائحة تحمل عداءً سافراً للإسلام في محتواها، حيث حذفت كلمة الإسلام كشرط للناخبين والمرشحين، وترك شرط «أقسم بالقرآن المجيد» إلى «أقسم بالكتاب السماوي». وكان هدف النظام الأصلي من ذلك، هو تقييم الظروف وإعداد الأرضية لتنفيذ المشاريع الأخرى، ومبادىء ما يسمّى بالثورة البيضاء.

لقد عارض الإمام هذه اللائحة بقوة، ودعا مراجع الدين، والحوزات العلمية، وجماهير الشعب إلى التصدّي لها . واضطرت وزارة (علم)، إثر برقيات سماحته الاستنكارية وخطبه وبياناته، وتضامن المراجع معه، وكذلك

التظاهرات التي اجتاحت قم وطهران والمدن الأخرى إلى التراجع عن قرارها، وابلاغ مراجع الدين في قم خبر إلغاء المصادقة على اللائحة من قبل الحكومة بشكل رسمي. وفي النتيجة أذعن النظام مضطراً لهذا المطلب. وعُدّ ذلك أول انتصار سياسي للشعب الإيراني بقيادة الإمام الخميني. وإثر هذه الحادثة، وسّع النظام من نطاق حملاته الدعائية ضد العلماء.

كانت الولايات المتحدة الأميركية مصرّة على تنفيذ سياساتها الجديدة، فدوّن مشروع ما يسمّى «بمبادئ الثورة البيضاء» وتم طرحه خلال استفتاء صوري أُجري يوم ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٣. ولإدراكه العميق لعواقب تعزيز أميركا لتسلّطها، وقلقه بشأن مستقبل وضع الحوزات العلمية، قرّر الإمام الخميني الوقوف بقوة ضد سياسات النظام الملكي الجديدة، وأحيا - ببياناته وخطاباته الثورية القاطعة - مشاعر الحماس والثورة في القلوب، في وقت كان يطبق فيه الكبت والإرهاب على كافة زوايا حياة الشعب الإيراني.

ففي أحد بياناته - ٦٣/٢/٢٠ - بعد الاستفتاء الصوري، قال الإمام الخميني:

«لا تخشوا هذه الحراب الصدئة الفاسدة فإنها ستنكسر عما قريب.. لا يمكن لجهاد السلطة أن يقاوم إرادة شعب كبير، وسيهزم عاجلاً أو آجلا».

استعد - شباب الحوزة العلمية والمؤمنون بنهج الإمام - للثورة. وداهم رجال أمن النظام - في حركة انفعالية - المدرسة الفيضية بقم في يوم ذكرى شهادة الإمام جعفر الصادق (ع) - ٢٢ آذار ١٩٦٣ - وبهذه المناسبة أعلن الإمام بصراحته القاطعة ما يلي:

«لقد أعددت صدري لتلقي حراب رجال أمنكم، إلا إنني سوف لن أنحني وأخضع أمام استهتارات جبابرتكم ولسوف أبيّن - بإذن الله - أحكام الله في أي وقت أراه مناسباً، وطالما بقي القلم بيدي، سأعلن للملأ عن أعمالكم المنافية لمصالح البلاد».

وفي بيان آخر، بمناسبة ذكرى مرور أربعين يوماً على هذه الفاجعة، بيَّن

سماحة الإمام موقف الثورة الإسلامية في إيران إلى العالم الإسلامي بما يلي:

«إنني أعلن لرؤساء البلدان الإسلامية والعربية: أن علماء الإسلام وقادة الدين، والشعب الإيراني وجيشه الشريف، هم أشقّاء البلدان الإسلامية ويواسونهم في السرّاء والضرّاء، ويستنكرون المعاهدة مع عدوة الإسلام وإيران: إسرائيل».

انتشر خبر تصدّي الإمام في أنحاء إيران كافة، وإثر ذلك تشتجت الأوضاع في قم وطهران وكثير من المدن الأخرى. وفي عصر يوم عاشوراء سنة ١٣٨٣ (٣ حزيران ١٩٦٣) فضح الإمام الخميني، في خطاب له شديد اللهجة، علاقات الصداقة والتحالف التي تربط الملك بإسرائيل في الخفاء. فحاصرت القوات الملكية الخاصة دار الأيتام، في ليلة الرابع من حزيران، واعتقلت قائد الثورة واقتادته إلى طهران فجر اليوم التالي. وأدّى ذلك إلى أن تقع حادثة الخامس من حزيران التاريخية التي مثّلت - على صعيد الواقع - ذروة التأييد الشعبي لحركة الإمام، حيث أخذ هتاف «الموت أو الخميني» يدوّي في سماء قم وطهران وسائر المدن الإيرانية.

كان يفترض أن تنفذ الإصلاحات الأميركية في أجواء هادئة طبقاً للبرنامج الموضوع من قبل البيت الأبيض، في مختلف مناطق العالم خصوصاً في إيران، التي كان عليها أن تقوم بدورها في منطقة الشرق الأوسط المتأزّمة باعتبارها جزيرة الثبات. ومن هنا، فقد أعطي للبرنامج الإصلاحي الملكي عنوان «الثورة البيضاء» إلا أن انتفاضة الشعب في الخامس من حزيران خلطت ما كان قد نسجه النظام.

انتفاضة الخامس من حزيران:

إن حركة الخامس من حزيران، التي شهدت مواجهات دامية وواسعة تُعتبر حدثاً لم يشهد له تاريخ إيران المعاصر مثيلاً من قبل، حيث كانت الانتفاضة إسلامية مائة بالمائة، قادها العلماء بهدف إسقاط النظام الملكي.

وبعد مجزرة الخامس من حزيران، اجتاحت موجة من الاعتقالات والنفي

أنحاء البلاد كافة. واقتيد أتباع الإمام، الواحد بعد الآخر إلى السجون أو المنفى. وصعد إلى خشبات الإعدام مجاهدون أبطال من بين طلائع المشاركين في التظاهرات الشعبية في جنوب طهران في واقعة الخامس من حزيران، من أمثال طيب وحاج رضائي. وقمعت الحركة، وتمّت السيطرة عليها في الظاهر. وامتنع الإمام في معتقله عن الاستجابة لمحاولات الجهاز القضائي المالكي المتكرّرة للتحقيق مع سماحته، معلناً بصراحة عدم اعتقاده بشرعيته.

وإثر ضغوط الرأي العام واستنكارات العلماء وجماهير الشعب في داخل البلاد وخارجها، اضطر النظام إلى إطلاق سراح الإمام، بعد فترة[٢] من الاعتقال، ونقله إلى قم في السابع عشر من نيسان ١٩٦٤ ودلّت الاحتفالات التي أقيمت بهذه المناسبة في مدينة قم المقدّسة على عزم وتصميم طلبة الحوزة العلمية وجماهير الشعب على مواصلة دعمهم وتأييدهم للإمام.

لقد ظن النظام الملكي، بعد مجزرة الخامس من حزيران، واعتقال العناصر النشطة في الحركة، أن ذلك سيقلل من عزم الإمام، ويصرفه عن مواصلة التصدي له. إلا أن الإمام - وبمجرّد تحرّره من السجن - أصدر بياناً، بمناسبة صدور حكم إدانة آية الله الطالقاني والمهندس بازران، حذّر فيه من مخاطر أعمال السلطة المنافية للشرع والاعتراف بإسرائيل وهيمنتها على شؤون البلاد. وأعلن في خطاب له عن عزمه وتصميمه على مواصلة التصدّي للنظام وقال:

«حتى لو شنق الخميني فإنه سوف لن يهادن وليكن في علمكم أنه حتى ولو هادنكم الخميني، فإن الشعب المسلم لن يهادنكم. وليكن في علمكم بأننا لا زلنا على موقفنا الذي كنا عليه: نعارض كافة التشريعات المنافية للإسلام، وجميع الاستهتارات».

إلا أن الشاه استمر في تنفيذ القرارات الأميركية التي بادر رئيسها بتهنئة الشاه، على إصراره بفتح المجالات الواسعة للمشاريع الأميركية.

وفي معرض رد الشاه على رسالة التهنئة التي كان قد بعث بها الرئيس الأميركي بمناسبة إجراء مسرحية الاستفتاء، قال الملك: «يمكننا الوثوق بحسن نوايا أصدقائنا الأميركيين فيما يتعلق بتنفيذ مشاريعنا الاجتماعية والاقتصادية». ولم يكن تنفيذ المشاريع الجديدة ممكناً دون الحضور المباشر للمستشارين الأميركيين. إلا أن انتفاضة الخامس من حزيران واستمرار نضال الإمام، قد رسما مستقبلاً غامضاً أمام إصلاحات النظام. فقرّرت الولايات المتحدة الأميركية إحياء لائحة «الحصانة» الرجعية للحفاظ على أرواح رعاياها ومصالحها في إيران . وبموجب هذه اللائحة، كان المستشارون العسكريون والسياسيون الأميركيون يحصلون على الحصانة القضائية، يفعلون كل ما ينافي القانون والأخلاق دون أن يحق لأحد التعرّض لهم ومحاسبتهم. إن لائحة «الحصانة» التي كانت قد صادقت عليها وزارة أسد الله علم في تشرين الأول ١٩٦٣، بعثت مرة أخرى في تشرين الأول عام ١٩٦٤ إلى المجلس، من قبل وزارة حسن علي منصور، وتمّت المصادقة عليها. إن هذه اللائحة كانت في الواقع، خطوة علنية ورسمية باتجاه هدم وتخريب استقلال البلاد سياسياً وقضائياً.

وما إن اطلع الإمام الخميني على هذه الخيانة، حتى بدأ نشاطاً واسعاً وأرسل سفراء إلى مختلف المناطق الإيرانية، وأبلغ جماهير الشعب الإيراني بعزمه على إلقاء خطاب يفضح فيه النظام بتاريخ جمادى الآخر ١٣٨٣ (٢٦ تشرين الأول ١٩٦٤). فأرسل الملك مرعوباً ممثلاً عنه إلى قم. فامتنع الإمام عن استقباله فأبلغ الموفد مضطراً النجل الأكبر للإمام (الشهيد السيد مصطفى) رسالة النظام التي حملت المضمون الآتي: «إن الولايات المتحدة الأميركية هي في وضع من حيث القوة، بحيث إن مهاجمتها تعدّ أخطر بكثير من مهاجمة الشخص الأول في الدولة. فإذا كان آية الله الخميني عازماً على أن يلقي كلمة في هذه الأيام، فيجب أن يحذر المساس بالحكومة الأميركية لأنها

مسألة خطيرة جداً، وإلا فإنه سيواجه بردّ فعل عنيف من قبلها».

وعلى الرغم من تهديد النظام الجدي له، ألقى سماحة الإمام خطابه الشهير في اليوم المحدّد، وهاجم فيه بشدة «الحصانة» ومشاريع النظام المذلة والمعادية للإسلام، وحذّر مراجع الدين والعلماء والحوزات العلمية والجيش والشعب الإيراني من مخاطرها، وصرّح: «ليعلم الرئيس الأميركي بأنه اليوم من أبغض الناس بالنسبة لشعبنا... إن جميع مشاكلنا هي من أميركا». وقد أصدر الإمام إضافة إلى خطابه بياناً عاصفاً ضد اللائحة. واجتاحت أنحاء إيران موجة أخرى من السخط والاستياء الشعبي، فلم يجد النظام مخرجاً من المأزق الذي أوقع نفسه فيه إلا في إبعاد الإمام إلى خارج إيران. فأحاط المئات من رجال القوات الخاصة والمظليين بدار الإمام مرة أخرى فجر يوم ٤ تشرين الثاني ١٩٦٤ واعتقل سماحته واقتيد إلى مطار مهر أباد بطهران مباشرة، وتم إبعاده إلى اسطنبول. على أساس اتفاق مسبق مع الحكومة التركية، ومن ثم إلى مدينة بورسيا، وأخضع للرقابة المشدّدة من قبل قوى الأمن في البلدين، ومنع من مزاولة أي نوع من النشاط السياسي والاجتماعي.

في الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٦٥، نال حسن علي منصور -رئيس الوزراء- جزاء خيانته على يد محمد بخارائي ورفاقه من أعضاء الهيئات الإسلامية المؤتلفة والسائرين على نهج الإمام. إلا أنه قد ألقي القبض على المجموعة بأكملها، وتم إعدام أربعة أشخاص منها، فيما حكم على الآخرين أحكاماً لمدد طويلة.

تمّت السيطرة على حركة الخامس من حزيران، إثر إبعاد الإمام عن مركز الثورة واعتقال أنصاره - وتابعت أميركا تغييراتها السريعة، بواسطة النظام البهلوي، في قطاعات: الصناعة، والاقتصاد، والثقافة، والجيش الإيراني.

وأبعد الإمام، بتاريخ ٥ تشرين الأول ١٩٦٥ (٩ جمادى الثاني ١٣٨٥) من تركيا إلى العراق. ومن العوامل المؤثرة في اتخاذ هذا القرار: ضغوط الرأي

العام، واستنكارات العلماء، والسخط الشعبي، ومشاكل الحكومة التركية في حراسة الإمام والحؤول دون ممارسته لنشاطاته السياسية نظراً لتشابه الأجواء في كل من تركيا وإيران، والأهم من ذلك وضع مدينة النجف والسكون السائد في أجوائها الحوزوية. وظنّ النظام الإيراني أنه سيحدّ، بإبعاده الإمام إلى العراق، من ضغط الرأي العام الداخلي الموجّه ضده من جهة، ويستغني عن فرض الرقابة المباشرة على سماحته من جهة أخرى، باعتبار الوضع السائد في حوزة النجف يعدّ مانعاً طبيعياً مهماً لتحديد نشاطه.

فالحوزة العلمية في النجف، التي كانت، في عهد مضى، مهداً لتربية الشخصيات المجاهدة البارزة، من أمثال المرحوم الميرزا الشيرازي (ره) وقلعة حصينة من قلاع الذود عن حياض الإسلام، كان يلفها عند نفي الإمام إليها الصمت والسكون. بفعل ضغوطات الاستعمار قديماً، وسياسات نظام البعث العراقي فيما بعد. وكان الحضور في مثل هذا الجو وتحمّله، بالنسبة لشخصية مجاهدة واعية، وعارفة بمشاكل العالم الإسلامي الكثيرة، أمراً عسيراً ومؤلماً للغاية. وقد ذكر الإمام الخميني شخصياً في مواضع عدة من آثاره ، مرارة الظروف الصعبة التي مرّ بها في حوزة النجف، بالرغم من مجاورته لمراقد الأئمة الأطهار (ع) وزياراته لهم . فمع وصول الإمام إلى النجف، أخذ المعارضون والحسّاد، من الأصدقاء السذج والمتحجّرين - الذين حدّدوا تعاليم الإسلام الفقهية بالعبادات والمعاملات - يضعون في طريقه العراقيل بأشكال مختلفة، واستمرت هذه الحالة حتى تاريخ هجرة سماحته إلى باريس، ومن جهة أخرى، فقد حالت الرقابة المفروضة على الإمام - من قبل رجال الأمن الإيرانيين والعراقيين - دون تحركه السياسي بشكل علني. إلا أنه وبالرغم من ذلك، فقد تحوّلت حلقة درس الإمام، خلال فترة قصيرة، إلى أبرز الحلقات الدراسية في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، نتيجة ذكائه الحاد والشخصية العلمية والاجتماعية التي يتمتع بها.

فقد كان الإمام الخميني يتابع في النجف الأشرف بشكل فعّال - بالرغم

من الصعوبات والمشاكل - قضايا إيران والعالم الإسلامي السياسية، ويتصل - بطرق مختلفة - بثّوار إيران، وأُسَر شهداء الخامس من حزيران، والسجناء السياسيين، إلى جانب إعطائه الدروس الفقهية في مرحلة البحث الخارج، والتنظير للحكومة الإسلامية تحت عنوان ولاية الفقيه. فبعد استقرار الإمام في العراق، التحقت به جماعة من العلماء الثوريين، فيما بقيت جماعة أخرى في إيران - حسبما ارتأى سماحته - من أجل أن يكونوا حلقة الوصل بين الإمام وبين النهضة الإسلامية في الداخل، وكي يرعوا منجزات انتفاضة الخامس من حزيران.

إن وجود الإمام في العراق، وفّر فرصة لأن يكون سماحته على اتصال بالمؤمنين والطلبة الجامعيين المسلمين المقيمين في خارج البلاد بشكل أفضل من السابق. وهذا الأمر أدى بحد ذاته دوراً كبيراً في رواج أفكار الإمام، وأهداف النهضة على الصعيد العالمي. وقد بذل الإمام الخميني أثناء اعتداءات الكيان الصهيوني والحروب العربية الإسرائيلية جهوداً حثيثة لدعم الثوار المسلمين الفلسطينيين ودول خط المواجهة. ومن جملة الجهود التي بذلها في هذا المجال- والتي لم يسبق أن قام بها بهذا المستوى الواسع مرجع شيعي بارز - لقاءاته العديدة مع زعماء المنظّمات الثورية الفلسطينية، وإرساله ممثلين عنه إلى لبنان، والمساعدات المادية والمعنوية التي قدّمها، وإصداره لفتواه التاريخية الشهيرة التي اعتبر فيها الدعم التسليحي والاقتصادي والمعنوي للثورة الفلسطينية، والبلدان المتعرّضة للعدوان واجباً شرعياً.

وفي داخل البلاد، كان أبناء الإمام وأنصاره في الحوزات والجامعات والأوساط الشعبية، يعملون بدأب على إبقاء جذوة الحركة متوقّدة في قلوب الجماهير، من خلال طبع واستنساخ بيانات الإمام ورسائله وكتبه وتوزيعها بالرغم من كل ما كان يحيط بالأجواء من إرهاب وقمع. وقد تعرّض الكثير منهم في هذا السبيل، إلى النفي والسجن والتعذيب والقتل. وما شهادة آية الله سعيدي وآية الله غفاري تحت تعذيب رجال الأمن الملكي إلا شواهد على ذلك.

ففي مقاطع زمنية مختلفة، وأثناء إقامة الاحتفالات بمناسبة ذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على تتويج الملكية، ومهرجانات الفن التي كان يقيمها الملك في شيراز، وتكلّف الشعب الإيراني مئات الملايين من الدولارات وتقوي سلطة أميركا في إيران والمنطقة، وعند تأسيس حزب (البعث) الملكي، وفي فترة التوقيع على مواثيق التعاون مع الكيان الصهيوني، كانت خطب الإمام وبياناته التي كان يصدرها من النجف الأشرف هي الصرخة الوحيدة التي كانت توصل صوت رفض ومعارضة الشعب الإيراني إلى أسماع العالم، وتحيي مشاعر الثورة في قلوب الجماهير. وفي الغالب كان الشباب الحوزوي الثوري يحيي مناسبة الخامس من حزيران في كل عام من خلال التظاهرات وإقامة المراسيم العامة والخاصة، وأبرز مثال على ذلك هي انتفاضة طلبة الحوزة التي استمرت ثلاثة أيام في المدرسة الفيضية بقم عام ١٩٧٥. فقد وصلت هتافات «الموت لنظام بهلوي» و «عاش الإمام الخميني» مرة أخرى لمدة ثلاثة أيام في قم المقدّسة. على الرغم من قمع النظام واحتياطاته المسبقة، مما حدا بقوات مكافحة الاضطرابات إلى مهاجمة المدرسة الفيضية، والدخول إليها من السطوح واعتقال ما يقارب الخمسمائة شخص من الطلبة، وغلق المدرسة لمدة أخرى. وكانت بيانات الإمام وخطبه هي الوحيدة التي دعمت وأيّدت هذه الحركة الشجاعة.

من جهة أخرى، واصلت الولايات المتحدة الإميركية - بعد قمع الحركة وإبعاد قائدها- برامجها في إيران، فخلال الأعوام الفاصلة بين ١٩٦١م إلى ١٩٧٩م انتهت الزراعة الوطنية التقليدية بالفعل في إيران، وأصبح البلد - الذي كان لديه يوماً ما فائضاً في الكثير من المواد الغذائية والمحاصيل الزراعية والحيوانية - محتاجاً بشدة إلى الأسواق الأجنبية كي يؤمّن احتياجات الشعب من القمح والأرز وإلخ. وقد وسّع النظام الملكي من الصناعات التركيبية في مختلف القطاعات الصناعية التي كان من سماتها التبعية الشديدة إلى الشركات العالمية، وذلك من خلال استخراج النفط بإسراف، وتوظيف

وارداته، والتي كان يرافقها أزمة ملحوظة في الطاقة. ووصلت ثقافة الإسراف إلى ذروتها وبالأخص فيما يتعلق بشراء السلع الغربية. وكان التغرّب ومعاداة الإسلام، والفساد والتحلل الخلقي بأساليب مختلفة، من السمات البارزة للصحافة ووسائل الإعلام في البلاد. فقد كان يروّج للمجوسية، والبهائية، والماسونية بشكل رسمي وعلني. وتم تغيير بداية التاريخ الوطني الإيراني من هجرة النبي (ص) إلى عصر الملوك الهخماشيين وفرض الاستبداد على الشعب بأسوأ أشكاله. ولم يكن ليبدو أثر لاستقلال السلطات، وكان الملك، ومعه نفر من أقربائه الفاسدين، هو الآمر والناهي المطلق. وأنجرّت الجامعات إلى الابتذال الثقافي، وأصبحت ميداناً لاستعراض أفكار ونظريات المتغرّبين والماسونيين. وكان جهاز (السافاك) الملكي اللعين يملي على مختلف المؤسسات سياساته الأمنية وحقاً أن هذا المقطع من تاريخ إيران، كان واحداً من أظلم عصور تسلّط الملوك المتغطرسين في هذه الأرض. فقد كان يهيّمن نفر من أصحاب رؤوس المال المرتبطين بالنظام الملكي، والذين يوجد بينهم عدد من البهائيين، على أكثر من ثمانين بالمائة من الواردات والثروات الوطنية. وكان عدد من أقرباء الملك وأرحام حاشيته، يمتلكون بشكل رسمي قطاعاً كبيراً من الأراضي الخصبة والمجاورة للسدود المهمة. إن خلافات النظام الداخلية، كانت تدور في الغالب حول الاستيلاء على الثروات. ونهب بيت مال المسلمين، وهذه الأمور كلها كانت تؤدّي إلى زيادة فقر أكثرية الشعب الإيراني يوماً بعد آخر، وكان يمكن مشاهدة الوجه البشع لذلك في مختلف زوايا حياة الناس وفي جميع نقاط إيران، حتى في قطاعات واسعة من طهران.

ففي الوقت الذي كان فيه الكثير من الناس في مناطق عديدة من إيران، وحتى في المدن الكبرى، محرومين من نعمة الماء الصالح للشرب، كانت هناك طائرات خاصة تستورد بشكل متواصل الألبسة والأطعمة والزهور والكماليات الأوروبية، لبرامج الملك وحاشيته. وأصبحت الحرية ضحية واقعية لاستبداد الملك وتعاليمه وغروره . فواحدة من المشاكل التي كان يعاني منها جهاز

السافاك هي النقص في الأماكن التي يحفظ فيها السجناء السياسيين الذين تكتظ بهم السجون. وكانت عمليات التعذيب الوحشية تبدأ مع الساعات الأولى التي يتم فيها الاعتقال، حتى وصل صداها إلى أسماع قطاعات كبيرة من الناس في العالم، ولقي الكثيرون حتفهم تحت سياط التعذيب. وعلى صعيد النشاطات الصحافية والكتابية، فقد كانت تعمل الرقابة بشكل علني وشديد. وطبقاً للاعترافات التي أدلى بها أعوان الملك القريبون إليه، واستناداً إلى الوثائق الموجودة، فإن السياسة الخارجية للنظام والخطوط العريضة لبرامجه في الداخل، كانت توضع وتدار من قبل السفراء الأميركيين والغربيين. ويمكن إدراك عمق التدخل الأميركي في شؤون إيران الداخلية من هذه الحادثة المرة، حيث قاد فريق من المستشارين الأميركيين وبملابسهم العسكرية الرسمية عمليات قمع الثورة ليلة ١١ شباط ١٩٧٩م من مقر هيئة الأركان المشتركة للجيش الإيراني.

إشتعال التحدي بين الإمام (قده) والولايات المتحدة الأميركية:

مع وصول جيمي كارتر إلى الحكم عام ١٩٧٦م عن الحزب الديمقراطي في أميركا، طرح البيت الأبيض مشروع الدفاع عن حقوق الإنسان على مستوى واسع، بهدف التستر على جرائم أميركا في العالم، وطمس آثارها في اليابان، وفيتنام، وكوريا، وفلسطين، وكذلك بغية استخدامه كأداة للضغط على الغريم الشرقي، الاتحاد السوفياتي، بالرغم من أنه لم يُغير أدنى تغيير في سياسة أميركا التوسعية وغير الإنسانية على الصعيد العالمي.

وجاء المشروع الأميركي هذا نتيجة لتزايد وعي الرأي العام العالمي، ومستجدات الظروف الدولية المتباينة مع أساليب الاستبداد. وفي إيران رأى النظام الملكي أن ثباته واستقراره رهن بقمع المعارضين وتشتيت القوى التي تتبنّى العمل المسلّح، خصوصاً وأن إظهار إيران ثابتة ومستقرة كان ضرورياً بالنسبة لأميركا بعد خروج القوات البريطانية من الدول المطلة على الخليج

الفارسي، باعتبار أن إيران تأخذ على عاتقها دور الدركي في المنطقة بشكل رسمي. وعرفت إيران على أنها الراعية للمصالح الأميركية والغربية في منطقة هي من أكثر المناطق المجاورة للاتحاد السوفياتي حساسية، ونموذجاً للأنظمة المدعومة من قبل الغرب بشكل مطلق في العالم الثالث. وأن استمرار جهاز السافاك في فرض تسلطه المباشر على الأوضاع بشكل عنيف، ومواصلة الملك لسياساته الدكتاتورية، كان يتنافى مع طروحات كارتر الجديدة بشأن حقوق الإنسان، ولهذا فقد وضع من قبل الأمريكيين، في جدول أعمال الملك بعض الإصلاحات في الأسلوب السياسي لإدارة المجتمع، دون أن يمس ذلك أركان وعناصر النظام الملكي. وعلى أية حال، ففي الوقت الذي طرح فيه (مشروع) الأجواء السياسية المفتوحة في إيران، والذي رافقه دعاية إعلامية واسعة، لم تكن مشاريع أميركا السابقة وثورة الملك البيضاء قد حقّقت شيئاً على صعيد الواقع، ولم تكن بوابة الحضارة (الغربية) الكبيرة سوى سراب، وأخذ السخط الشعبي والفقر والتفاوت الطبقي في إيران يزداد ويتصاعد بشدة يوماً بعد آخر. وفي الخطوة الأولى، عُزل من رئاسة الوزارة، أمير عباس هويدا، بعد أربعة عشر عاماً على وجوده في هذا المنصب، وحل محله التكنوقراطي المتأثر بالغرب يجمشيد آموزار.

وقد دلّت نظرة الإمام الثاقبة، واستثماره لمستجدات الظروف في الوقت المناسب، على عمق وعي سماحته ومعرفته الدقيقة بأوضاع العالم وقضايا إيران بشكل خاص، بالرغم من بعده عن الوطن لفترة طويلة.

شهادة السيد مصطفى الخميني

بتاريخ ٢٣ تشرين الأول ١٩٧٧، استشهد في النجف الأشرف آية الله السيد مصطفى الخميني في ظروف غامضة. وكان (هذا السيد) أمل الإمام وذخره لمستقبل النهضة، كما أفاد بذلك جميع الأصدقاء والكثير من معارضي الإمام في الحوزات العلمية. وعلى الرغم من الصدمة المعنوية الكبيرة التي أحدثتها

هذه القضية في الساحة الجهادية، إلا أن الإمام، بصبره وتحمّله المشهودين، تحدّث عنها معتبراً إياها من الألطاف الإلهية الخفية. وأقيمت في الكثير من المدن الإيرانية، مجالس العزاء على استشهاد نجل الإمام بأجلى صورها. واغتنم الخطباء الثوريون هذه الفرصة، وأخذوا يفضحون - في هذه المجالس - جرائم النظام وينشرون أهداف انتفاضة ٥ حزيران بين الناس. وأخذ اسم الإمام الخميني، يُتداول في الأوساط الجماهيرية مرةً أخرى على صعيد واسع، وقرّر النظام أن ينتقم، فنزلت في صحيفة إطلاعات في ٢٨ كانون الأول ١٩٧٧ -مناسبة منع الحجاب بواسطة الملك - مقالة تحت عنوان «إيران والاستعمار الأحمر والأسود» بتوقيع مستعار: رشيد مطلق، وجّه فيها الكاتب الإهانة إلى العلماء الثوريين والإمام. والهدف الآخر الذي كان يتوخاه النظام من إنزال هذه المقالة. هو تقييم ظروف ما بعد البدء بتنفيذ سياسات ما يسمى بحقوق الإنسان الأميركية. فتحرّك أنصار الإمام في الحوزة العلمية، وتعطّلت في اليوم التالي الدروس الحوزوية، وخرج جمع غفير من طلبة الحوزة وجماهير قم بمسيرة استنكارية في الشوارع، توجه خلالها إلى بيوت مراجع الدين وأساتذة الحوزة من أجل كسب تأييدهم وتضامنهم. ومساء (نفس اليوم) هزّت هتافات «عاش الخميني» و «الموت لنظام بهلوي» - من قبل الجماهير المحتشدة في مسجد أعظم مدينة قم - وأعادت إلى الأذهان ذكرى انتفاضة ٥ حزيران ٦٣. كما وخرجت، يوم ٩ كانون الثاني، تظاهرة أخرى أوسع من الأولى، ابتدأت من الصباح، وقمعت بعد الظهر بوحشية من قبل رجال الأمن والشرطة. واستمرت الاشتباكات إلى ساعات متأخّرة من الليل، واستشهد إثر ذلك عدد من الأشخاص، فيما أصيب آخرون بجروح.

وهذه الحركة كانت بمثابة الشرارة التي فجّرت الأوضاع، بعد عام، في ١١ شباط ٧٩، حيث جُرِفَتْ السلطة والنظام الملكي الاستبدادي بفضل حكمة وتدبير الإمام، وهمة جماهير الشعب الإيراني.

حُرِّمت احتفالات نوروز، و ١٥ شعبان عام ٧٨، من قبل الإمام، وتحولت إلى استنكار وتظاهرات معادية للنظام. وسحب الإمام ببيانه ذي النقاط الثمان بمناسبة شهر رمضان في نفس العام، وحكمه بوجوب فضح جرائم الملك من على المنابر في هذا الشهر، سحبت لهيب الثورة إلى جميع المناطق الإيرانية، حتى القرى والأرياف. وأجبرت انتفاضة أهالي أصفهان في رمضان، وزارة آموزكار لأن تعلن الأحكام العرفية في عدة مدن، على الرغم من سياسة الأجواء المفتوحة التي كانت تتبعها. وتجاوز نطاق التظاهرات المناطق المركزية وأوقاته المحدودة. واحترق مئات الأشخاص في النار، إثر وقوع حادثة سينما ركس في عبادان بواسطة أيادي السافاك. وسقطت وزارة آموزكار. فشكَّل النظام- بهدف السيطرة على الأوضاع - وزارة ما يُسمى بالحوار الوطني برئاسة السناتور جعفر شريف إمامي. واعتبر الأخير - في خطاب متلفز - نفسه من مقلدي السيد شريعتمداري، ومن مؤيدي العلماء. وفي خطوة تكتيكية محسوبة، طبقاً لتحليلات السفارة الأميركية، منح المعارضة بعض الامتيازات منها: إلغاء التاريخ الشاهنشاني (الملكي) والعودة إلى تبنّي التاريخ الهجري بشكل رسمي في البلاد. إلا أن الإمام الخميني، أصرّ على مواقفه، ودعا جماهير الشعب إلى الثورة والقضاء على النظام الملكي، وتأسيس النظام الإسلامي. وكانت إقامة صلاة عيد الفطر في ٤ أيلول عام ٧٨ بإمامة الشهيد مفتح في منطقة القيطرية بطهران، استعراضاً كبيراً لمعارضي الملك ودعم جماهير الشعب لبرامج الإمام. وبعد يومين على ذلك، اضطرت حكومة الحوار الوطني إلى فرض الأحكام العرفية في طهران واثنتي عشر مدينة من كبريات المدن. وعلى الرغم من استقرار الدبابات والسيارات المحمّلة بالجنود في الشوارع، تواصلت التظاهرات الشعبية، وكانت هتافات «الموت للملك» تطرق الأسماع على طول الوقت. وفي عملية انتقامية، قام الملك بواسطة حكومة شريف إمامي بحملة قمعية وحشية ضد الجماهير المنتفضة في ساحة الشهداء بطهران في ٨ أيلول

٧٨، راح ضحيتها مئات الأشخاص.

وكان الإمام الخميني يُبشّر - بجزم وبلا تردد - بالانتصار ويدين أي حديث يؤدي إلى العدول عن المواقف المعلنة، أي إسقاط النظام الملكي، ويحذر جماهير الشعب من مثل هذه الأحاديث بشكل متواصل . ومع اتساع نطاق التظاهرات بقيادة الإمام، كثّفت السفارة الأميركية في طهران من نشاطها، وأخذت تجري مفاوضات مع المعارضين الوطنيين، وفي هذه الأثناء، كان يتداول على الألسن أسماء أشخاص من قبيل: سنجابي، وصديقي وآخرين. ونزل السيد شريعتمداري - بماضيه الذي أشرنا إليه فيما مرّ - إلى الساحة بدعم إعلامي من قبل الوطنيين وحركة نهضة الحرية، وأخذ يقيم اللقاءات الصحافية الواحد بعد الآخر ويصدر البيانات، ويطالب بالاشتراك في قيادة الثورة.

وبفضل انتفاضة الشعب عام ٧٧ مجدداً، تم إطلاق سراح السجناء السياسيين على مراحل. وصار زعماء الفئات الخارجين من السجن، بصدد إعادة تنظيم مجاميعهم المفتتة. ولم يؤيد هؤلاء الانتفاضة في الأشهر الأولى منها، بسبب إسلاميتها مائة بالمائة وقيادتها العلمائية بزعامة الإمام الخميني، حتى، أنهم وقفوا منها موقفاً سلبياً في تحليلاتهم ونقدهم لها، إلا أن اتساع نطاق النهضة وشمولها أنحاء البلاد كافة، والتظاهرات الحاشدة التي انطلقت يوم عيد الفطر، وانتفاضة ٨ أيلول، اضطرتهم إلى النزول إلى الساحة لاستثمار الأوضاع. فتصاعدت حتى التجمعات السياسية، والادعاءات الطليعية في النضال، ورفع اللافتات الحزبية خلال التظاهرات، إلا أن شعارات أبناء الشعب بشكلٍ عام، وأسلوب تنظيم التظاهرات وانطلاقها من المساجد بقيادة العلماء، دلَّ على عمق تأثير بيانات الإمام وتأييد الشعب له . وامتدت الاضطرابات الشعبية شيئاً فشيئاً إلى الدوائر الحكومية، ووجّه إضراب العاملين في شركة النفط عن العمل، ضربة موجعة إلى كيان النظام المعتمد

على النفط، وتبع ذلك استجابة العاملين في شركة الهاتف، والمصارف، والصحافة، وبقية المؤسّسات والدوائر الحكومية، لبيان الإمام وانضموا إلى المضربين عن العمل.

لم تتمكّن الحكومة العراقية من السيطرة على نشاط الإمام، وفي أواخر أيلول ٧٨، سعت الجهات الأمنية وسعدون شاكر - مدير الأمن العام في العراق- خلال لقاءات عديدة مع الإمام، إلى إجبار سماحته، بالتهديد، على وقف نشاطاته السياسية. وقد أشار الإمام إلى واحد من هذه اللقاءات، خلال خطبه وأحاديثه قال: «... إنّه قال بشكلٍ رسمي بما أن لدينا مع الحكومة الإيرانية بعض الاتفاقيات، لذا لا يمكننا أن نتحمّل نشاطكم هنا.. يجب أن لا تكتبوا شيئاً أو تتحدثوا أو تسجّلوا شريطاً وترسلوه، لأن ذلك يتنافى مع تعهداتنا. فقلت له: إن هذا واجبي الشرعي. واعملوا أنتم أيضاً بواجبكم» (٣).

وقد جاء في جانب من التقرير الذي أعدّه جهاز السافاك بتاريخ ٢/١٠/٧٨ عن نتائج لقاء وفد السافاك مع الجهات الأمنية في بغداد ما يلي:

«جرت مباحثات لمدة ٣٠٢ ساعات مع سعدون شاكر، ولفت أنظارنا التالي... أنه (سعدون شاكر) التقى الخميني لعدة مرات، ويعتبره شخصاً متصلّباً ومصمّماً على مواصلة خططه، ويعتقد أنه لا ينصرف عن متابعة أهدافه بأي حال من الأحوال. وفي ردّه على إبلاغه بأن عليه أن ينصرف عن النشاط السياسي، قال الخميني: «أنا رجل دين وسياسة في آن واحد، ولن أعدل عن آرائي السياسية بأي حال من الأحوال» (٤).

وعلى أثر الضغوط التي مارسها النظام العراقي على الإمام، قرّر سماحته أن يهاجر هجرته التاريخية، ليكمل بذلك مسيرته الجهادية الطويلة المليئة بالصعاب والمشاكل، تلك الهجرة التي خطرت في ذهن الإمام بشكل إعجازي، وتسببت في أن يدوي نداء الحق من فم مرجع دين شيعي حتى في قلب أوروبا والعالم الغربي. وعن دوافع قراره هذا، قال الإمام: «... كنا ننوي أن نذهب إلى

الكويت ومن هناك إلى سوريا.. لم يكن في برنامجنا التوجه إلى باريس. ولعلّ هناك قضايا لم تكن لإرادتنا دخلاً فيها - وما حصل منذ البداية أيضاً - كان مشيئة إلهية... الله وحده هو الذي شاء أن يحصل مثل هذا» [٥]. ومن جهة أخرى، فاستناداً إلى اعترافات آمر قاعدة الطائرات المروحية في كرمانشاه، وكذلك الوثائق الموجودة، فإن جهاز السافاك، ما أن اطلع على خبر قرار الإمام بمغادرة النجف، حتى استعد لاختطافه ونقله إلى العاصمة (طهران) ومن هناك إلى مكان مجهول، في حال دخوله الأراضي الإيرانية. كتب «مقدّم» رئيس جهاز السافاك إلى رئاسة هيئة الأركان المشتركة للجيش يقول: «لمّا كان من الممكن أن يدخل المذكور أعلاه (روح الخميني) إلى البلاد عن طريق الحدود جواً أو براً، لذا يجب في هذه الحال عدم تضييع الوقت وإرساله هو ومرافقيه فوراً إلى العاصمة بطائرة أو مروحية هليكوبتر. يُرجى توجيه أمر إلى آمري المعسكرات، والقواعد الجوية، والقواعد العسكرية في المدن الحدودية من أجل التنسيق والتعاون مع دوائر الأمن والاستخبارات في مناطقهم بهذا الخصوص»[٦].

وعندما لم تحقق لقاءات المسؤولين الأمنيين العراقيين مع الإمام شيئاً، حاصرت القوات البعثية دار الإمام في النجف الأشرف، إلا أنّ الإمام لم يتراجع عن موقفه، مما حدا بمجلس قيادة الثورة البعثي إلى اتخاذ قرار يتعيّن بموجبه إبعاد الإمام عن العراق وإبلاغ سماحته به. فقرّر الإمام التوجه إلى الكويت. وبعد ساعات من الانتظار على الحدود، لم تسمح الحكومة الكويتية بدخول سماحته إلى الكويت، فاضطر إلى العودة إلى البصرة هو ومرافقيه. وقرّر التوجه إلى سوريا، إلا أنّه لم يكن معلوماً ما إذا كانت سوريا ستسمح له بالدخول إليها وممارسة نشاطه السياسي على أراضيها. فاقترحت إقامة الإمام في فرنسا لفترة قصيرة، حيث ستتوفّر للإمام فرصة إبلاغ رسالة سماحته إلى مسلمي أوروبا، وتهيئة مقدّمات السفر إلى بلد آخر. ومن هنا، فقد

جاء اقتراح التوجه إلى فرنسا من قبل. فأعلن الإمام، بعد دراسة المقترح والتشاور حول أوضاع البلدان الأخرى، قراره بالتوجه إلى باريس، وأخيراً غادر الإمام وجماعة من رفاقه وابنه السيد أحمد بغداد إلى باريس في صبيحة يوم ٥ تشرين الأول ١٩٧٨ (٧).

لم يراع البعض من الكتّاب الأمانة التاريخية في نقل هذه القضية، وسعوا إلى أن يوحوا بأن شخصاً أو فئة معيّنة كان له دور في قرار الإمام بالتوجه إلى فرنسا، في حين أن الحقيقة هي خلاف هذا الادعاء، وما مرّ ذكره هو الواقع، كما أكّد الإمام ذلك في ختام وصيته، حيث قال:

«ادّعى البعض - كما سمعت - بأن ذهابي إلى باريس كان بواسطته، هذا كذب.. لقد انتخبت باريس بالتشاور مع أحمد، بعد إعادتي من الكويت، من حيث أن عدم السماح لنا بدخول البلدان الإسلامية، كان أمراً وارداً لنفوذ الملك فيها، بينما لم يكن هذا الاحتمال وارداً في باريس».

ومع الساعات الأولى لوصول الإمام إلى باريس، التقى ممثّلون عن قصر الأليزيه بسماحته وأبلغوه بقرار الحكومة الفرنسية الرسمي، القاضي بمنعه من ممارسة أي نوع من النشاط السياسي. إلا أنّ الإمام ردّ، بنفس الحزم الذي واجه به المسؤولين العراقيين، بقوله:

«لقد كنّا نتصور أن الوضع هنا يختلف عن العراق. إنني سأقول كلامي أينما حللت. وانتقل من مطار إلى مطار، ومن مدينة إلى أخرى، لأعلن للعالم بأن جميع الظالمين قد وضعوا يداً بيد من أجل أن لا يسمع العالم المظلومين، إلا أنني سأوصل صوت الشعب الإيراني الأبي إلى أسماع العالم. وسأقول للعالم ما يجري في إيران».

وإثر القرار الفرنسي هذا، انهال على الرئيس جيسكار والمسؤولين الفرنسيين، سيل من البرقيات والرسائل الداعية بإصرار إلى السماح لقائد الثورة بممارسة نشاطه السياسي بحرية، من قبل الشخصيات السياسية، والدينية، والجمعيات، والاتحادات الطلابية، والعلماء من خارج البلاد

وداخلها. فأدّت شعبية الإمام وضغوط الرأي العام إلى أن يخفّف المسؤولون الفرنسيون من ضغوطهم على نشاط سماحته دون الإعلان عن ذلك بشكل رسمي. وكان الإمام يعمل، في نوفل لو شاتو بضواحي باريس، على مدى الوقت، باستثناء ساعات محدودة من النهار، ويوجّه الثورة من خلال خطبه المتواصلة عند لقائه الجامعيين والزوار، وإقامة المؤتمرات الصحافية، وإصدار البيانات المتواصلة بشأن الأوضاع في إيران. وتصدّرت قضايا إيران وتطورات الثورة الإسلامية في هذه الأيام أخبار العالم.

وفي إيران أيضاً، لم تتمكّن حكومة «الحوار الوطني» برئاسة العميل البريطاني المعتق والماسوني الكبير شريف إمامي، من أن تقدّم عوناً للنظام الملكي، أمام صلابة وحزم الإمام وتأييد الشعب له. وخلال الفترة القصيرة من تولي شريف إمامي للوزارة، حدثت مجزرة ٨ أيلول، وكارثة المسجد الجامع في كرمان، وفرضت الأحكام العرفية، وقمعت الجماهير بشكل واسع في مختلف المدن، ووصل الإضراب العام إلى ذروته. وفي بيان له بمناسبة مجزرة ٨ أيلول، خاطب الإمام الخميني الشعب الإيراني بقوله: «ليت الخميني كان معكم وقُتل إلى جانبكم في جبهة الدفاع في سبيل الله. أيها الشعب الإيراني كونوا واثقين بأن النصر سيكون حليفكم عاجلاً أم آجلاً».

ومع حلول فصل الدراسة في أوائل مهر، زاد إضراب المراكز التعليمية والثقافية عن العمل من أزمات النظام. وخرجت بمناسبة ذكرى نفي الإمام -٤ تشرين الثاني ٧٨ - تظاهرات واسعة في أطراف جامعة طهران، وقد دلّت شعارات عشرات الطلبة والجامعيين وهتافات «الموت للملك» و «الموت لأمريكا» على أن خطاب الإمام المناهض (لمعاهدة الحصانة) قبل أربعة عشر عاماً، قد أعطى ثماره الآن. وقمعت التظاهرات بوحشية من قبل رجال أمن وشرطة حكومة الحوار الوطني أثناء إقامة صلاة الظهر. فيما انهارت وزارة شريف إمامي في اليوم التالي، وخلّفتها بشكل رسمي حكومة عسكرية. وكُلّف بتشكيل الوزارة الفريق ازهاري، المعروف بـ «جزّار طهران» لدوره الإجرامي في مجزرة

محرّم الرهيبة. وعلى إثر سقوط حكومة شريف إمامي، شكر الإمام - في بيان له - الشعب الإيراني وقال: «اصبروا يا أعزائي فإن النصر قريب، والله مع الصابرين».

حلّ شهر محرّم الحرام - عام ٧٨ - والشعب الإيراني الذي حمل حب الحسين وأهدافه السامية بين جوانحه جيلاً بعد جيل، يريد الآن أن يستعرض هذا الحب والتيم. ويتقرر - باقتراح من أتباع الإمام والعلماء - أن يصعد أبناء الشعب الإيراني، في كافة أنحاء البلاد، إلى سطوح المنازل في الساعة التاسعة من ليلة الأول من محرّم الحرم، وتتصاعد أصوات التكبير والموت للملك إلى عنان السماء. ويطلق رجال أمن الحكومة العسكرية - في رد فعل هستيري - النار بشكل عشوائي. وتنسحب التظاهرات إلى الشوارع ويستشهد عدد كبير ويصاب آخرون بجروح. ويعلن الإمام في بيان له بهذه المناسبة:

«إن الشعب الذي نهض متسلّحاً بسلاح الوعي واليقظة وشخّص أن نهضته هي نهضة شرعية - إلهية ، ينظر إلى هذه الأسلحة الصدئة باستهزاء. إن هذا الشعب هو من شيعة رجل التاريخ الأعظم (الحسين (ع)) الذي قاد بعدد قليل من الأنصار ثورة الطف العظيمة ودفن سلالة الأمويين في مقابر التاريخ وإلى الأبد. ولسوف يدفن الشعب الإيراني الأبي المشايع للإمام (ع) سلالة بهلوي الشيطان في مقبرة التاريخ بإذن الله، وترفرف راية الإسلام في ربى البلاد، لا بل وفي البلدان الأخرى أيضاً».

وفي بيانه هذا، طلب الإمام الخميني - في معرض دعوته إلى مواصلة الإضراب والتظاهرات حتى القضاء على النظام - من الجنود أن يهربوا من الثكنات العسكرية. وبدأت موجة من الهروب من الجيش، وتلقّى النظام بذلك، ضربه أخرى قاصمة في مفصل هو الأكثر حساسية في كيانه. ووصل طغيان (الثورة) إلى قوات الحرس الملكي الخاص، وأعدم الجنود الثوريون، في يوم عاشوراء، عدداً من ضباط الحرس في معسّكر لويزان رمياً بالرصاص. وإثر بياني الإمام الخميني في يومي التاسع والعاشر من محرّم، خرجت بدعوة من

آية الله الطالقاني وجماعة العلماء المجاهدين، تظاهرات كبيرة في طهران قدرت وكالات الأنباء عدد المشاركين فيها بـ ٣ إلى ٤ ملايين شخص. وكانت هذه التظاهرات في الواقع بمثابة استفتاء شعبي على تأييد الجماهير للإمام ومعارضتهم للملك.

ولم يبق بيد (الفريق) «ازهاري» أداة يُظهر بها سيادة الحكومة في البلاد، سوى استخدام الدبابات والرشاشات، وامتد الاضراب إلى معظم الدوائر الحكومية الحساسة والقطاعات الصناعية والتجارية والثقافية في البلاد، وتواصلت التظاهرات والاشتباكات مع رجال الأمن والشرطة. ووزع موظفو البنك المركزي (منشوراً) جدولاً يتضمن إخراج أقرباء النظام حوالي (٣١٠) مليار ريال إلى خارج البلاد خلال فترة شهري حزيران وتموز ٧٨ فقط. وأدّى انتشار هذا الخبر إلى أن يبادر الناس إلى سحب أرصدتهم من البنوك، الأمر الذي شلّ البنية المالية للنظام بالفعل. وكانت الحكومة العسكرية قد أعلنت في وقت سابق، أنها لا تدفع رواتب العاملين المضربين عن العمل. فتشكّلت - بأمر من الإمام الخميني - لجان لدعم المضربين. وفي التظاهرات الدامية التي انطلقت في مشهد المقدّسة، سقط المئات بين شهيد وجريح، ولم يستجب الشعب لاعتذارات الملك ووعوده التي أطلقها من التلفزيون. وفقد الملك في هذه الأيام السيطرة على زمام الأمور بشكل كامل - كما كتب أقرب المقرّبين إليه - وطلب إلى السفيرين الأميركي والبريطاني راجياً أن يبحثا له عن حل . وفشلت الحكومة العسكرية - أيضاً - وأخذت أسماء عناصر من الوطنيين تُتداول على الألسن مجدداً باعتبارهم البدائل المحتملة (للفريق) ازهاري. فأعلن الإمام في لقاءاته الصحافية أن من يتفاوض مع الملك ويتقبّل تحمّل مسؤولية تشكيل الحكومة الملكية يُعدّ خائناً وسنقاومه. وأخيراً، وبعد أن أجرت ثلاثة بلدان أوروبية (فرنسا، وبريطانيا، وألمانيا) مشاورات مع الرئيس الأميركي في كوادالوب، تقرّر طرح اسم شاهبور بختيار كفرصة أخيرة للغرب (لإنقاذ الوضع). ومع وصول الجنرال هايزر إلى إيران، تواصلت المساعي والاتصالات

السرية على قدم وساق، ونصبت الولايات المتحدة الأميركية - التي كانت تحلم بتكرار انقلاب ١٩ آب - الوزير في حكومة الدكتور مصدّق (سابقاً) والعضو النشط في الجبهة الوطنية، أي بختيار على رأس الوزارة في ٣ كانون الثاني ٧٩، وبعد ١٣ يوماً هرب الملك من البلاد طبقاً للبرنامج المعدّ له مسبقاً. وطلب المتحدّث باسم البيت الأبيض، ووزارة الخارجية البريطانية بشكل رسمي من العسكريين في إيران دعم وتأييد بختيار وأخذ الجنرال هايزر على عاتقه مسؤولية التنسيق بين القوات المسلحة في إيران. ولم يعر الإمام الخميني بالاً إلى تحذيرات وضغوط الحكومة الفرنسية التي كانت قد تشددت مجدداً. وبعد هروب الملك من البلاد، حلَّ محله - ظاهرياً - المجلس الملكي الذي لم يكن له أي دور يذكر سوى الاسم وتشكيل جلسة واحدة. إلا أنه ونتيجة لموقف الإمام منه، انهار هذا المجلس[٨] - أيضاً - بعد فترة، واستقال رئيسه[٩].

وأكّد الإمام في بيانه، ذي النقاط العشرة بمناسبة ذكرى أربعينية الإمام الحسين (ع) على ضرورة تشكيل مجلس قيادة الثورة في إيران. وخرجت تظاهرات في الأربعينية بشكلٍ أوسع من التي خرجت في اليوم العاشر من محرّم. وأعلن الإمام في بيان له:

«لقد ذهب الملك وانهارت الملكية . وأخرج لصوص بيت المال الثروات، وهربوا الواحد بعد الآخر. وسوف يُجازيهم الشعب (الإيراني) الشجاع في أقرب فرصة ممكنة.. سألتحق بكم عمّا قريب إن شاء الله تعالى... أخطروا ممثلي محمد رضا بهلوي، الذين احتلوا المجلس غصباً، بأن يخلو بيت الشعب.. أُحذّر أعضاء المجلس الملكي، الذي هو فرع من جذور غير شرعية، من الاستمرار فيه، وأدعوهم إلى الاستقالة من المجلس».

الجدير بالذكر هنا هو أن الوطنيين والليبراليين ومؤيدي سياسة الخطوة خطوة، كانوا يؤيدون تشكيل المجلس الملكي، وقد بذل الكثير منهم مساعي من أجل تغيير رأي الإمام بهذا الخصوص، إلا أن الإمام - ببعد نظره وصلابة رأيه- كان أكبر من أن يقع تحت تأثير مثل هذه التحليلات والإلقاءات. وأخيراً

اقتربت الثورة من أيام انتصارها العظيم. وخفت قلوب الملايين من الرجال والنساء لخبر عودة الإمام إلى أرض الوطن. واتجهت حشود جماهيرية كبيرة من مختلف المدن إلى العاصمة طهران من أجل المشاركة في مراسم الاستقبال. وأمر بختيار بإغلاق المطار، فأخذت الجماهير المليونية التي احتشدت على طول الطريق، من بداية شارع الثورة إلى ساحة الحرية، تهتف وتحذر من أنها ستلجأ إلى السلاح إن استمر إغلاق المطار . واعتصم العلماء المجاهدون وأساتذة الحوزة العلمية في مسجد جامعة طهران، وانضمت إليهم مختلف الجمعيات والشخصيات. واضطرت الحكومة إلى التراجع عن موقفها، وألغت أمر إغلاق المطار.

وأخيراً، وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ١١ شباط ١٩٧٩م، هبطت في مطار مهر آباد بطهران الطائرة التي أقلّت قائد أعظم ثورة معاصرة بعد رحلة طويلة من الجهاد، على الرغم من المعارضة التي أبداها الشرق والغرب لها. وانقضى انتظار الشعب الذي دام لخمسة عشر عاماً، وحدثت مراسيم استقبال لا مثيل لها في التاريخ، باعتراف الكثيرين من المراقبين الأجانب، ووكالات الأنباء المعتبرة، وبشهادة الشعب الإيراني . وبعد كلمة قصيرة له، توجّه الإمام من مطار مهر آباد إلى جنة الزهراء. وشقّت السيارة - التي أقلّت الإمام - طريقها بسلام وسط الأمواج البشرية الهائلة المندفعة من المطار إلى جنة الزهراء، وفي جنة الزهراء كان الزحام قد وصل إلى درجة تعذّر معها أن تشق سيارة الإمام طريقها إلى مقبرة الشهداء، فكان أن استقبل الإمام طائرة مروحية لمسافة عدة مئات من الأمتار، ومن ثم نزل واضعاً قدميه على أرض جنة الزهراء المباركة. وألقى خطابه التاريخي ذاك الذي لا يمكن أن يُمحى من ذاكرة الشعب الإيراني بأي حال من الأحوال.

ولم يمض على وصول الإمام سوى عشرة أيام حتى اقتربت لحظات الانتصار. فخلال هذه الأيام العشرة، التي سُمّيت بعشرة فجر الثورة فيما بعد، كان الإمام يستقبل يومياً حشوداً جماهيرية كبيرة من التوّاقين لزيارته، وإعلان

بيعتهم له في مدرسة علوي ورفاه (محل إقامته). وفي هذه الأثناء جاءت مبايعة ضباط ومراتب القوة الجوية للإمام في ٨ شباط عام ٧٩ دليلاً قاطعاً على زوال النظام الملكي الجائر. فدبّر المستشارون العسكريون والسياسيون الأمريكان آخر خططهم التآمرية والقمعية. وثارت القوى المؤمنة بالثورة في مقر القوة الجوية - التي كانت تعد الركيزة القوية التي يستند إليها الأميريكيون - وفي عصر يوم ١٠ شباط ٧٩، أعلنت الحكومة الأحكام العرفية بشكل كامل، وقرّرت القيام بمجزرة دموية وقمع الثورة بشكل واسع، - بحسب اعترافات كبار المسؤولين المعتقلين في النظام - والوثائق الموجودة، وتحرّكت الدبابات والمصفّحات. فأحبط الإمام - بقراره المهم والحازم - آخر محاولات أميركا والحكومة العميلة لها. ووصل إلى أسماع جماهير طهران بسرعة نداء الإمام.

«إن البيان الذي أصدرته الحكومة العسكرية اليوم، هو خدعة وخلاف للشرع، وعلى الجماهير أن لا تمتثل له بأي وجه من الوجوه» وخلال فترة قصيرة، بنت الجماهير الثائرة، رجالاً ونساءً، المتاريس واستقرت في أزقة وشوارع ومناطق طهران الحسّاسة استعداداً للمواجهة. وبدأت المواجهات، في أقل من أربعة وعشرين ساعة، سقطت قلاع النظام الواحدة بعد الأخرى، ودوّى (راديو) «صوت الثورة» موصلاً خبر انتصار انتفاضة الإمام والشعب في ٥ حزيران إلى أسماع العالم.

لقد واجهت الثورة الإسلامية، فجر ١٠ شباط ٧٩ من الأحداث المعادية، التي لعبت فيها أميركا دوراً رئيساً تعاضدها في ذلك الدول الغربية والاتحاد السوفياتي في كثير من الأحيان، وبتعاون الفئات والأحزاب اليسارية واليمينية المختلفة في إيران - ما لا تُعد ولا تُحصى، ويتعذر في هذه المقدّمة حتى ذكر عناوينها.

ومن هذه الأحداث، اصطفاف الفئات المسلّحة في مواجهة الثورة، والاشتباكات في نبد وكردستان، وفتنة حزب الشعب المسلم، وخيانة بني صدر والليبراليين، وتفجير مقر الحزب الجمهوري، وارتكاب المجرزة الوحشية التي

راح ضحيتها الشهيد بهشتي و ٧٢ من أتباع الإمام الخلَّص، واستشهاد باهنر ورجائي وشهداء المحراب، واغتيالات المنافقين، وفرض حرب طويلة على الثورة بدعم مطلق من الشرق والغرب لمدة ثمانية أعوام، وقصف المدن والمؤسسات النفطية والاقتصادية، وفرض الحصار الاقتصادي والتسليحي والسياسي على إيران من قبل الكثيرين من حلفاء أميركا والغرب، والمحاولات الانقلابية، والحملات الإعلامية المنسّقة بكثافة ضد نظام الجمهورية الإسلامية الفتي[١٠].

ورغم كل هذه الصعاب فقد استطاعت الجمهورية الإسلامية بشعبها، وقائدها التاريخي الفذ أن تتحدّى كل المشاكل، وأن تخرج عند كل مرة أقوى مما كانت بلطف الله سبحانه، ورعاية ولي الله الأعظم (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء)، وحكمة وشجاعة الإمام الخميني..

ومع النجاح في الثبات على نهج الحق رغم الابتلاءات، ارتفعت راية هذه النهضة وعمَّ نهج الاقتدار الذي سلكته، في تأثيراته أرجاء العالم الإسلامي وغيره.. وصار الإمام كما النهج مصداقاً متأسّياً لسيرة النبي إبراهيم (ع) ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[١١]. فكان السيد الخميني؛ وكان نهج الاقتدار؛ نهج الإسلام المحمّدي الأصيل..

هذا وبعد جهاده الطويل، أخذ المرض يمتد في جسد الإمام؛ الذي ما تعبت فيه النفس والروح حتى كان عام ١٩٨٩م.. حيث دخل الإمام المستشفى وأجريت له عملية جراحية.. وبعد عشرة أيام، حيث اشتاقت الروح أبلغ الشوق لملاقاة ربها، وأوليائها الأحباب، رسول الله (ص) والأئمة الأطهار (ع)؛ ودَّع الإمام (قدس سره) هذه الدنيا الفانية في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة من مساء يوم السبت؛ الثالث من حزيران عام ١٩٨٩م.

وفي اليوم التالي نقل الجثمان الطاهر، إلى مصلّى طهران الكبير وشيّعت الملايين من الناس قائدها الملهم بطريقة تفوق كل وصف، حيث قدَّر البعض عدد المشاركين بالتشييع بحوالي سبعة عشر مليون شخص ووري الجسد الشريف الثرى في الأرض التي أحبّها الإمام؛ بالقرب من جنة الزهراء.. والتي

هي مقبرة شهداء الثورة الإسلامية الذين طالما وصفهم الإمام (قده) بأبطال الثورة الحقيقيين..

وهكذا أعلنت إيران الحداد العام لمدة أربعين يوماً.. لفّ كافة البلاد؛.. بل وانسحب على العديد من بلدان العالم..

وفاة الإمام الخميني (قده) ومصير نهج الاقتدار:

لقد كان رهان قوى الاستحواذ الأميركي والغربي، كبيراً على وفاة الإمام الخميني؛ إذ اعتقدوا أن نظام الحكم الإسلامي في إيران سيسقط مع وفاة قائده ومؤسّسه.. ولم يخطر ببالهم أن حركة الإمام، هي أساساً انبعاث جديد لبعثة النبي محمد (ص).. وبالتالي فهي ليست مجرّد حركة في الفراغ، بل هي نهج له أسسه وأصوله التي استعادت ثقة الأمة بها بسبب حركة الإمام (قده). والنهج عادة لا ينقضي مع وفاة أو غياب قائده، وإن تعرّض للخطر، إذ حفظ النهج رهن بوعي الأمة، وإرادة قائدها الجديد، ومستوى تماهيه مع المؤسّس للمسار النهضوي.. من هنا، وأمام الأخطار المحدقة، وهول المُصاب فلقد تداعى مجلس الخبراء منذ الليلة الأولى لرحيل الإمام (قده) لمناقشة مسألة القيادة، وبعد عشرين ساعة من النقاش والتباحث خرجوا بنتيجة؛ طالما كان يشير إليها الإمام الراحل (قده)؛ وهي انتخاب آية الله العظمى الإمام الخامنئي (حفظه المولى) قائداً للأمة الإسلامية.. على أن يتولى المسؤوليات القيادية للجمهورية الإسلامية الإيرانية،.. وهكذا، فإن هذا النهج الاقتداري أخذ يمرُّ بمرحلة جديدة وحسَّاسة، سيتحدّد بموجبها طريق سيره،.. ومدى جدارته على الخوض في مجمل الصراعات والاستحقاقات الداخلية والدولية.. وما حصل بالفعل هو أن الإمام الخامنئي، .. استعاد لغة وروح الإمام الخميني(قده) في تحديد رؤيته للإسلام ونهج الاقتدار؛ والتحركات السياسية والاجتماعية والدينية .. إذ في السنة الأولى لذكرى رحيل الإمام الخميني(قده).. يبرز الإمام الخامنئي أصول موقفه النظري والعملي لعملية

القيادة.. هذه الأصول التي رسّخت العلاقة الوطيدة بين الأمة ونهج الاقتدار المحمّدي الأصيل الذي انبعث في هذا العصر مع الإمام الراحل.

ونحن نجمل هذه الأصول بما يلي:

أولاً: إرجاع عناصر قيام ونجاح النظام الإسلامي المقتدر إلى قدرة الإسلام على خلقها وتحريكها.. «نشأة هذا النظام ومقدّماته والكفاح الذي انتهى إلى قيامه كان صاحب الدور الرئيسي والعالم المحرّك للتحرّك هو الإسلام والعقيدة والإيمان والتربية الإسلامية . فالشعب الإيراني وعبر انتفاضته الشجاعة بوجه نظام التسلّط العالمي والقوى العظمى قد صنع عملاً فريداً من جهة، ومن جهة أخرى نجد قائد الثورة رفيع الشأن يقف كالطود الشامخ أمام كل العواصف المعارضة، ويكسر شوكة هذه العواصف ويبقى صامداً لا يهزّه شيء، ومن جهة ثالثة نلاحظ قدرة النظام الإسلامي الحديث على إدارة شؤون البلاد دون اللجوء إلى الأجانب .. إن كل هذه العناصر استمدت قدرتها من الإسلام .. فهو الجوهر الحقيقي للقدرة والصلابة والعزة»(١٢).

إذاً فالاعتماد على الأمة الشجاعة، وصلابة القيادة، وقدرة النظام على الإرادة، في كل مرة ترتبط بالإسلام، لا بدّ أن تفرز مقوّمات نهج الاقتدار من القدرة والصلابة والعزة والاستقلال..

ثانياً: وبنفس المنهجية التي طرحها الإمام الراحل (قده) فإن الإمام الخامنئي اعتبر «أن الإسلام دين التوحيد، والتوحيد يعني خلاص الإنسان من العبودية والطاعة والتسليم لأي شيء أو شخص سوى الله، ويعني تحطيم كل قيود النظام السلطوي الإنساني، ويعني كسر طلسم الخوف من القوى الشيطانية والمادية، ويعني الاعتماد على الطاقات المطلقة التي أودعها الله في وجود الإنسان وطلب منه الاستفادة منها كفريضة لا يمكن التخلّف عنها.. إنه يعني الاعتماد على الوعود الإلهية بانتصار المستضعفين على الظالمين

والمستكبرين شريطة القيام بالكفاح والثبات.. ويعني التعلّق القلبي بالرحمة الإلهية وعدم الخوف من احتمال الهزيمة»(١٣).

وهكذا يصبح التوحيد أصل الأصول العقائدية وركن الإيمان، وحصن بناء الذات العزيزة، وبناء مجتمع الاقتدار والمنعة.

إذ «كل أنواع العزة والعلاء التي وُعد بها المسلمون إنما تكمن في ظل هذا الإيمان والإدراك الواضح والعميق للتوحيد» (١٤).

وبمقابل قيم الاقتدار المبنية على ركن التوحيد التي شكّلت منهج الاقتدار الحضاري، تقع وعلى طرف النقيض حضارة قوة الاستحواذ؛ التي أطلق عليها الإمام الخامنئي حضارة «آلهة التبر والقهر».. والتي يعتقد أن تركنا لنهج الاقتدار هو الذي سيودي بنا إلى الوقوع فريسة حضارة قوة الاستحواذ هذه «إننا نجد في عصر التسلّط الاستكباري أن الغفلة عن التوحيد الإسلامي الأصيل ومفهومه الحياتي الشامل هي التي تركت الساحة مفتوحة للآلهة الاستعمارية وأفسحت المجال لآلهة التبر والقهر لتنفرد بالساحة» (١٥).

وعلى هدي هذا الركن الحصين لنهج الاقتدار، فإن الإمام الخامنئي يتوقع أن يكون مستقبل العالم لنهج الاقتدار.. «إن البطل الحقيقي هو الإسلام.. وأن الانبعاث الإسلامي هو الذي أيقظ النفوس اليوم ليمهِّد السبيل،.. ليوم يثور فيه السؤال على وجه الأرض كلها **﴿لمن الملك اليوم﴾**(١٦) فلا تجد إلا جواباً واحداً من أرجاء العالم الأربعة: **﴿لله الواحد القهار﴾**»(١٧).

ثالثاً: تأكيده (حفظه المولى) على أن صيغة الثورة الإسلامية إنما تشكّلت «تبعاً لأسلوب النبي الأعظم (ص)» (١٨)..

وهو الأمر الذي كان قد بيّنه الإمام الراحل بوضوح..

رابعاً: تطوير فهم خصوصية نهج الاقتدار الذي انبعث في هذا العصر، بقيادة الإمام الخميني .. عن بقية الحركات الإصلاحية والإحيائية في المنطقة.. إذ «إننا نجد أن المصلحين الإسلاميين والمفكّرين الذين ثاروا في المائة والخمسين سنة الأخيرة، بدوافع متعدِّدة، وحملوا لواء الدعوة الإسلامية

وإحياء الفكر الإسلامي من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني ومحمد إقبال والآخرين، رغم ما حملوا من قدسية ثمينة غالية ابتلوا بنقصٍ كبير في عملهم يتلخّص في أنهم بدلاً من إشعال ثورة إسلامية اكتفوا بدعوة إسلامية.. ولذا يلاحظ أن سعي المخلصين من هذه المجموعة الدائب واللامحدود لم يستطع مطلقاً أن يوقف الحركة المعاكسة المتجهة نحو انحطاط الشعوب المسلمة، أو يرجع للمسلمين العزة والعظمة.. حتى لم يستطع ذلك أن يقوّي من عقيدة الجماهير المسلمة.. وهو أمرٌ يبتعد كلياً عن أسلوب الرسول العظيم (ص).. أما إمامنا الراحل؛ لكي يجدِّد حياة الإسلام فقد اتبع بكل دقة ذلك الطريق الذي طواه الرسول الأكرم (ص) أي طريق الثورة.. ذلك أن الحرية مبدأ في الثورة.. الحركة الهادفة المدروسة المتصلة، التي لا تعرف الكلل والملل والمترعة بالإيمان والإخلاص» (١٩).

وهكذا حسم وبوضوح أن سلوك نهج الاقتدار اقتضى من قائد الثورة الجديد انتهاج «حركة هادفة مدروسة (التخطيط) متصلة بنهج الاقتدار، حركة إيمانية جهادية لا تكلّ ولا تملّ في تصميمها على تحقيق الأهداف..».

ولقد استكمل الإمام الخامنئي في هذا العصر الأسس العملية التي ينبغي اعتمادها على أساس نهج الاقتدار بثمانية نقاط نذكرها على نحو الاختصار:

الأولى: ضرورة الإحياء الدائم لأفكار وتوجيهات الإمام الخميني لأنها هي التي ترسم الخط الأساسي للحركة، وتعيّن المعايير والمعالم الأصلية لهذا الطريق المبارك.

الثانية: ضرورة الوعي الدائم أن كل التضحيات إنما هي لأجل الإسلام.

الثالثة: أن تحقيق العدالة الاجتماعية هي أهم هدف لإقامة الحكومة الإسلامية.

الرابعة: أن وحدة الكلمة هي سر ورمز الانتصار.

الخامسة: الحفاظ على عزة وكرامة الثورة للجمهورية الإسلامية في المحافل والعلاقات الدولية.. لما شكّلته هذه الثورة من ضربة لقوى التحكّم في

العالم.. ومن استعادة الشعوب الثقة والشجاعة المعنوية والعملية في مجال المقاومة.

السادسة: الثقة بخيارات الشعب الحر الأبيّ في إيمانه.. واعتباره أحد أركان الاقتدار.

السابعة: التكامل بين القيادة والناس في مسيرة نهج الاقتدار، وفي الصراعات وتحقيق الأهداف.

الثامنة: تطوير البناء وإعمار الأرض، وتلافي التخلّف والتبعية..

وأخيراً إعلانه (حفظه المولى) «أمام جميع الشعوب، وبكل صراحة أن فكرة انتهاء عصر الإمام الخميني؛ والتي يطرحها العدو بمئات الأساليب والتعابير،.. إنما هي خداع ومكر استكباري لا غير، وأن الإمام الخميني سيبقى رغم أنف أميركا وأعوانها بين شعبه وأمّته حاضراً بكل قوة، وأن عصر الإمام الخميني مستمر وسيبقى مستمراً على الدوام.. إذ نهجه نهجنا، وهدفه هدفنا وإرشاداته هي المشعل الوضّاء الذي ينير لنا السبيل»(٢٠).

وها هي إيران نهج الاقتدار اليوم تدخل مرحلة اللاعودة عن ركب قيادة شعوب العالم المستضعف.. وها هي أفواج المقاومة في لبنان تحقق النصر تلو النصر على قاعدة ومرتكزات السير بنهج الاقتدار المحمدي الأصيل.. وهذه فلسطين والعراق وشعوب المنطقة ترسم مصيرها على هدي هذا النهج الحضاري الغالب (بإذن الله) **﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**(٢١)..

الهوامش:

[1] سورة سبأ، الآية ٤٦.

[2] بعد اعتقاله، نقل سماحة الإمام إلى طهران وسجن يوم ٥ حزيران في نادي الضباط، ونقل في غروب نفس اليوم إلى سجن في معسكر قصر، وفي الخامس والعشرين من حزيران ١٩٦٣ اقتيد إلى زنزانة في معسكّر عشرت آباد، وفي تاريخ ١ حزيران ٦٣ نقل إلى دار تابعة لجهاز السافاك في منطقة الداودية بطهران، وبعد أيام نقل إلى دار أخرى في منطقة القيطرية في طهران، وبقي فيها حتى ٧ نيسان ١٩٦٤ محاصراً برجال من النظام. (الناشر).

[3] حديث الإمام في لقائه أعضاء الحكومة - كيهان ٤/١٠/٧٩.

[4] **وثائق السافاك المدرجة في ملف الإمام** - راجع مجلة حضور العدد ٣ ملحق خاص لمناسبة ١١ شباط ١٩٩٢ (الناشر).

[5] **حديث الإمام في لقائه أعضاء الحكومة** - كيهان ٤ تشرين الأول ١٩٧٩.

[6] **وثيقة السافاك المدرجة في ملف الإمام** - راجع مجلة حضور العدد ٣ ملحق خاص بمناسبة ١١ شباط ١٩٩٢ (الناشر).

[7] راجع مجلة حضور، العدد ١٩٩١٣م (الناشر).

[8] وكالة الأنباء الفرنسية - آيندان ٤ كانون الثاني ٧٩.

[9] جلال الطهراني رئيس المجلس الملكي، الذي سافر إلى باريس من أجل لقاء الإمام. إلا أنّ سماحته اشترط إعلانه استقالته من منصبه قبل أن يستقبله. وبعد أن أعلن استقالته بشكلٍ رسمي استقبله الإمام.

[10] يراجع: مقدمة الجزء الأول من كتاب الكوثر للسيد أحمد الخميني (ره)، وإن بتصرف.

[11] سورة البقرة، آية ١٢٤.

[12] الإمام الخامنئي: **«بيان الذكرى السنوية الأولى»**، م.س، الثقافة الإسلامية، ص١٤.

[13] م.ن، ص ١٥.

[14] م.ن، ص ١٥.

[15] م. ن، ص١٧.

[16] غافر:١٦ .

[17] غافر:١٦ .

[18] م.ن، ص١٨.

[19] م.ن، ص ٣٨.

[20] م.ن، نفس المعطيات.

[21] الصف:٨.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الإمام علي:**«نهج البلاغة»** تحقيق محمد عبدة، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

٢- الإمام الخميني: **«وصايا عرفانية»** إعداد السيد عباس نور الدين، مركز بقية الله الأعظم(ع)، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

٣- الإمام الخميني: **«الآداب المعنوية للصلاة»**، ترجمة وتعريب أحمد الفهري، مؤسسة الاعلمي، ط٣،٢٠٠٤.

٤- الإمام الخميني:**«خطاب الانتصار»**، الوحدة الإعلامية المركزية في حزب الله، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

٥- الإمام الخميني: **«الكوثر»** مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، إيران - طهران، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٦- الإمام الخميني: **«منهجية الثورة الإسلامية»** مقتطفات وآراء، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، طهران، ط١، ١٩٩٦م.

٧- الإمام الخميني: **«نهضة عاشوراء»** خطاب الإمام (قده) في جمع من خطباء وعلماء قم وطهران وآذربيجان الشرقية والغربية بتاريخ ١٧-١٠-١٩٨٢، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني (قده) الشؤون الدولية.

٨- الإمام الخميني: **«الأربعون حديثا»** ترجمة محمد الغروي، دار التعارف، بيروت، ١٤١١ه، ١٩٩١م.

٩- الإمام الخميني: **«الجهاد الأكبر»** ترجمة حسين كوراني، الدار الإسلامية، بيروت، ١٤١١، ١٩٩١.

١٠- الإمام الخميني: «**الحكومة الإسلامية**» دط، د.ت،١٢ ذو القعدة ١٣٨٩.

١١- الإمام الخميني:«**الوصية الخالدة**»، الدار الإسلامية، بيروت.

١٢- الإمام الخميني:«**شرح البسملة**» مؤسسة نشر وتنظيم آثار الإمام الخميني،طهران.

١٣- الإمام الخميني:«**شرح دعاء السحر**»، مؤسسة نشر وتنظيم آثار الإمام الخميني،طهران.

١٤- الأنصاري، حميد:«حديث الانطلاق» مؤسسة نشر آثار الإمام الخميني(قده)، طهران، تشرين الثاني١٩٩٤.

١٥- مركز الإمام الخميني :«**إصلاح المجتمع في فكر الإمام الخميني**»، مركز الإمام الخميني الثقافي، ط٢، تموز ٢٠٠٣م.

١٦- مركز الإمام الخميني الثقافي: «**أبعاد الحج في كلام الإمام الخميني**» جمعية المعارف الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٤، ٢٠٠٢.

١٧- مركز الإمام الخميني الثقافي:«**الشهادة في فكر الإمام الخميني**»، مركز الإمام الخميني الثقافي، بيروت، تموز ٢٠٠٣.

١٨- مركز الإمام الخميني الثقافي:«**خدمة الناس في فكر الإمام الخميني**» جمعية المعارف الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٤، ,٢٠٠٣.

١٩- من مؤتمر في إيران، عقد في ذكرى أربعين الإمام الخميني(قده).

٢٠- الإمام الخامنئي من كلمة له في ذكرى رحيل الإمام (قده)، ٢٠٠٧،٧٤.

٢١- الإمام الخامنئي:«**بيان قائد الثورة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل الإمام القائد**» مجلة الثقافة الإسلامية، العدد ٣٢، محرم - صفر،١٤١١هـ، المستشارية الثقافية في دمشق.

٢٢- ابن أبي جمهور الإحسائي:«عوالي **اللئالي العزيزة في الأحاديث الدينية**» تحقيق السيد المرعشي والشيخ مجتبى العراقي، مطبعة سيد

الشهداء، قم، ١٩٨٢،١٤٠٢.

٢٢- ابـــن البراج:«**المهذب**» تحقيق بإشراف الشيخ السبحاني، جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٦، ج٢ص٤٦٧.

٢٤- ابن منظور:«**لسان العرب**» تحقيق علي شيري،مركز إحياء التراث العربي،بيروت، ط١ ، ١٩٨٢.

٢٥- أبو هلال العسكري:«**الفروق اللغوية**» مؤسسة النشر الإسلامي، جامعة المدرسين،قم، ١٤١٢.

٢٦- السيد حسن نصر الله «خطاب أُلقي في مؤتمر العرفان عند الإمام الخميني»: «**كتاب مؤتمر العرفان عند الإمام الخميني**»، المعهد الاسلامي المعارف الحكمية، بيروت، ١٩٩٩.

٢٧- الشاهرودي، علي نمازي:«**مستدرك سفينة البحار**» تحقيق حسن بن علي نمازي، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، قم، ١٤١٩.

٢٨- الشيخ الكليني:«**الكافي**» تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، قم، ط٤، ١٣٦٥.

٢٩- الشيخ علي كوراني، طريقة حزب الله في العمل الإسلامي، مركز العالم الإسلامي، طهران، ط١، ١٤٠٦ هـ.

٣٠- الصدر، السيد محمد باقر:«**السنن التاريخية في القرآن**» الأعمال الكاملة، دار التعارف، ط١٩٩٠.

٣١- القبانجي، علي:«**شرح رسالة الحقوق**» دار الأضواء، بيروت، ط٤، ١٩٩٩، ص١٩.

٣٢- المتقي الهندي:«**كنز العمال**» تحقيق الشيخ بكري حياني، وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.

٣٣- المعاونية الثقافية في منظمة الإعلام الإسلامي:«**حديث الشمس**» ترجمة رعد جبارة، معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي،

طهران، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢.

٢٤- المناوي، محمد عبد الرؤوف: **«فيض القدير شرح الجامع الصغير»** تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٣٥- خاتمي، محمد:**«بيم موج - المشهد الثقافي في إيران: مخاوف وآمال»** دار الجديد، ط١،٢٠٠٢.

٣٦- رحال، حسين: **«إشكاليات التجديد،سلسلة فلسفة الدين والكلام الجديد»** ، دار الهادي، ط١، ٢٠٠٤.

٣٧- فضل الله، السيد محمد حسين: **«أبعاد شخصية الإمام الخميني...نظرة تحليلية»** كتاب: ثورة الفقيه ودولته، إعداد وحوار حميد حلمي زاده، د.ن، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢م.

٣٨- هانتنغتون، صاموئيل: **«صراع الحضارات»** ترجمة طلعت الشايب مراجعة صلاح قانصوة، كتاب مجلة سطور٢، القاهرة.

٣٩- هانتنغتون، صاموئيل:**«الإسلام والغرب، آفاق الصدام»** ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، القاهرة.

٤٠- السيد رضي الدين علي بن موسى جعفر ابن طاووس:**«إقبال الأعمال»** تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٤هـ.ق..